د. الحسينى الحسينى معدِّى

الأساطير الصينية واليابانية

أساطير العالم

كنوز
للنشر والتوزيع

سلسلة أساطير العالم

الأساطير الصينية واليابانية

سلسلة أساطير العالم
الأساطير الصينية واليابانية

المؤلف
د/ الحسينى الحسينى معدى

الإشراف العام
ياسر رمضان

الناشر
كنوز
للنشر والتوزيع
37 ش قصر النيل ـ القاهرة تليفون: 0127717795

التنفيذ الفنى

فوراتش للكمبيوتر

٠١٠٦٦٧٤٣٣٥

رقم الإيداع: ٢٢٨٢٩/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 977-5307-82-k

سلسلة أساطير العالم

الأساطير الصينية واليابانية

تأليف

د. الحسينى الحسينى معدى

كنوز

للنشر والتوزيع

مقدمـــة

«النمور الآسيوية» تعبير باتت تتناقله وسائل الإعلام والاتصال الثقافى، وفى رأس لائحة هذه النمور اليابان والصين. اليابان التى حققت قفزات سريعة فى عالم التقدم والصناعة. والتقانة عمومًا، على الرغم من نكباتها فى الأربعينيات من القرن العشرين عندما قصفتها أميركا بالسلاح الذرى. والصين التى يقطنها قرابة خمس سكان العالم. ومعد ذلك نراها قد حققت ولا تزال نموًا مطردًا فى المجال الاقتصادى، لذلك لابد من تخصيص جهد للوقوف على أشهر الأساطير التى تسود فى ثقافة هذه الشعوب.

ضمن سلسلة «أساطير العالم» جاء هذا العمل ليستكمل حلقة من حلقات المشروع، لكنها حلقة نوعية: لأننا فى العالم العربى نتعامل مع منتجات هذين البلدين الناشطين، اللذين يشهدان خطوات بعد خطوات على طريق التقدم، ومع ذلك نجد المخزون الثقافى عند المثقف العربى غير كبير عن اليابان والصين خصوصًا فى الجانب المعرفى المتعلق بالأساطير لهذين الشعبين.

إن السكان الأوائل الذين هاجروا إلى اليابان من مناطق آسيا المجاورة لها كانوا يطلقون عليها اسم «نيبون» أى بلد الشمس. وقد انطلقوا بهذا من اعتقادهم أن الشمس إنما تشرق من خلف الجبال المنتشرة على الجزر اليابانية لنير العالم كله. ولا تزال التسمية معتمدة حتى يومنا هذا، حيث يطلق اليابانيون على جزرهم اسم «نيبون تيكولها» أى بلد الشمس المشرقة.

أما الصينيون الأكثر اتصالاً مع جزر اليابان فإنهم كانوا يسمونها:

«جيم بن كو» أى البلاد التى تشرق منها الشمس. وماركو بولو كان يسميها: «زا بانغو»، ثم اقتصرت التسمية على «زابان» وحور الاسم فيما بعد إلى «جابان» وفى اللغات السلافية تقلب «الجيم» «ياء» وبذلك كان الاسم: «اليابان».

ومن المعروف أن ديانة الصين هى الكونفوشية، وقد بلور صياغة مشروعها الدينى الإصلاحى كونفوشيوس فى القرن السادس قبل الميلاد، ولكنها ليست من ابتكاره بقدر ما هى صياغة لما كان يسود الصين من فلسفات وأفكار. لهذا التزمها أهل الصين، ولا يزالون على مدى خمسة وعشرين قرنًا. وبات يصعب الحديث عن الصين دون الكونفوشيوسية.

ومن المعروف أيضًا أن ديانة اليابان هى الشنتوية. وهى ديانة وثقافة أغلب اليابانيين حيث تمثل حالة تراكم للتراث الحضارى لهذه الأمة، وهى غير منسوبة فى أساس نشأتها لشخصى بعينه، وإنما هى تراث اليابان كلها.

لهذا، تكون دارسة واقع الكونفوشيوسية فى الصين، والشنتوية فى اليابان، من الضروريات من أجل معرفة الأساطير وأنواعها فى هذه المجتمعات. وتلمس مبادئ ثقافتها الدينية، هذا بالإضافة إلى ما فى هذه الثقافة من عوامل أسهمت فى المنحى الجدى لشعوبها، كما أنها حفظت وحدة مجتمعاتهم الوطنية لقرون طويلة ولاتزال من أية هزة أو تصدع.

لا أدعى أننى قد أحطت بكل الأساطير الصينية واليابانية، وإنما يصح تصنيف عملى هذا على أنه محاولة قدمت ما استطاع صاحبها على قاعدة: «هذا أحسن ما قدرنا عليه..»، وآمل أن يعكف بعض الباحثين على جمع ودراسة جميع الأساطير الصينية واليابانية القديمة فى موسوعة شاملة حتى ينتفع بها طلاب العلم والمهتمون بهذا المجال فى كل مكان. والله الموفق لما يريد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين على نعمه وتوفيقه.

د. الحسينى الحسينى معدى

الأساطير الصينية

الكونفوشيوسية

مذهب يهتم بالدولة والعائلة فينظم شؤونها أخلاقيًا. وسميت بذلك نسبة إلى «كونفوشيوس» المشرع والمصلح الدينى الصينى الشهير «٥٥١-٤٧٩ ق.م». وهى ليست ديانة بالمعنى المعروف، بل هى مجموعة تعاليم وآراء فلسفية إنسانية. يقوم أساسها على القواعد الأخلاقية، والفضائل الطبيعية التى تؤيدها البراهين الحسية، وتؤكدها العواطف النفسية. وتستند إلى حكمة القدماء. ومبدأ المعاملة بالمثل. يقول كونفوشيوس: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

ومن أقواله أيضًا فى الفضيلة والأخلاق القويمة: «أن تتعاطف مع كل شىء وأن تحب كل الناس وأن تدع مجالاً لأفكار أنانية ذلك هو الصلاح».

ويقول كذلك: «إذا كلفت إنساناً بعمل فثق به، وإذا كنت لا تثق به فلا تكلفه».

ويقول أيضًا: «لا تحزن لجهل الناس بك، ولكن احزن لجهلك بهم».

وكان يهدف إلى توصيل الحكمة القديمة كأساس لمبادئه وتعاليمه فيقول:

«إننى لا أعلم شيئًا جديدًا، وكل ما أفعله هو توصيل الحكمة القديمة».

وقد أدخلت التعاليم الكونفوشيوسية فى برامج تعليم الشباب واستمرت تسيطر عل العقلية الصينية من أول أسرة هان «٢٠٦ ق.م - ٢٢٠م» حتى سقوط أسرة منشو الذى أطلقوا عليه اسم «أحكم الأساتذة الأقدمين» فى عام ١٦٥٧م.

المبادئ الخلقية:

من مبادئها الخلقية إطاعة الوالدين، واحترام الأسرة، السلم بين الحكام والرعية، والعدالة والرحمة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فقد جاء فيها: «الأب

درع للابن والابن درع للأب، والعلاقة بين الاثنين يجب أن تكون قوية». وكان يسعى كونفوشيوس للابقاء على التقاليد فى تعليماته التى تعد المجتمع نظامًا مقدسًا يقوم على قواعد خمس تبين العلاقات الاجتماعية بين أنواع خمسة من الناس هى: ١- علاقة الحاكم بالرعية. ٢- علاقة الزوج بزوجته. ٣- علاقة الوالد بولده. ٤- علاقة الأخ بأخيه. ٥- علاقة الصديق بصديقه..

فهو يقول: «أكرم أباك وأمك وافعل كل ما تستطيعه لجعلهما سعيدين، واعبد ذكراهما ما حييت» وكان يفرض كونفوشيوس فى تعليماته وجوب الطاعة والولاء من غير مناقشة، وكان ينصح أتباعه بالابتعاد عن التفكير فيما وراء الطبيعة، وكنه الروح. وقد يوصل هذه الأفكار والتعليمات إلى أبناء شعبه بشكل تدريجى وبإقناع بطىء وببساطة أخاذة مفهومة. ويحدد كونفوشيوس الرجل الفاضل فى المجتمع فيقول:«إن القاعدة الأساسية التى تقوم عليها أخلاق الرجل الفاضل هى العطف الفياض على الناس جميعًا وهذا الرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس فإذا رأى أفاضل الناس فكر فى أن يكون مثلهم وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره». ويقول أيضًا: «الرجل الفاضل لا يتحيز ولا يتعصب» وعلى الرجل الأعلى أن يضع نصب عينيه أمورًا تسعة يقلبها فى فكره ويحرص على اتباعها وسلوكها.

١- من حيث عينيه، يحرص على أن يرى فيهما بوضوح.

٢- من حيث وجهه، يحرص على أن يكون بشوشًا ظريفًا.

٣- من حيث سلوكه يحرص على أن يكون وقوراً.

٤- من حيث حديثه يحرص على أن يكون صادقًا مخلصًا.

٥- وفى تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه كل عناية واهتمام.

٦- عليه أن يبث الاحترام فيمن معه.

٧- فى الأمور التى يشكك فيها، يحرص على أن يسأل غيره من الناس.

٨- إذا غضب يفكر فيما يجر عليه غضبه من الصعاب.

٩- إذا لاحت له المكاسب فكر فى العدل والاستقامة.

وفى كتابه «الحوار» يميز كونفوشيوس بين الرجل الكامل الخلق والناقص الخلق ويقارن بينهما فيقول: «الرجل الكامل الخلق يطلب الفضيلة، والرجل الناقص الخلق يطلب اللذة. والرجل الكامل يفكر فى اجتناب الرذيلة وأداء الواجب، والرجل الناقص يفكر فى كسب المنافع. والرجل الكامل واقف على البر، والرجل الناقص واقف على الريح». وقد تركزت مبادئ الكونفوشيوسية على فضيلتين اثنتين حسب رأى مؤسسها، وهى فضائل خالدة:

أولهما: آداب اللياقة، فهى تشمل آداب المجتمع وآداب البلاط والشعائر الدينية، ونظم العدالة وقواعد السلوك الحسن، والمبادئ الأخلاقية الرفيع.

وثانيهما: العطف الإنسانى، أى حب الآخرين وطيبة القلب وسلامة النية.

ويعتبر كونفوشيوس أن قواعد اللياقة وآداب السلوك أساسى لكل فضيلة، كما توجد فضائل أخرى كان يلقنها لتلاميذه، مثل صدق الولاء والشعور بالخجل والواضع والحكمة وحب الآخرين، ويقول: «إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة فإذا فقد الإنسان هذه الاستقامة فى حياته افتقد معها السعادة».

ويؤكد على عظمة الإنسان الصادق فيقول: «إن الإنسان هوالذى يجعل الصدق عظيمًا، وليس الصدق هو الذى يجعل الإنسان عظيمًا». ومن أهم القواعد الأخلاقية كذلك قولهم إن الإنسان مفطور على الخير عندهم، والإرادة الإنسانية لها الشأن الأول ولها أثر واضح فى الأكوان ويعدون آلهتهم عادلة. ولعدلها تجعل مشيئتها فى الأكوان على حسب عمل الإنسان، إن عمل خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.. يقول كونفوشيوس: «إن الناس يولدون خيرين متساوين بطبيعتهم، وكلما شبوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجيًا وفق ما يكسب من عادات».

فطريق الخير هو الاعتدال والاقتصاد فى كل أفعال النفس وسجاياها وهم يعدون أن القناعة مع الجد من غير استسلام فضيلة، وأن الرحمة والعدل مع

المسىء فضيلة وغير ذلك. ويعدون أن أقصى الطرفين من إفراط أو تفريط رذيلة وأن الفضيلة طريق السعادة والرذيلة طريق الشقاء والويل لمن يخالف قوانين الأخلاق عندهم. فالآلهة تغضب عليه وترسل عليه شواظًا من نار فيكون الشقاء فى مخالفة قانون الأخلاق والسعادة فى اتباعها والموافقة عليها.. يقول فى كتابه «الحوار»: «لو أننى ارتكبت ما لا يليق، لغضبت على السماء». ويرون أن الرحمة تربط أفراد المجتمع لبعضهم وتجعل الناس متحابين سعداء. وكل مجتمع سعيد تكون الرحمة هى الرابطة بين أفراد وليست الرحمة هى العفو المطلق أو التسامح المطلق، إن الرحمة التى تسبب السعادة هى الرفق بالمجموع ومحبتهم ومعاملة أهل السوء بما يستحقون وغاية الفضيلة عندهم هى الكمال الإنسانى والسعادة لبنى البشر، وإقامة بناء المجتمع على التواد والتراحم والتعاطف.. وقد اتخذ الدين وسيلة لدعم الأخلاق وتوثيق العلاقة بين أفراد المجتمع بعضهم ببعض من ناحية، وبين الحكام من ناحية أخرى وهم يعدون الدين والأخلاق والسياسة شيئًا واحدًا وقد جمعت مبادئ الكونفوشيوسية فى خمسة مجلدات هى أقوال المعلم الحكيم عرفت باسم كتب القانون الخمسة» بحث فى أولها فى المراسم وآداب المجاملة، وفى ثانيها شرح وعلق على كتاب «التغييرات» وفى ثالثها شرح كنه الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة، وفى رابعها «حوليات الربيع والخريف» التى سجل فيها أهم أحداث وطنه، وفى خامسها كل ما عرفته الصين فى تاريخها.

الأخلاق الفاضلة:

عندما دعا كونفوشيوس إلى الأخلاق الفاضلة سلك فيها ثلاثة مسالك هى:

«أ»: احترام الآباء والعناية بتماسك الأسرة وترابطها فهو يقول: «واجب الولد البر بأبويه إذا كان داخل المنزل، والاحترام لذوى الإنسان إذا كان خارجه. والصدق فى أقواله والرحمة بالناس فى كل أفعاله وأن يقترب إلى الفضلاء وأن يقضى فراغ وقته فى كتب الأخلاق».

«ب»: الدعوة إلى الفضيلة بالتدريج وإلى الأخلاق برفق ومخاطبة الناس كل حسب طاقته. يقول أحد تلاميذ المخلصين واصفًا آراء معلمه وأثرها فى نفسه: «إذا رفعت النظر إلى آراء الأستاذ رأيتها أعلى مما كانت وهى ملء نفسى وتحيط بى وتستغرق كل حسى وهو يرشد الناس بالتدريج إرشادًا حسنًا وقد وسع بالعلوم مجال فكرى وضبط بالآداب سلوكى حتى أنى لو رغبت فى ترك آرائه ما طاوعتنى نفسى».

«ج»: الدعوة إلى الخلق القويم والقدوة الحسنة فكان يدعو تلاميذه إلى السلوك الخلقى بأخلاقه ودعاهم أيضًا بكلماته فهو يقول لهم «أتظنون أنى أخفى عليكم شيئًا؟ ما من أمر أعلمه إلا فى إرشادكم وهذه هى طريقتى فى التربية».

إن الكونفوشيوسيين يكرهون أن يظهر الرجل على غير حقيقته ويسمون الأفراد من هذا النوع «لصوص الفضيلة»، وما أكثرهم فى هذه الأيام!

المبادئ السياسية:

للكونفوشيوسية رأى فى السياسة والحكم فهم يعدون أن قوانين الأخلاق لا تنفصل عن السياسة والحكم فأقوام الأخلاق تنتج أقوام السياسة وأفضل أنواع الحكم ويجب على الحاكم أن يصلح نفسه قبل إصلاح رعيته. وإذا لم يستطع الملك أن يسوس نفسه وشعبه بالأخلاق القويمة ينزل عليه غضب من السماء، ينزع منه الملك. فالسياسة الحكيمة تقوم على الأخلاق القويمة. وهى ليست منفصلة عنه والغاية السامية فى السياسة هى إصلاح الأخلاق. يقول كونفوشيوس: «السياسة الحكيمة تهذّب الرعية حتى لا تكون مخاصمة» فهى التى تعطى كل ذى حق حقه فلا تسامح فى قانون الأخلاق ولا تهاون فى مصلحة الشعب ولو كان الآثم ملكًا ستغضب عليه السماء، ولهذا فقد استمر العدل قائمًا بينهم مع إنهم وثنيون ولا يدينون بدين سماوى.. وهو الذى يقول:

«.. إن الحاكم الظالم أخطر على الناس من النمر المفترس». ومن تعليمات كونفوشيوس فى أمور السياسة أنه يجب إنشاء حكومة صالحة أو جمهورية واحدة

يتولى أمرها ذوو المواهب والفضائل تعطى الحقوق لأصحابها. وتؤمن الحياة الكريمة لمن لا يستطيعون كسب العيش كالأرامل والشيوخ العاجزين والمرضى الذين أقعدهم المرض عن العمل.. وكان أباطرة الصين يعدون أنفسهم قدوة صالحة لشعوبهم ومسؤولين عن رفاههم وعاملوهم أحسن معاملة لذلك كان الامبراطور يفرض على نفسه الصيام حين تصاب بلاده بمجاعة وهو دائماً يتحسس آلام شعبه ويعمل على تلافيها وحل مشكلات الرعية، وفي صفات القادة يقول كونفوشيوس: «إذا كان سلوك الرئيس مستقيمًا أطاعه المرؤوسون من غير أن يأمرهم وإن كان غير مستقيم لم يطيعوه ولو أمرهم». فالطاعة إذا تكون عن رغبة النفس واقتناعها.. ومن أقواله في طلب المنصب: «لا يكن همك أن تتولى المنصب، بل اهتم بالفضل الذى تريد أن يعرفوك به». ويعتبر كونفوشيوس أن الشعب ليس إلا معبرا عن السماء أو الله، فهو يخاطب الأمير بقوله: إذا نلت حب الشعب فإنك تنال حكم الامبراطورية وإذا فقدت حب الشعب فقدت الامبراطورية». وهو يصف أخلاق الرؤساء بالرياح وأخلاق المرؤوسين كالعشب وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب فهو يقول: «إن أخلاق الرؤساء كالريح، وأخلاق المرؤوسين كالعشب، وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب». وكان الحكام والولاة والموظفون يجتازون امتحانًا معينًا على أساس ما ورد في الكتب الكونفوشيوسية، فإذا اجتازوا ذلك الامتحان بنجاح أسندت إليهم الوظائف والقابها.. ويؤكد ذلك في قوله: «إن الرجل العاقل لا يحكم على الناس بأقوالهم بل بأفعالهم، ففى العالم المتحضر نجد المجتمع زاخرًا بالأعمال السامية وفي العالم المتخلف نجد المجتمع زاخرًا بالخطب الرنانة».. ويقول في ذاته: «إني أكره جعجعة الخطب» .. ويقول: «قلما يكون الشخص ذو الخطب المؤثرة في المظهر رجلاً فاضلاً».

المعتقدات الدينية:

كان يؤمن كونفوشيوس بأنه ليس في الوجود سوى إله واحد قوى الإرادة هو السماء، وكان أول من صرح بوجود العناية الوحدانية بالصين عندما كانت الصين غارقة في ظلمات الوثنية والوحشية. ولم يكن هو نفسه موضع عبادة أو تأليه، ولم

يرض بذلك، لأنه كان يعتبر الآلهة رموزًا لقوى الطبيعة وأرواح السلف ليس أكثر، وقد قام هذا المصلح دون مبالاة بالأخطار والأسفار من أجل الفضيلة والتعليم لا يثنيه شىء عن نشر مبادئه مع ما فيها من تناقض لعبادة ذلك الزمان وتعاليمه، فكان يكره رجاء الإله أن يشفيه أو أن ينعم عليه أو أن يغفر له، لأن الصلاة باعتقاده لا غاية لها، إلا تنظيم سلوك الأفراد والتأليف بينهم وهو يقول: «إن الفرد الذى يرتكب خطأ ضد السماء لن يجد من يغفر زلته». فالصلاة عنده لا تمحو ذنبًا وكان يفرض على أتباعه الاستحمام قبل أداء الصلاة وكان يقوم بتأدية الصلاة وهو صامت على غير عادة الناس فى عصره. وهكذا نجده موحدًا يؤمن بإله واحد. ولم يؤمن كونفوشيوس باليوم الآخر، وقد سئل عن الأرواح بعد الممات فقال: «نحن لم نقدر على خدمة الأحياء، فكيف نقدر على خدمة الأموات؟ ولم نعلم الحياة فكيف نعلم الممات؟».. لم يتميز كونفوشيوس فى عبادته عن غيره من أتباعه. فكان يقوم بواجب العبادة التى يقوم بها كل صينى.. وكان يقدم القرابين للآلهة كغيره بل يحكى عنه أنه كان ساذجًا فى الناحية الدينية. فكان يتشاءم من صوت الرعد ويرتجف منه ويخشاه، ويقرأ التعاويذ لطرد الأرواح الشريرة من بيته والأوهام والخرافات من عقله، وفيه موضع لأساطير الأولين التى كتبها وحفظها.. ولكن عبقرية كونفوشيوس وقوة إرادته وعظمته كانت تتجلى واضحة فى آرائه فى السلوك الإنسانى والخلق القويم ورياضة النفس حتى أن الصينيين اتخذوه قدوة له واعتبروه من « الذين وهبوا تفويض السماء أو الله» لهداية الناس وإرشادهم. واعتبروه نبيًا مرسلاً واعتقدوا بكتابه «المحاورات الفلسفية» بأنه كتاب مقدس ومع ذلك فقد كان يقابل بفتور فى أماكن كثيرة باعتبار أفكاره خيالية لا يمكن تطبيقها ووضعها موضع التنفيذ، حتى أنه فى أواخر أيامه شعر بخيبة الأمل لإخفاقه فى حث الناس على تحسين مستوى حياتهم وهو محطم القلب. فقد حاول الامبراطور «شىء هوانج تى» الذى حكم من «٢٢١ - ٢١١ ق.م» أن يبدأ التاريخ به، وحاول إلغاء تأثير آراء كونفوشيوس وتعاليمه، فأمر بحرق كتبه. ولكن كثيرًا من العلماء فى الصين كانوا يحفظون تعاليم كونفوشيوس عن ظهر قلب. وعاد الأباطرة الذين

جاؤوا بعده فأحيوا ذكراه وبنوا له المعابد والهياكل فى أماكن كثيرة وقد تعاظم إجلال الناس له حتى أصبح فى المكانة الثانية بعد السماء، وأخذت تشاد له الهياكل وتقدم له القرابين ويحرق البخور.

وقد أقيم له فى بكين العاصمة هيكل هو أجمل الهياكل الصينية فى القرن ١٣م.

من آرائه التربوية:

اهتم كونفوشيوس بالتعليم فكان له العديد من التلاميذ والأتباع فقد كان يقرأ ونشد مثله العليا فى حكمة الصين القديمة وتعليم فلاسفتها وحكمائها السابقين ويلقنها لتلاميذه. وكان يرى أن تعاليمه لا تعطى ثمارها إلا إذا استندت إلى حكمة القدماء. وقد وضع كونفوشيوس مجموعة القوانين الاجتماعية القديمة التى تقوم على الاقتداء والتقليد. فالإمبراطور فى رأيه هو النموذج الأعلى الذى تحتذى فضائله. وتتبع مزاياه وشمائله. وقد بذل جهدًا طويلاً فى تثقيف نفسه واطلاعه على علوم الأقدمين فهو يقول عن ذاته: «علقت المعرفة فى الخامسة عشرة من عمرى وهام قلبى بها فى الثلاثين وانكشف لى سرها فى الأربعين وتعلمت الشريعة فى الخمسين ولما صرت فى الستين صرت أفقه ما أسمع وفى السبعين تسلطت على عواطفى وأخضعت لسلطان العدل..»

ومن أقواله فى مواضيع التربية والتعليم: «حين أعرض للطالب زاوية واحدة من الموضوع ولا يستطيع الطالب أن يتعرف على الزوايا الثلاث الباقية، فأنا غير مستعد أن أعيد درسى».

ويقول أيضًا: «التعليم الذى لا يكمله التفكير جهد ضائع والتفكير الذى لا يكمله التعليم خسارة كبرى». ويقول كذلك: «من تعرف على الحقيقة فى الصباح يمكنه أن يموت فى المساء دون أن يشعر بأسى». ويقول أيضًا: «ليكن الشعر البداية، ولتكن الأخلاق الحميدة الوسط، ولتكن الموسيقى النهاية».

كتب الكونفوشيوسية:

إن المعرفة عند كونفوشيوس أصل من الأصول فى الحكمة والإدارة. أما

الكتب التى تعطى الحكمة وتمكن الإنسان من المعرفة وتجعله قادرًا على تولية شئون الناس فى الصين فهى نوعان:

«أ»: الأصول الخمسة القديمة.

«ب»: الكتب الأربعة الملحقة.

«أ»: إن كتب الأصول الخمسة التى اعتمد عليها كونفوشيوس هى كتب قديمة أعاد النظر فيها وأصلح ما فيها ووضعها بصيغتها النهاية وأضاف إليها كتاباً من مؤلفاته فأصبح عددها خمسة هى:

١- كتاب الوثائق التاريخية ويحتوى على خطب وأعمال رسمية لقدماء أباطرة الصين.

٢- كتاب القصائد والشعر ويحتوى على «٣٠٥» أغانى قديمة رسمية دينية.

٣- كتاب التبدلات وهو كتاب صوفى يبحث فى التنجيم ويحوى معلومات هامة عن الفلك وأسرارة وأسرار الكون وطرق الكشف عن المستقبل.

٤-.كتاب القداس والحفلات: ينظم الحفلات الرسمية وأصولها..

٥- حولية الخريف والربيع: وهو من مؤلفات كونفوشيوس يبحث فى أوضاع وأخبار مقاطعة «لو» «Lo» بين سنة «٧٢٢ - ٤٧٩ ق.م» .

«ب»: الكتب الملحقة الأربعة: وفيها آراء كونفوشيوس وحياته وآراء تلاميذه وأتباعهم وأفكارهم وهى:

١- مختارات كونفوشيوس من قول وفعل التى جمعت فى كتاب «العلم الكبير».

٢- المعرفة الكبرى وهو كتاب ينسب إلى أحد تلاميذ كونفوشيوس وهو «تسين تسان».

٣- الاعتدال أو مذهب الوسط وفيه بيان للنظام الذى يجب أن يسير فيه

أتباع كونفوشيوس.

٤- آثار «منسيوس» «٣٧٢ - ٢٨٩ ق.م» وهو مصلح من كبار مصلحي الصين.

أكمل مذهب كونفوشيوس بعده بـ «١٥٠» عامًا.

وتعتبر هذه الكتب التراث الفكرى الحقيقى للصين فى الفلسفة والتاريخ والأدب والأخلاق..

■ ■ ■

كونفوشيوس « ٥٥١ - ٤٧٩ ق.م »
Confucius « المعلم الحكيم والملك غير المتوج »

نشأته وحياته:

ولد عام « ٥٥١ ق.م » فى مدينة «تشوفو» التابعة لإمارة «لو Lo» المسماة اليوم بمقاطعة «شانتونج» من أسرة عريقة وكانوا يسمونه «كونغ - فو - تسو» ثم حرف إلى كونفوشيوس وتوفى فى «لو» فى «٤ آذار ٤٧٩ ق.م» ويوجد قبره فى معبد «الكمال العظيم» فى بكين وقد نسجت حوله القصص والأساطير الكثيرة.. كان أبوه «تشوليانج هيه» من أسرة كونغ ضابطًا حربيًا ثم أصبح حاكمًا لإحدى المدن ثم مديرًا لإحدى المقاطعات فى ولاية «لو» التى كانت حينذاك أرقى ولايات الصين حضارة وأكثرها تطورا. وكانت الوظائف الحكومية فيها وراثية، توفى عندما كان ابنه فى الثالثة من عمره، وكان قد جاوز السبعين من عمره حين ولد ابنه، عاشب مع والدته «تشنج تساى» يرافقهما الفقر، اشتغل برعى الأغنام عند أحد الأمراء، وكان أمينًا فقد تربى على الآداب السامية والتهذيب، فهو لا يعتبر الغنى سببًا للسعادة ولا الفقر سببًا للتعاسة، يقول كونفوشيوس «الفقر لايستلزم التعاسة والغنى بلا فضيلة ظل زائل». تزوج وهو فى التاسعة عشر من عمره، ولما شب شغل وظيفة حكومية متواضعة وهى الإشراف على بعض الأراضى العامة، ثم عمل بالتدريس؟ لرفع مستوى دخله القليل، ثم استقال منه بعد زمن، وبدأ ينشر تعاليمه عندما بلغ الثانية والعشرين من عمره حيث أنشأ مدرسة ليتلقى فيها الشباب أصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية، وقد كان شابًا جادًا، واسع المعرفة والاطلاع، عميق التفكير، بعيد النصر، سامى الأخلاق، لا يهتم بالاحتفالات التى تقام فى بلده، ولا يتبع المواكب والمهرجانات. درس الآداب الصينية وارتشف فى حكم وتقاليد أسلافه الشىء الكثير .. كان يحب الرياضة

والموسيقى والعزف على القيثارة. وكان أديبًا يحب الشعر أيضًا..

فقد قال عنه تلاميذه: «كان المعلم مبرأ من عيوب أربعة: إنه لم يكن عنيداً، ولم يكن أنانيًا. وكان لا يجادل وفى عقله رأى سابق ولا يفرض على الناس عقائد». وقد عرف باستقامة أخلاقه ورجاحة عقله ورباطة جأشه وكان رجلاً عالماً فاضلاً. ولكنه لم يدع قط أنه كان نبيًا أو صاحب رسالة دينية أو أنه موحى إليه من السماء. وقد عاش طوال حياته دارسًا منقبًا مهتمًا بشؤون مواطنيه وقد وضع الكتب والمؤلفات العديدة التى تضمنت مبادئ خلقية لإرشاد الناس وتهذيبهم.

وكان عميق التدين. ويعنى بالشعائر الدينية الوثنية ويلحقها بالتقاليد التى كان يلزم تلامذته باحترامها. إلا أنه كان فيلسوفًا وحكيمًا أكثر منه رجل دين أو صاحب رسالة. ومع ذلك فقد آمن بإله واحد هو السماء.. وفى سنة «٤٩٦ ق.م» كوفئ بتعيينه رئيسًا للوزارة فى ولاية «لو» لأنه أثبت كفاءته عندما كان يشغل منصب وزير الأشغال العامة ثم وزير العدل. حيث نظم الأمور تنظيمًا رائعًا. وساد العدل فى زمانه وقوى سلطان الحكومة واختفى الأشرار فهو يقول: «وانتشرت الأمانة حتى لم يعد يفكر أحد أن يلتقط شيئًا لا يخصه من الأرض مهما كان ثميناً وأصبح الرجال يمشون على جانب الطريق والنساء على الجانب الآخر وقد استطاع أن يؤثر تأثيرًا كبيرًا إلى حد يقال معه إن كونفوشيوس هو الصين وأعدم المشاغبين من الوزراء ورجال السياسة، وأدب اللصوص وقطاع الطرق ومنع الغش والاحتكار، كل هذا جعل أعداءه فى البلاط يتآمرون عليه. مما سبب طرده من الوظيفة ونفيه من تلك الدولة ثم عاد إلى ولايته. وهو يشعر بالأسى والاشمئزاز إزاء الفساد وسوء الحكم الذى يمارسه أفراد من الطبقة الحاكمة الذين لم يهتموا بالتفكير فى مصالح رعاياهم بل انصرفوا إلى تأمين مصالحهم الخاصة على حساب الآخرين. ثم عاد واستأنف التدريس لاعتقاده أن التعليم خير وسيلة لنشر الأفكار والآراء والتعاليم فقد كان عالماً جليل الشأن ومدرسًا موهوبًا حتى أطلق عليه معاصروه «معلم الجنس البشرى» حيث نادى بالتمسك بحكمة القدماء. ونقل التراث القديم إلى أبناء عصره ودعا إلى إحياء

هذا التراث والسير على قواعده ومبادئه فتملك نفسية الجماهير.

وقد انحدرت قيمة كونفوشيوس فى الوقت الحاضر بسبب مهاجمة الجمهورية الحديثة فى الصين له ولتعاليمه وأبطلت عبادته، ومع ذلك فقد اعتبرت ذكرى ميلاده عيداً عامًا ولكن الصين الشيوعية ألغت من المدارس الأولية كتب الدين الكونفوشيوسية، بما فيها الأصول الخمسة والكتب الملحقة الأربعة.. وكانت عبادته خلال ما يقرب من خمسة عشر قرنًا تقام فى الصين مرتين كل عام فى موقع الاعتدالين الخريفى والربيعى. وكانت تقدم له القرابين فى الهياكل التى بنيت من أجله، حتى أن أباطرة الصين أنعموا عليه ألقابًا مختلفة فسمى أميرًا وسمى أستاذًا وأعطى رتبة الكمال وأعظم الحكماء وقد قرروا فى عام «٥٥٥م» تأسيس هيكل فى كل مدينة صينية وقرروا أن تقدم له القرابين وأن يعبد فيها، وفى عام «٤٧٩ ق.م» استقبل كونفوشيوس أجله باسمًا. ولم يظهر عليه خوف ولا وجل. ولم يتل صلاة ما أو تعويذاً، وأصبح مكان دفنه مزارًا ومحجًا لأهل الصين. فهل كان نبيًا؟ الله أعلم. فكم أنت عظيم يا كونفوشيوس..

ومن أقواله المأثورة: «اثنان لا يغيران رأيهما: أعقل الناس، وأسخف الناس. أعقل الناس لثقته بعقله، وأسخف الناس لضعف عقله».

■ ■ ■

آلهة الصينيين
«شانج تى»

آمن أهل الصين القدماء بوجود حاكم أعلى واحد فوق كل الأرواح وفوق كل الناس، اسمه «شانج تى»، هو القوة العليا المسيطرة على العالم. وقالوا: إنه عادل لدرجة أنه مهما صلى له الأشقياء فلن يقبل العفو عنهم أبدًا.

تيان

ولكن شانج تى - مع كل ذلك - لم يكن الإله الأعلى والأعظم فى اعتقاد الصينيين: فالإله الأعلى، سيد كل الآلهة، إله اسمه «تيان»، هو: السماء.

وكانت الطريقة التى عرف بها الصينيون «تيان»، إله الآلهة غاية فى البساطة. والتسلسل المنطقى، فالمطر الدى تشتد حاجتهم إليه لرى حقول الأرز، ينزل من السماء، والسحب التى تحمل المطر الذى تشتد حاجتهم إليه. تأتى هى الأخرى من السماء، والريح التى تدفع السحب التى تحمل المطر الذى تشتد حاجتهم إليه، تهب أيضًا من السماء، والرعد والبرق اللذان يفتحان السحب التى تدفعها الريح ليتساقط المطر، موجودان فى السماء، وحتى قوس قزح الذى يظهر بعد سقوط المطر والذى يستطيع الجميع أن يروه دون أن يلمسوه، يبدو هو الآخر فى السماء: إذا فمن المؤكد أن «تيان» رب الأرباب موجود هو الآخر فى السماء، وما دام الأمر واضحًا فى السماء وهو غاية العدل. إلى جانب عبادتهم لأرواح الشمس والقمر والمطر والنار والرعد والجبال والأنهار؟ ولكن هل اكتفى الصينيون القدماء بكل هذا العبادات؟ لا، لقد عبدوا أرواح أسلافهم - أيضًا - فإذا مات رجل عبد أبناؤه روحه كما عبده أحفاده وحتى أبناء أحفاده وأحفاد أحفاده عليهم أن يعبدوا ذكراه.

ولم يكتف الناس بعبادة أرواح آبائهم وأرواح أجدادهم وأرواح آباء أجدادهم وأرواح أجداد أجدادهم فحسب، بل عبدوا كذلك أرواح كبار الحكماء والأبطال الوطنيين، وعبدوا بصفة خاصة أباطرتهم الذين كانوا يعتبرون - دائمًا - مقدسين.

■ ■ ■

أسطورة الخلق الصينية
بان - كو: آدم الأسطورة الصينية

وقد ولد من بيضة كونية على حافة العالم، وقد فقست البيضة وأصبح منها السماء والنصف الآخر الأرض ونما بانكو الذى خرج من البيضة وبدأ ينمو عشرة أقدام كل يوم وتوفى بعد «١٨٠٠٠٠» عام، وبعد وفاته تمزق إلى أجزاء كل جزء مثل البيضة التى خرج منها إذ صار رأسه: الشمس والقمر، ودمه: الأنهار والبحار. وشعره: الغابات. وعرقه: المطر، ونفسه: الريح، وصوته: الرعد، وقمله: أصبح بشرًا.

وقد أضيفت هذه الأسطورة إلى الأسطورة التاوية فى القرن الرابع قبل الميلاد.

والقصة ليست قصة الخليقة بقدر ما تعنى إعطاء تفسير لنظرية «ين. يانغ». فالإنسان أعطى موقعًا ضئيلاً فى الكون، ويظهر ذلك فى رسوم الطبيعة الصينية، حيث يظهر إنسان ضئيل وسط الطبيعة المذهلة.

■ ■ ■

بانكو يخلق العالم

وتبدأ القصة عندما كان العالم كتلة دائمة من الظلام. حيث ما كان هناك سماء ولا أرض. وكل قوات الكون قد حصرت داخل بيض صغير، وكان يوجد داخل البيضة مخلوق صغير جداً سمى «بانكو» والذى قد نائم ونام بعمق، غير مهتم بالفوضى التى توجد حوله داخل البيض. نما، «بانكو» وهو نما البيض أيضاً من حوله. وقد نام «بانكو» لألف وثمانى عشرة سنة بسلام. حتى تحول إلى عملاق عضلى مشكل بشكل جيد، حيث امتد جسمه «لحوالى ثلاثين ألف ميل». فى انسجام مثالى، وقشر البيض أيضا كان قد تمدد، وهو يجاهد لحمل كل غازات وعواصف العالم داخل حدوده.

وفى أحد الأيام عندما كان الكون غير مستقر استيقظ «بانكو» من نومه العميق، ولم ير شيئا سوى الظلام. وفى البداية قد تشوش الأمر لديه. فقد فُتن بإيقاعات العالم. وراقب وهو مسحور، جزيئات الغازات التى التفت حوله وانفجرت بسرعة وتبعثرت حوله فى كل الاتجاهات، وقد تعلم مراوغة الغازات المنفجرة بالقفز من مكان لمكان. وبعد فترة قصيرة، أصبح «بانكو» متعبا من كل الضوضاء التى كانت حوله واضطربت الأعصاب من الضجيج الذى دق فى آذانه والذى جعله عصبيًا جداً. وقد اشتاق كثيرا إلى الهدوء حتى يجعله ينام النوم العميق. ولكن الفوضى ضايقته.

وقد أدرك «بانكو» بأن القشرة الهشة للكون قد تنفجر فى أية لحظة. لذا فقد انتظر حتى كان العالم كله فى حالة من الهدوء المضطرب، ثم أمسك بعد مدة طويلة نيزكا، والتقطه مثل فأس وشده وأسقطه بكل قوته على المركز المضبوط للبيض وحطمه تماما ودوى انفجار ضخم. كان له صوت عال اهتزت له جميع أنحاء العالم وانشقت من هذا الانفجار كل الجزيئات والغازات الموجودة فى

الكون إلى اثنين من القوى.

الضوء وهو القوى الصافية للعالم وقد انجرف لأعلى وشكل اللون الأزرق للسماوات الثقيلات، وقوى سوداء من الكون غرقت لأسفل وشكلت الأرض الخصبة.

وقد أبهج «بانكو» بعالمه الجديد. الذى كان يوجد فيه الجمال. والسلام.

وكان يجب على «بانكو» لإبقاء هذه الميزات فى عالمه الجديد، أن يسند السماء بأسلحته القوية، حيث قام بتوتيد جسمه بين السماء والأرض. وكان كل يوم. يرفع السماء لأعلى للحقب عشرات الكيلوات بدون أى شكوى. حتى يصل إلى المكان المحدد الذى يجعل العالم يذوب ولا يعود إلى الفوضى.

وعلى أية حال بمرور الوقت، أصبح «بانكو» مرهقًا كليا. وتشنجت وشدت كل العضلات التى توجد فى جسمه من وزن العالم الذى يحمله على قرونه. وغرق «بانكو» فى المعاناة وقد اشتكى كل وتر، وكل عضلة فى جسمه، حتى أن عظم جسمه. طلب المساعدة، ولكنه لم يسمع سوى صوت ندائه الذى ردد فقط فى الفراغ. حيث لا تعيش أى مخلوقات أخرى حوله لسماعه. وكان كل يوم يشتاق إلى الإغاثة؛ ولكنه كان لا يوجد أى أحد يجيب إغاثته. ولقد كافح «بانكو» لعشرات آلاف السنوات من أجل خلق السماء والأرض التى كانت مفقودة تماما والذين قد فصلوا إلى الأبد إلى قوات «ين» التى تمثل الظلام، وقوات «ينج» التى تمثل الضوء.

وعندما ربطت المساء بالسماوات الأخرى بحزم والأرض رسيت بعمق لأسفل، فقد «بانكو» أخيرًا عزيمته وضعف وكبر سنه وانكمش جسمه بشكل تدريجى وتجعد. وعضلاته حلت، ونفسه أصبح ضعيفًا. وبعد قرون من الكفاح والاجتهاد، سقط العملاق الموثوق على الأرض، بعد إن كان قد استنزفت كل قواه وغطى جسمه الذابل الهائل الأرض بلطف مثل سجادة. ولحمه انهار ونشر الكثير من المواد المغذية التى توجد فى التربة على الأرض القاحلة.

وتحولت خزرات عرقه إلى قطرات المطر والندى، والشعر المتشابك على

راسه أصبح الأرض الخصبة الناعمة. وأصبحت لحيته الفروع المتصلبة للأشجار.

والشعر الذى كان على ذراعيه تحول إلى الأوراق الصغيرة جداً والزهور الحساسة. وتحولت أسنانه وعظامه إلى قطع المعادن اللماعة من ذهب، وفضة. ونحاس والتى دفنت فى عمق الأرض. ونخاع عظمه الصلب، تكونت منه ألوان اللافندر، والأخضر، والأبيض، ودمه تقطر على الأرض لخلق البركات والأنهار الكبيرة السريعة، وصوته، حتى فى ضعفه، أنتج عنه رعداً وبرقاً، ونفسه الضعيفة خلقت رياحًا وغيومًا منتفخة.

وأخيرًا، أصدر «بانكو» من معاناته، دموع الامتنان التى سقطت وخلقت الماء الذى أصبح المحيطات الواسعة المتألقة.

وأخيرًا قد انتهى عمل «بانكو» الخالق، والذى مات فى مكانه، وترك العالم الذى تألق من بعده.

■ ■ ■

«نواه» تخلق الناس

كان «بانكو». خالق الكون ذكرا، ولكن «نواه» خالقة الناس كان إلهة أنثى. وقد ذكرت «نواه» كثيرا فى عدة نصوص صينية قديمة. كما فى كلاسيكيات التأريخ.

ومثل العديد من الآلهة الصينية التى وجدت قديما، كانت «نواه» نصفها حيوان. ونصفها قس. وفى أغلب الأحيان، كان لديها وجه وذراعا إنسان لكن جسمها أفعى أو تنين. كما كان يمكنها أن تغير شكلها عند رغبتها فى ذلك. وقد صورتها الكتب الصينية الحديثة كامرأة جميلة.

وقد ظهر بأن النساء فى الصين قديما ما كان لهن مكانة اجتماعية فى أدوارهن كأمهات وزوجات، ولكن على أية حال، فهم كانوا أقوياء جداً. كما عاش النساء مدة أطول من أزواجهن عمومًا، وفى أغلب الأحيان كن يدرن العائلة بعد موت أزواجهن. حتى فى السياسة. فقد كان يوجد عدة نساء «إمبراطورات» أصبحن قويات جدًا بعد موت الأزواج الأباطرة. وبالرغم من أن أكثر الآلهة كانت ذكوراً، إلا أن «نواه» كانت الإلهة النسائية القوية فى علم الأساطير القديم.

حيث كانت تخلق البشرية. كما كانت تحبهم كثيرًا، وحيث إن العالم قبل هذا الوقت «وقت خلق البشر». كان مملوءا بالجواهر المتلألئة. وهذه الجواهركانت أشجار الصنوبر القوية. وقد نظمت الجبال، وخططت الجداول فى صفوف، كما وجد أيضا فى هذا العالم التفاح، والبرقوق، والكثير من الزهور التى كانت تتفتح وتنضج والتى نتج منها الفاكهة الثقيلة الناضجة لاحقًا. كما رفرفت الطيور فى السماء اللازوردية. ذات الألوان القرمزية، والريش الأخضر القزحى الألوان الذى كان يجرف فى الريح. وريش الشبوط الذى كان يعوم ببهجة فى الممرات المائية. كما كانت الوحوش العنيفة تحب النمور والمخلوقات اللطيفة مثل الأيل التى تتجول بحيوية عبر التلال الصخرية..

الإلهــة «نواه»: هى خــالقــة الناس فى الأسـطورة، ومــثل العــديد من الآلهــة الصينيـة كانت «نواه» نصفها حيوان والنصف الآخر إنسان، وفى أغلب الأحيان كان لهـا وجه وذراعـا إنسـان، ولكن جسـمهـا كان جسم أفعى أو تنين، كمـا كان يمكنها أن تغير شكلها إذا رغبت فى ذلك.

نص الأسطورة:

كانت الإلهة «نواه»، كلما تنظر لصورة هذا العالم الحيوى أثناء سفرها، حيث كانت الأرض تهمهم وتعج بالحياة، تعجبت ودهشت للعديد من المخلوقات. وكلما انطلقت من مكان لآخر ونظرت إليه، وجدت مخلوقات أكثر روعة من سابقتها. كـمـا رأتهـا من كل نـوع، فـمنهـا ذو الفـراء أو الزعنفـة أو الريشـة أو القـرن، أو الحافر. وقد تثاقلت المخلوقات الزاحفة، وانزلقت على الأرض. وقفزت، مندفعة إلى البحر، وقد عكرته. وشمت «نواه» رائحة جميلة من الأزهار مثل الياسمين، والسنبل، والنرجس، والتى قد لفت رائحتها الذكية العالم بعطرها الدافئ القوى ولكن بينما استكشفت «نواه» العالم، بدأ يدخل إليها شعور بالغربة حيث كانت مستاءة من العالم الواعد، وعلى الرغم من أنها قد سحرت بهذا العالم الجميل من حولها. إلا أنها شعرت بأنها وحيدة فى هذا الكون.

وذات يوم عندمـا كـانت تجلس الإلهـة «نواه» بالقـرب من النهـر تتـأمل مشاعرها، وتحدق فى انعكاس صورتها فى الماء، فجأة عرفت أن هذا العالم به شىء مفقود: فهى قد أرادت العالم أن يملأ بالتفكير، وأن تحب المخلوقات بعضها البعض مثلما تحبها هى. وقد امتد النهر أمامها، وصفعت موجاته فى الشاطئ، والمياه الخضراء الغائمة تركت حافة سميكة من الأرض الصفراء على طول شواطئها. وبينما هى جالسة إذ بها أحست أن قوامها قد انزلق إلى أسفل حتى مست الطين، وبأطراف أصابعها أخرجت كرة من الطين وطويت الطين الرطب إلى دمية، وجعلت له رأسا، وأكتافا، وصدرا، وذراعين مثل ما تملك، وترددت «نواه» هل تعطيه عمودا فقريا ومخالب مثل السحلية، أو تعطيها

الزعانف والذيول مثل السمكة. وتلك الأشكال كانت مفيدة جداً. وذلك حيث إنها وهى الإلهة فقد غيرت فى شكل جسمها الخاص كثيرًا. قادرا على انتقدم عبر المحيطات والسماوات بسرعة.

وأخيرًا، قررت ربط سيقان هذا المخلوق الجديد. حتى يمكنه أن يمشى على الأرض ويعوم أيضا فى البحر. وقد ساعدها على كل ذلك الهدوء الذى سيطر على الأرض، والذى جعل النهر مثاليا لإنجاز مهمتها. وشكلت «نواه» العديد من الدمى من طينيات الأرض الصفراء، وجعلت منها الدمى الطويلة والدمى القصيرة. كما جعلت دمى رفيعة ودمى سمينة. وجعلت دمى مجعدة الشعر ودمى ناعمة الشعر. كما جعلت منها دمى ذات عيون مستديرة ودمى ذات عيون كبيرة، وجعلت منها أيضا دمى ذات عيون واسعة وأخرى ذات عيون ضيقة. كما جعلت البعض منهم بالعيون السوداء التى تبدو مثل ظلام السماء فى منتصف الليل، والآخرون يضيئون حتى تبدو عيونهم مثل العسل السائل.

وقد تعمدت أن يكون كل مخلوق مختلفًا عن غيره من المخلوقات، حتى يمكن للإلهة أن تعرف مخلوقاتها وتميزهم عن بعضهم البعض. ثم بعد ذلك، كلما تنفست على كل دمية، قفزت الدمية إلى الحياة وضحكت، وقفزت حول «نواه» وقد كانت «نواه» مسرورة جداً من عملها اليدوى ولكنها كان مطلوب منها أن تخلق الكثير. ولكنها احتاجت إلى طريقة أسرع. ولذلك ذهبت على طول ضفاف الأنهار، وقوست قصبات محدودة الجذوع على الماء. وقطعت «نواه» أكمامها، ولفت بها القصبة، وملأتها بالطين النهرى مثل الملعقة. وبشكل محترف، حملت رسغها وأسقطت منه قطرات الطين على الأرض. وعندما جفت قطرات الطين، تنفست «نواه» نفسا ضخما من الهواء - فى كل قطرة. وعلى الفور أصبحت المخلوقات المبتسمة.

وهذا الضحك والبهجة من مخلوقات «نواه» ملأ الإلهة بالسعادة والفخر.

ولكن فجأة راود ذهن الإلهة «نواه» سؤال مهم جدا وهو «ماذا ستفعل عندما

تكبر هذه المخلوقات فى السن ويموتون؟» ولم تعلم «نواه» هل هى فى هذا الوقت ستكون جاهزة وعلى استعداد لمزيد من التصليحات، كما أنها لم يكن عندها أى رغبة لتكرار هذا التعب فى مهمة خلق ناس جدد. وأخذت تفكر وتفكر.

وعلى أية حال، فقد تعبت «نواه» من كثرة التفكير، وبقدر ما أحبت هذه المخلوقات الجديدة، فقد عرفت بأنها لا تستطيع أن تحرس هذه البشرية كل ثانية. ولذلك فقد سألت الإلهة «نواه» نفسها هل يمكن أن يعاد إنتاج وخلق المزيد منها بدونها؟

وفى لمح البصر. خلقت «نواه» بعض المخلوقات الذكور من الطين والبعض منها إناث. ثم جمعت كل المخلوقات الصاخبة.. التى كانت تنزلق، وتسقط فى الطين ودعتهم للتزاوج فيما بينهم حتى ينجبوا العديد من الأطفال حتى يكثر خلق البشر على الأرض.

وتحدث الإله «نواه» فى هذا الجمع أيضا عما يخص البشر. ولقد استمعت مخلوقاتها بجدية إلى كلماتها. وقد تكلمت عن أهمية الزواج والتزامات الأزواج نحو بعضهم البعض. كما أخبرتهم كيف يتم خلق الأطفال وكيف يربونهم. كما تمنت لهم العمر الطويل والبهيج على أرضهم. ثم غادرت الإلهة، بعد أن أبدت أملها الحار بأن يخلقوا المزيد من الناس الجدد والأحياء بسعادة بدونها. وهذا ما يحدث إلى يومنا هذا، حيث ما زال الناس يواصلون الزواج وأصبح عندهم الأطفال الذين يبهجون العالم بضحكهم السعيد، ثم جلست الإلهة «نواه» فى عربتها التى سحبت بستة تنينات مجنحة، وصعدت إلى السماء.

■ ■ ■

«يو» يعيد بناء الأرض

بنيت قصة «يو» العظيم على نفس اسم الملك الذى حكم فى الأسطورة الصينية من «٢٢٠٥-٢١٩٧ ق.م».

وككل الآلهة فى العصور القديمة. فإن «يو» كان يلجأ فى أغلب الأحيان إلى التغييرات للأشكال المختلفة حينما يكون ذلك ضروريا، ومن ذلك الكثير منها:

أشكال الدببة، والبشر، والتنينات. وعلى خلاف الآلهة فى العصور القديمة.

كان لـ «يو» الأول منزلة كحاكم لأحفاده، وهكذا تقوم السلالة. أو العائلة الحاكمة. وقد سمى سلالته «شى أه». وما زالت تبقى سلالة أسطورية.

أما السلالة التى تلتها كانت، «شانج» «١٠٢٧-١٥٢٣ ق.م» ، وكان لها تراث غنى من الفخاريات، والبرنز، والمصنوعات اليدوية. التى تضعها كالسلالة التأريخية الأولى للصين. أما عن التنين الصينى فإنه ليس مخلوقًا شريرًا . على العكس. فهو يجلب مطرًا ويحرس البحيرات والممرات المائية. وهو مخلوق مركب من قرون الأيل، وله آذان البقر. وعيون سرطان البحر، ورأس الحمل، وشعر القطة. وجسم الأفعى، وبطن الضفدع، ومخالب النسر، وكفوف النمر.

وكانت التنينات تحب صنع الاهتزازات فى السماء بطوى اللآلئ الضخمة. وكانت تخلق رعدًا . وأقل التنينات جسما كانت تستعمل كجياد الأرض تركبها آلهة السماء.

- نص الأسطورة:

الملك الحاكم فى هذه القصة هو الإمبراطور الأصفر، وهو الزعيم الجيد الذى كافح الأنهار الهائلة تلك التى أغرقت البلاد كل سنة.

وطبقًا للأساطير القديمة، كان عند الإمبراطور الأصفر كومة من الأرض السحرية التى يمكن أن تمتص الماء. وقد سرق حفيده «كون» الأرض السحرية

وقد أسقطت هذه الأرض السحرية كرات صغيرة من الوسخ حيثما ذهب. وكلما امتصت تلك الكرات الماء انتفخت وتحولت إلى التلال الخصبة والضخمة من التربة، ثم جمع الفلاحون التربة الخصبة ونشروها على حقولهم المنقعة. وقد بنى «كون» السدود أيضًا حتى يسيطر على الفيضان وغلى أنهار البلاد المتقلبة.

ولسوء الحظ، انفجرت السدود فى أغلب الأحيان وأصيبت الأرض بالفيضان ثانية.

وعندما اكتشف الإمبراطور «يو» تلك السرقة، كان عنيفا وغاضبًا جدًا وأرسل «زرونج» إله النار، والذى كان الرئيس المنفذ، لعقاب وقتل حفيده «كون» وقد طارد «زرونج» «كون» إلى القطب الشمالى ذى الجليد والثلج، وبحث عنه فى كل مكان فيه وعندما وجده ضربه بسيف ملتهب على جسمه حتى قتله. ثم وضع جسده المجمد فى الثلج.

وبعد ثلاث سنوات، أرسل الإمبراطور الأصفر «زرونج» إله النار ليدقق النظر فى جسم حفيده «كون». وعندما وصل إلى البقعة حيث دفن «كون» فى الثلج، أدهش إله النار لوجود جسم «كون» محفوظا بشكل مثالى فى الثلج. وبدأ يقطع ويفتح الجليد بسيفه، ويفتح فتحا عرضيًا حتى يستطيع أن يصل إليه من خلالها وعندما وصل إلى جسم «كون» شقه. وفجأة فزع «زرونج» وذلك لأنه طار من الجثة التنين المظلم الضخم. هرب «زرونج»؛ لأن الإمبراطور الأصفر قد حذره من التنين الضخم قبل ذلك. وقد أصبح التنين الضخم «يو» العظيم، ابن «كون»، الذى كان قد ولد بكل ذكريات، ومعرفة أبيه، ومثل أبيه، فإن «يو» ملىء بالشفقة على المزارعين.

وعلى أية حال، فهو على عكس ما كان عليه أبوه، فهو لم يخش غضب الإمبراطور الأصفر. وفوراً، عجل الذهاب على محكمة الإمبراطور الأصفر. وانحنى أمام الحاكم، وتوسل من أجل حياة المزارعين.

وقال له: «فخامتك، أستجديك لإنقاذ الناس من معاناتهم. ورجاءً ساعدهم

حتى يعيدوا أرضهم.

«الإمبراطور الأصفر ما كان معجبًا بالتماس «يو».

رد عليه قائلا: إن أباك سرق أرضى السحرية وجرب إعادة الأرض بدون رخصتى! لا تنس.

وأجاب «يو» قائلا: أعطنى بعض الأرض السحرية والرخصة. واسمح لى بإكمال عمل أبى.

ورافق الإمبراطور الأصفر، وذلك لأن العالم سوف يعاد بناؤه وستنتهى الفوضى الموحلة الكبيرة الموجودة على الأرض. ولأنه لا يوجد أحد من آلهته عنده أى أفكار حول كيفية السيطرة على الأنهار الهائجة التى أغرقت البلاد. والتى حاول «كون» لمدة سنة كاملة السيطرة عليها. والحد منها بالسدود ولكنه فشل. وكانت كل ربيع، تستمر الأنهار فى تدمير ضفاف السدود،وإغراق الناس الأبرياء، وتحطيم كل شىء.. علاوة على ذلك، فقد سر الإمبراطور لأن «يو» سأل عن الأرض السحرية، بدلاً من محاولة سرقتها. وأخيرًا، قال الإمبراطور لـ «يو»: خذ كوم الأرض السحرية على ظهر هذه السلحفاة وستذهب السلحفاة صاعدة للسيطرة على مياه الفيضانات. وبمساعدة هذه السلحفاة للتنين المجنح. سيعاد بناء العالم كما تمنى أبوك.

«يو» كان متشوقًا لمعرفة حجم وشكل الأرض. لذا، وقبل الخروج وترك محكمة الإمبراطور، بعث أحد آلهة المحكمة الأقل لقياس شمال وجنوب البلاد، وإلها آخر لقياس شرق وغرب البلاد.

وبذلك، فقد درس كل الخطوات التى تمكنه من صنع خريطة للعالم. وقد كان الإله «يو» الإمبراطور أيضا مسرورا لهذه الخريطة وكذلك الآلهة الأخرى. وقد سرد الأوصاف التى جعلت الأرض تأخذ شكلا مربعًا. ثم قسم التنين الضخم «يو» البلاد إلى تسع مناطق، أو محافظات فقط ثم بدأ فى بنائها. وعلى خلاف أبيه، فإن «يو» ما كان راضيا على مجرد بناء السدود للسيطرة على

الأنهار. وبدلاً من ذلك، درس شكل الأرض فى كل منطقة. ولاحظ فصل الأنهار عن بعضها وخطط للأنهار أن تأخذ طريقها الطبيعى إلى البحر. ولتوجيه الأنهار، حفر «يو» القنوات، وقطع الأنفاق، وسوى قمم التلال، وتغلب على مشكلة البحيرات فى كل منطقة واستعمل ذيل التنين لحفر قنوات جديدة للأنهار.

وكلما تنقل فى كل أنحاء البلاد، وجد «يو» فتحات كبيرة فى الأرض. والتى كان يقف فيها الماء، ويغرق العالم. وقد سد هذه الفتحات المفتوحة بالوسخ والقصبات، وانخفض الماء فى كرات الأرض السحرية على ظهر السلحفاة وبذلك قد قضى على سبب الفيضانات.

وعندما عمل «يو» على إعادة بناء العالم، استعمل شكل الإنسان فى أغلب الأحيان ليتجنب تخويف المزارعين. وحتى فى شكله الإنسانى، جعل وجهه قبيحا مثل الحشرة، مع وجود فم مثل منقار الغراب، ورقبة طويلة مثل رقبة الأفعى، ولكن على أية حال، لم يهتم الزارعون بظهور التنين الضخم. وقد أحبوه لجهوده نيابة عنهم.

كما سافر «يو» عبر الصين، وقام بالعديد من المهام ومنها إنه سمى العشائريين والمجموعات وسجل عاداتهم وقسمهم إلى: أناس قناسو الجلد، والناس ذوو فراء العنزة، والناس اللؤلئيون، والناس الخضر الحريريون، والناس ذوو تنورة العشب، وناس الخيمة، وناس الجواهر، وشاريو الندى، وزارعو الحبوب الحمراء، وصناع الطلاء، والناس المجنحون، والناس القصار، والناس ذوو العيون العميقة. كما خطط أرضهم وجمع عينات من تربتهم ، وسافر عبر الأنهار الخمسين وجبال الصين.

وكان حيثما ذهب، وجد عوائل سعيدة. وكانت تلك السعادة فقط قد نبعت من وحدتهم واستقرارهم الخاص، وبالرغم من أنه تزوج سريعًا، إلا أن زوجته وابنه تركاه؛ لأنهما ما كان عندهما ولع للحفر والوسخ. وعندما كان لا يجد زوجته ولا ابنه بجانبه، كان يواصل التنين عمله لوحده، مع السلحفاة. حتى أن

أيديه غطيت بالقرح الجلدية.

وقد كان جلده أسود، وقد امتلأ بالبثور من الشمس. كما أن ساقه قد عرجت من قسوة التضاريس. وحيثما سافر، رحب المزارعون بـ «يو» العظيم.

وكانت مودتهم الواسعة الانتشار له. قد جعلت الإمبراطور الحاكم يختاره لأن يكون الإمبراطور القادم. وأصبح المؤسس والحاكم لسلالة «شى آه». وكانت هذه الأرض التى أنشأها «يو» تحصد حبوبا وفيرة حيث إنها كانت خصبة وموهوبة. والأنهار أصبحت تجرى بسلام إلى البحر ولم تطفح. وعاش الناس بسعادة فى قراهم وبارك اسم «يو» بهجتهم وقناعتهم.

■ ■ ■

إلهة القمر

بعدما أسقط النبال «واى» الشموس التسعة. إله الشمس «ديج – ون» أبعده وذلك لأنه لم يكن يتوقع من «واى» الالتزام بالأوامر التى أصدرها له والانضباط فى تنفيذها، وأن يقتل أبناءه. بالإضافة إلى ذلك فقد أبعد «ديجون» زوجة «واى» الإلهة «تشانج» أيضًا، إلى الأرض. وقد ناسب ذلك الإبعاد «واى» لأن الناس اعتبروه بطلا على الأرض، لكن زوجة «واى» كانت وحيدة لبعدها عن الآلهة أختها ولأنها تغيبت عنها رفاهيات السماء.

وكانت «تشانج» أيضًا غاضبة من زوجها لتعريضها للخطر، بالرغم من أن النبال والزوجة قد أحبا بعضها البعض بعمق، إلا أنهما فى أغلب الأحيان كانا يتشاجران. ولكى تبقى أجسامهم فى حالة جيدة جدًا، كل ثلاثة آلاف سنة، كان على الآلهة أن تأكل ثمرة خوخ ليطول بقاءهم، وحياتهم ثم يشربون إكسير الخلود من حديقة الجنة الغربية. هذه الحديقة التى تدار من قبل الملكة الأم «وانج»، وكانت امرأة عجوزا لها أنياب نمر وذيل نمر. وكانت تعيش لوحدها محمية بالطيور الجارحة المفزعة والوحوش. وكانت هذه المرأة العجوز تسيطر على أرواح شريرة. وعلى أية حال، وعلى الرغم من مظهرها المخيف وسلطانها، إلا أن «وانج» كانت تمثل الرمز الأمومى إلى كل الآلهة فى الجنة. وفى حديقتها المسحورة كان ينمو الخوخ المطلوب الذى يقطف وتقدمه فى مأدبة فاخرة للآلهة. وقد كان لها ميول كيميائية منذ القرون الوسطى، حيث كانت من الأشخاص الذى يزاولون فن دمج المواد، والتى تتحول بعد الدمج إلى عناصر مختلفة.

وكانت «وانج» يمكنها أن تخلط الكثير من الإكسير، أو الجرع السحرية، حتى تضمن وتأمن الخلود للآلهة.

وفى الكثير من الأساطير كانت الحديقة الأسطورة للجنة الغربية تذكرنا

بالاستقرار فى قسم بعيد من جبال «كولون». هذه القمم المدهشة الواقعة فى غرب الصين بين «التبت» و«شيشيانج» والتى يصل ارتفاعها إلى خمسة وعشرين ألف قدم.

وفى علم الأساطير، فإن الجبال هى بيت النبوءة. والأعشاب من الناحية التاريخية. كانت جزءا من الحرير. والطريق هو طريق القافلة بين الصين وبلاد فارس والذى استعمل لتجارة الحرائر، والتوابل. والذهب.

ولأن النبال الكبير «واى» أحب زوجته كثيرًا، فقد بدأ رحلته إلى جبال «كولون» حيث يوجد الخوخ القديم الذى نما فى حديقة الملكة الأم «وانج»، فى الجنة الغربية.

وكان النبال غير متأكد من الطريق. وهو أيضا قد فقد القوة والسلطة التى كان يمتلكها عندما كان يعيش فى الجنة. حيث كان يركب دائمًا فى عربة الإمبراطورة والتى كانت تجرها تنينات السماء للوصول إلى الجنة الغربية. ولكنه الآن يعيش على الأرض، ولابد له من أن يمشى، ويحترق عبر الصحارى، وعبر جداول باردة. ويرتحل على المستوى العالى من الجبال لآلاف الأميال، وبعد أن قام «واى» برحلته الطويلة أخيرًا، وصل إلى وجهته. وحيا من قبل الملكة الأم «وانج». وعندما أخبرها «واى» بأن زوجته أرادت جرعة إكسير الخلود، تنهدت «وانج» وقالت: لسوء الحظ. إن كل الآلهة كانت عندها وقد أخذوا جميع جرعات الخوخ ولم تتبق سوى جرعة واحدة فقط أخيرة. وعليك الاختيار إما أن تأخذها أو تنتظر محصول الخوخ القادم والذى لا ينضج إلا بعد ثلاثة آلاف سنة أخرى.

وبعد تفكير من «واى» ، أخذ من الملكة الأم «وانج» الواحدة الباقية، وهى كانت عبارة عن خوخ مجفف ناقص جدًا، ولذلك قصفت عليه الملكة الأم بعض الأعشاب والمساحيق، وحركتهم سوية حتى تحولوا إلى إكسير. ثم صبت الملكة الأم السائل الثمين إلى القارورة الصغيرة. «وقالت لـ «واى»: هذه الجرعة ستأخذانها كلاكما حتى تستطيعوا أن تسافروا إلى السماوات. ولكن يجب أن

تتأكد من أنكم تأخذانها ليلاً، وإلا ستتحصرون فى نصف الطريق بين الأرض والسماء، وحذرته بعناية، ووضع النبال القارورة فى كيس داخل حقيبته وعقد الحقيبة بإحكام حول خصره، ومشى «واى» ثانية على نفس الجبال العالية، وعبر نفس الجداول الباردة، ونفس الصحارى المحرقة ليعود إلى زوجته.

وعندما رجع النبال أخيرًا إلى البيت، وقدم الإكسير الثمين إلى زوجته، أبهجت «تشانج» زوجته حيث كانت تتوقع العودة إلى أختها الإلهة فى السماء.. ثم استجدته لأخذ الدواء فورا، ولكن زوجها رفض، عندما تذكر التحذير الذى كان قد أعطته له الملكة الأم. وقال «واى» لزوجته: لقد تعهدت أن أقوم برحلة طويلة لإنجاز رغبتك؛ ولذلك يجب أن نكون صبورين وننتظر وضح الليل، حتى تكون النجوم قادرة على أن توجهنا باتجاه البيت.

ووافقت «تشانج» على فكر زوجها. لكن رغبتها التى تكمن فى استعادة وجودها مع أختها كانت أقوى من تقديرها للموقف.

وعندما توجه الزوج إلى صيده اليومى، حدقت الإلهة فى الإكسير. وقد لبست نهارًا وليلاً على شوق منتظرة أن يعود زوجها، ولكنه لم يرجع. وقد قضت نصف الليل التالى منتظرة عودة زوجها. وكان فى أغلب الأحيان، قد توقف النبال للدردشة، مع جيرانه الذين أعطى إليهم أجزاء كبيرة من الأيل، والأرنب، والسمان، والدراج، والبط من صيده.

وتنهدت الإلهة «تشانج» وعرفت من رائحة الإكسير أنه قد خفف.

وأن الجرعة كانت ضعيفة جدًا، وأن النبال من المحتمل ألا يستعيد القوة الكاملة بشرب جزء منه، وهى أيضا من المحتمل ألا تستعيد جمالها الكامل بشربها منه. علاوة على ذلك، فهم قد لا يصلون إلى السماء. بهذه المخاوف التى تراودهم فى عقولهم.

ولذلك فكرت الإلهة فى خطة، وهى أن تشرب الجرعة كاملة بدلا من أن تقسمها مع زوجها لكى تتمكن من أن تعود إلى السماء أولاً، وتستجدى إله

الشمس للغفران لزوجها بعد أن أسقط التسعة شموس. ثم تستعير بعض تتينات السماء وتذهب مع الآلهة أختها. لزيارة الملكة الأم فى الجنة الغربية. وهناك. يقنعونها لخلط جرعة أخرى من الإكسير لزوجها. وبذلك فقد يمكن للنبال أن ينضم إلى زوجته فى الجنة. وعندما ابتلعت «تشانج» الإكسير. أحست فورًا بمرارته عندما أحرق حنجرتها. وأصبح جسمها ساخنا. وبدت مشوشة ومضطربة. ولما جاء الليل. عامت بجسمها صاعدة إلى النجوم. ولسوء الحظ. لم يكن الليل قد وضح بعد. لذا تجولت بين النجوم وفقدت الطريق. ثم استقرت أخيراً، وانحصرت فى القمر البارد.

ولما رأى النبال «واى» زوجته وهى تتجرف إلى السماء. صاح وحاول اللحاق بها. ولكنها كانت بعيدة جدًا عن سمعه. وعندئذ بكى «واى» وكان مفجوعا وبكى الأيام. ولم يتمكن أحد من أن يواسى الصياد الحزين.

وأسفت الآلهة لحال النبال. فقد خدم «واى» الآلهة ودائمًا حل محلهم بإخلاص. وما اعترض النبال على المهام التافهة غير المعدودة التى خصصتها إليه الآلهة.

وهى أقل مما كان عليه فى السماء. علاوة على ذلك. فهو قد أنقذ الأرض من الجفاف والوحوش.

لذا: كانت الآلهة تمنح النبال الحق للصعود إلى السماء حتى يكون مع زوجته مرة كل سنة. وفى الليلة التى يصعد فيها إلى السماء. يشرق البدر التمام اللامع؛ والكامل على مدار السنة. وهو ما يعكس حب النبال «واى» لزوجته «تشانج» إلهة القمر.

■ ■ ■

مكافأة الآلهة

«استطاع «باكو» أول الخلق فى أساطير الصينيين أن يشكل الأرض حوالى عام ٢,٢٢٩٠٠٠ قبل الميلاد بعد أن ظل يعمل ويكد ويجهد فى تشكيلها ما يقرب من ثمانية عشر ألف عام. وتجمعت أنفاسه التى كان يلهث بها فصارت رياحا وسحبا، وأضحى صوته رعدا، وتحولت عروقه أنهارًا، واستحال لحمه أرضا، وشعره نبتا وشجرًا، وعظمه معادن، وعرقه مطرا.. أما الحشرات التى كانت تعلق بجسمه.. فأصبحت آدميين.. وهم أصل وجود البشر...!

وجاهد الملوك الأولون جهادًا شاقا فى محاولة جعل «قمل» باكو بشرا متحضرين بعد أن كانوا قبل ذلك كالوحوش الضارية يلبسون الجلود، ويقتاتون باللحوم النيئة.. ويعرفون أمهاتهم ولكنهم لا يعرفون لهم آباء!

ومع تقدم البشر وتحضرهم بدأت الملوك وهم من نسل الآلهة.. يعلمون الآدميين كيف يعيشون حياة نظيفة طاهرة كان أبرز ما فيها اخلاص الأبناء وطاعتهم طاعة عمياء. ومن هنا صار حب الآباء مثل العبادة.. وصارت الآلهة تجزى الأبناء الصالحين كلما زاد إخلاصهم وتفانيهم فى هذه العبادة.. ومن هنا اشتهرت فى الصين أسطورة «مكافأة السماء».

كان تونج يونج قد فكر طويلا جدا قبل أن يترك بيته وينطلق إلى الساحة العامة فى المدينة حيث يعرض الأرقاء والمدينون أنفسهم للبيع.

ولم يكن تونج قد اتخذ هذا القرار عن يأس من سداد دين أو رغبة فى حياة الرق. فقد كان الأمر أبعد من كل ذلك. فهناك.. بين جدران غرفته الحقيرة الضيقة، كانت جثة أبيه لا تزال تستلقى فى سكون، لا تجد من يستطيع أن يؤدى لها مراسم الدفن، برغم كل ما بذله تونج من محاولات وجهود ذهبت كلها مع الريح ...!

والحق أن تونج حين خرج يبحث أول الأمر عمن يمكن أن يمد له يد المعونة لتغطية نفقات دفن أبيه، لم يكن لديه أمل كبير فى أن يجد أحدًا. فقد كان بالغ الفقر تماما كما كان أبوه.. والفقير لا يجد سوى الفقراء أصدقاء له. وقد كان هؤلاء الأصدقاء فعلا من البؤساء الذين يعجزون عن تقديم أى عون لتونج الذى كان الألم يملؤه وهو يجد نفسه غير قادر على القيام بطقوس دفن الأدب الذى عاش حياته فى ضيق وتقتير من أجل تعليم ولده، والذى عجز فى الوقت نفسه عن ادخار قطعة واحدة من النحاس للمستقبل الأسود الكئيب.

ومع ذلك، فقد صمم تونج على القيام بطقوس الدفن التى تعارف عليها الناس، وتخليد ذكرى أبيه باقامة نصب جميل على قبره يليق بوالد طيب حنون.

ولم يكن أمام تونج لكى يحصل على قطع النحاس والفضة سوى طريق واحد رهيب، هو أن يبيع نفسه كعبد لأى سيد من الأثرياء.

وانطلق تونج يونج فى طريقه إلى ساحة الرقيق، بعد أن وضع فوق كتفه لافتة تحدد الشروط الباهظة لعبوديته، والأعمال التى يمكن أن يؤديها بنشاط واتقان.

وفوق مقعد حجرى كبير جلس تونج يونج فى انتظار من يشتريه. وما أكثر من مر به من رجال راحوا يبتسمون فى سخرية وهم يقرءون الثمن الباهظ الذى علقه فوق كتفه. وما أكثر من مر به من رجال كانوا يتوقفون قليلا ليقلبوه ويتأملوا عضلات ذراعيه وساقيه. بل وما أكثر من مر به رجال يحلوا لهم طرح الأسئلة فى فضول، أو اطرائه والثناء عليه بكلام أجوف رقيق.. ثم لا شىء بعد..!

واستمر تونج يونج جالسا فوق الحجر، لا يجد من يشتريه..!

ومرت الساعات طويلة ثقيلة باردة.. وما من أحد يحاول أن يعرض على تونج ذلك الثمن الذى يبغيه. وبدأ اليأس يأخذ بخناقه.

وأحس بحقارته إذ عجز عن الحصول على سيد يشتريه. ونهض من مكانه. ومن عينيه يكاد يطفر دمع غزير وفى هذه اللحظة، دخل السوق على صهوة

جواد أشهب، سيد بارز من سادة المقاطعة، يعرف كل أهلها أن لديه من العبيد بضعة آلاف، ومن الأرض إقطاعيات واسعة الأطراف. ووقف السيد يتأمل الشاب الذى عاد فملأ صدره أملا بعد يأس وقرأ الرجل اللافتة المعلقة فوق ظهره. وعاد فصعد بصره إلى كل عضو من أعضائه القوية البارزة.. وراح يتأمل وجهه الباسم السمح. ثم التفت الى رفيق كان يصحبه، وأمره بأن يدفع للفتى الثمن الذى يبغيه.

وهكذا أصبح تونج يونج عبدًا، غير أنه أحس وهو يستسلم لمصيره الجديد، أنه قد حقق أعز أمانيه، إذ كان أول ما صنعه حالما تسلم ثمن حريته، أن انطلق الى بيته فجهز جثة أبيه وأعدها للدفن، وأقام عليه الطقوس الجنائزية فى تقى وورع. ووضع بين شفتيه الفضة المقدسة، وأحرق عرائس الورق بكل أشكالها فى النار الطاهرة، ثم دعا المنجمين والسحرة ليستخيروا الآلهة عن المكان الذى يمكن أن يقام فيه نصب أبيه، وليختاروا البقعة التى لا يقترب منها شيطان أو تنين. وعندما تم اختيار مكان الضريح، انطلق الفتى الى أمهر الفنانين فشيدوا قبرا من رخام نقشوا على حجارته أبدع النقوش، ثم نثر على جانبى الطريق قطعا من فضة ونحاس، قبل أن يعود إلى الدار ليبدأ جنازة أبيه، ويسير بها فى الطريق إلى الضريح ليوسدها اللحد، بعد أن تمت كل إجراءات الدفن كأحسن ما يشتهى أغنى الأغنياء.!

وعندما أتم تونج يونج أداء العمل الطاهر الذى كان يبغيه، انطلق إلى سيده الجديد وقد قرر أن يجعل من نفسه خير العبيد..!

والواقع أن تونج كان أبرز الجميع اخلاصا لسيده وإتقانا لعمله.. وما قصر قط فى مهمة عهد بها إليه، حتى أن السيد قرر فى أعماقه أن يسهل له مهمة الحصول على ما يساوى أجر حريته.. خلال سنوات قليلة يقضيها لديه.

على أن الاخلاص فى العمل لم يمنع يونج تونج من الاستمرار فى الحزن على أبيه الطيب الحنون. ولم يكن يترك مناسبة تمر إلا ويزور قبره ومعه أعواد

البخور يحرقها أمامه ويقيم الطقوس التى اعتادت أسرته القيام بها فى مثل هذه المناسبات، ويوزع على الفقراء ما يشتريه من فواكه ولحوم بالمال الذى كان الجميع يتوقعون أن يدخره ليجمع منه ثمن عتقه..!

وكان لابد للحزن العميق، والتفانى فى العمل، مع الإرهاق المستمر بغير ما يكفى من غداء، أن ينتهى بالفتى إلى مرض منهك يقعده عن أداء كل شىء. فإذا به ملقى فى فراشه بالكوخ الصغير ذات يوم يتقلب على نار الحمى، ولا أحد يرعاه أو يهتم به. حتى زملاؤه لم يجدوا لديهم من الوقت ما يجعلهم يزورونه وهم يقضون نهارهم كله فى المزرعة. ويعودون مع الغروب مرهقين لا يكادون يحفلون بشىء قط عدا النوم..!

وهكذا جاء الوقت الذى بدأ فيه تونج يونج يستسلم لموت لابد منه. وغامت عيناه، وخنقته الحمى، وراح فى إغفاءة عميقة طويلة.

وبينما تونج فى إغفاءته، إذ رأى فى حلكمه حسناء رائعة الجمال تقترب منه وتمد كفها الرقيق إلى جبينه، وتمر بأصابعها الطويلة الدقيقة على وجه وشعر تونج بما يشبه السحر يسرى فى جسده المنهوك، وكأن حياة قد بدأت تتدفق فى عروقه التى كانت قد أخذت تتقلص وتنهار..!

وفتح الفتى عينيه. فإذا هو أمام حسناء شيقة تنحنى عليه.. لم تكن تختلف قط عن الحسناء التى شهدها فى حلمه اللذيذ.

وفى لحظات .. كانت الحمى قد زالت عنه، والحياة الجديدة الرائعة تتدفق فى عروقه، فى حين أن الحسناء لا تزال تحرك أصابعها على وجهه وجبينه وعينيه، وترميه بنظرات رقيقة حانية فيها سحر فريد عجيب.

وداخل الفتى شعور لذيذ. فيه راحة وفيه رهبة. وحاول أن يخرج من بين شفتيه كلمات يسأل فيها، من تكون؟ غير أنها أشارت اليه أن يسكت.. فى حين انطلقت تقول له فى صوت كأنه يهبط من السماء:

- لا تسألنى شيئا أيها الحبيب.. فيكفيك أننى جئت لأعيد إليك قوتك،

ولأكون زوجة لك.. فانهض معى نصلى للسماء!

وكاد تونج يبتسم فى سخرية وهى تطلب منه النهوض .. فقد ظل عدة أيام لا يستطيع حركة على الفراش قط..

وأحست الحسناء بما يعتمل فى أعماقه. فمدت إليه ذراعها يعتمد عليه فى نهوضه. ووجد نفسه بالرغم منه يستسلم لها. وإذا به لدهشته ينجح فى النهوض، بل ويجد فى نفسه القدرة على المشى والجرى والقفز أيضا..!

لقد عادت إليه كل قواه.. ولم يعد يحس ألما أو انهيارا بعد..!

وأدرك الفتى أن الحسناء كانت صادقة فيما وعدت به من إعادة قواه.. ولكنه لم يدر كيف يمكن تنفيذ وعدها الآخر بالزواج منه.. وهو فى ذلك الخضم الهائج من الفقر والبؤس والامتهان..!

وكأنما أحست الفتاة بما يدور بخلده، فعادت تربت على كتفه فى حنو كبير، وقالت له فى صوت طاهر نقى:

- لا تخش مسئوليات الزواج.. فسزودك بكل ما تحتاج إليه!

وفتح الفتى عينيه فى دهشة، وراح ينقل بصره بين أسماله البالية.. وملابسها التى بدت فيها هى الأخرى فقيرة ضئيلة كمثيلاتها من بنات الشعب.

وشعر باطمئنان كبير، وبرغم الحيرة التى أخذت به. ولم يكد يفتح شفتيه ليتكلم حتى كانت هى قد أخذت من جديد بيده، وجعلته يركع إلى جوارها، ويصلى معها..

وفجأة رفعت الفتاة كأسا من النبيذ، لم يعرف من أين جاءت به، وأدنته من شفتيها ثم من شفتيه، ليشربا معا نخب الزواج.

وقد كان .. وأصبحت الحسناء الغريبة النقية زوجة طيعة لتونج يونج..!

عاش تونج يونج أيامه التى تلت ذلك اليوم كما لم يعش من قبل أبدا. فقد بدت له الحياة هنية شهية، فيها سحر وفيها روعة وفيها جمال، برغم الحيرة

والخوف الغامض الذى كان يملؤه وهو يعيش مع زوجة لم يجرؤ قط على سؤالها، من تكون؟ ومن أين جاءت؟ ولم يعرف أبدا كيف يجيب عن تساؤل زملائه من الرفيق عمن تكون زوجته الجديدة. أبدا ما عرف تونج يونج كيف يجيب عن كل تلك الأسئلة.. بأكثر من جواب واحد هو الذى سمعه منها يوم تم الزواج.. إن اسمها تشى.. ولا شىء بعد!

غير أن تلك الحيرة لم تطل به. فقد قرر أن يدع كل ما يتعلق بماضيها وماضيه. وأن يعيشا معا حياتهما الجديدة الرائعة.. فى ذلك المسكن الصغير الذى لم يعد باردًا جافًا حقيرًا. بل صار بفعل قوة سحرية بديعًا هادئًا. تغطى حقارته زخارف وزينات صنعتها الحسناء بيديها الرقيقتين العامرتين بالسحر.

ولم يكن ذلك وحده هو ما أسكت يونج عن أن يفكر فى حقيقته. فقد كان ثمة شىء آخر غريب لم يدر سره.. فقد كانت زوجته الحسناء تقضى نهارها كله وجزءا كبيرا من الليل، تنسج حريرًا لم تشهد مثله المقاطعة من قبل. وكان الحرير الذى تصنعه رائعًا فياضًا كتيار من ذهب لامع مصقول.. تتماوج على سطحه زينة رائعة عجيبة ترسم خيالات فرسان على خوذاتهم جواهر ثمينة لم ير مثلها أحد فى المقاطعة قط، وتجر جيادهم عربات على جانب كل منها رسم تنين يتدلى من لحيته حجر كريم.

لم يدر تونج يونج قط كيف تصنع «تشى» هذا النسيج العجيب. غير أنه لم يحاول أن يسألها أبدا عن السر الذى لا تريد أن تبوح به.

وكان يكفيه أن يأخذ منها النسيج ليعرضه فى السوق. فيلتف حوله كل أغنياء المقاطعة، ويدفعون له مكعبات من فضة وهم يطلبون منه كميات أخرى كثيرة هائلة.

وذاع صيت «تشى» ونسيجها العجيب. وبدأ الأمراء والتجار يتوافدون على المقاطعة من كل مكان، يطلبون مشاهدة النسيج الساحر، ويتوسلون الى «تشى» أن تعلمهم سر صنعه. ولكن الزوجة الحسناء كانت تهز رأسها وهى تبتسم وتقول:

- أؤكد لكم أن أحدا لم يكن يستطيع أن يميز أصابعها خلال قيامها بنسيج الحرير. فقد كانت أصابعها تتحرك فى سرعة عجيبة كأجنحة نحلة تطير.

واستمرت الأيام تمضى، ومكعبات الفضة التى يبيع بها تونج يونج أثواب النسيج تزداد يوما بعد يوم وتتراكم فى صندوق كبير، على حين أن «تشى» تعمل فى دأب لإنتاج أثواب أخرى كثيرة، حتى تفى بوعدها الذى قطعته على نفسها حين قالت لزوجها إنها ستزوده بكل ما يحتاج إليه..

ثم جاء يوم..

وبينما كان تونج يونج يستعد لمغادرة الدار فى طريقه إلى السوق قبل الذهاب إلى مزرعة سيده، نادته زوجته وقالت له:

- لا تخرج اليوم.. فما عاد هناك ما يدعوك للذهاب إلى المزرعة.

ولم يفهم تونج ما تعنيه زوجته، إلا عندما أخذته إلى حيث كان الصندوق الكبير ففتحته، وأخرجت منه وثيقة تحريره من العبودية، بعد أن ابتاعتها بمكعبات الفضة التى ادخرتها من أثمان الحرير العجيب النفيس..!

ورقص تونج يونج، وانحنى على زوجته يقبلها، ثم حاول أن يسجد لها شاكر فمنعته، على حين استمرت تقول له:

- الآن قد مضى زمن عبوديتك.. فلا تحاول أن تبيع حريتك بعد ذلك. كن سيد نفسك، واعمل لصالحك أنت وحدك. ولقد اشتريت لك هذا المنزل الذى نقيم فيه، وابتعت باسمك المزرعة التى تحيط به. ودفعت ثمن غابات شجر التوت فأصبحت كلها ملكًا لك..!

❖❖❖

ومضى عام جديد .. كان تونج يونج قد أصبح خلاله أبرز أغنياء المقاطعة وأحبهم إلى قلوب الناس. وحتى العبيد الذين اشتراهم ليعملوا فى أرضه، ملأتهم أحاسيس بأنهم لم يعودوا عبيدًا قط بما كان يعطيهم من مال ويمنحهم

من عطف، فأخلصوا له الحب، كما قدسوا السيدة «تشى» .. زوجة السيد التى لم يروا منها شيئا سيئا على الإطلاق.

وأنجبت «تشى» طفلا رائع الجمال. كأن على جبينه هالة من النور.

وتحدث كل أهل المقاطعة عن ذلك الطفل العجيب، إذ كان أعجوبة لم يروا مثلها من قبل قط. فقد ردد وهو بعد فى الشهر الثالث من عمره أمثال الحكماء. وعندما بلغ شهره السابع بدأ يتلو الصلوات المقدسة. وقبل أن يبلغ سن العاشرة كان يجيد الكتابة ويتحدث إلى الكهان ويناقشهم فى أصول العبادات.

وكان الفرح يملأ قلب تونج يونج ويشهد أعاجيب ولده.. وكان يتحدث إلى زوجته فى زهو وأمل بالمستقبل الذى ينتظره.. فى حين تروح هى تتابع سروره وزهوه فى رضى كبير.

ونهض تونج يونج ذات أمسية باردة، فأحس فى أعماقه انقباضا كريها بغيضا، وشعر كأن أطرافه قد تجمدت. ونهض إلى النار فأشعلها، واقترب من زوجته فإذا هى راقدة فى هدوء، وعلى وجهها نور وضىء كأنه السحر. وراح تونج يونج يتأمل وجه زوجته وهو يحس به أكثر جمالا مما كان فى يوم من الأيام. واستمر فى تأمله وهو ذاهل عن مضى الليل، وخمود النار، وسكون الرياح التى كانت تصفر قبل ذلك فى جنون..!

وفجأة .. فتحت «تشى» عينيها، ونهضت وعلى شفتيها سكون. ثم مدت يدها إليه، تماما كما مدتها إليه يوم جاءت لتشفيه. وسارت به إلى حيث كان الطفل يرقد فى الفراش.

وكما حدث يوم التقت عيناهما أول مرة. شعر تونج برعشة رهيبة وعيناها تلتقيان بعينيها.

إلا أن الرهبة التى ملكته ذلك اليوم كان لها طابع آخر غريب. أحس معه بقوة غير منظورة تدفعه إلى أن يسجد أمام «تشى» كما ينجو ناسك أمام إلهه. وعندما نهض من سجوده، ورفع عينيه إليها انطلقت من بين شفتيه آهة رهيبة

فقد كانت «تشى» تنتصب أمامه، طويلة كأطول ما يمكن أن يكون إله، ومن وجهها يشع بريق هائل كأنه بريق الشمس. وسمع صوتها يحدثه فى رفق وحنان:

- والآن أيها الحبيب.. لقد حان الوقت الذى أتخلى فيه عنك.. فما عدت بحاجة إلى .. بعد أن أديت لك كل ما أرسلنى مَن أجله سيد السماء، مكافأة لك على حنوك البنوى، فتجسمت لك فى صورة امرأة لأنجب لك ولدًا جميلا يكون محبًا رفيقًا عطوفًا كما كنت أنت نفسك لأبيك.. وبات على أن أعود الآن إلى مقرى العلوى.. فأنا أيها الفتى الحبيب.. الآلهة تشى نيو..!

ولم تكد تنتهى من كلماتها حتى تلاشى البريق الهائل الذى كان يغمر المكان. وحدق تونج يونج بعينيه أمامه، فما رأى شيئا قط.. إذ كانت تشى نيو قد ارتفعت إلى السماء كومضة البرق الخاطف..

أما الفراش الصغير.. فقد كان الطفل لايزال يرقد فيه.. ومن وجهه الوضىء يشع بريق رائع.. لايقل روعة عما كان عليه وجه تشى نيو..

■ ■ ■

البحث عن إكسير الحياة

كان البحر هائجًا، يبعث على المهابة والإجلال. وكانت مئات الآلاف من الأنهار تجرى ليل نهار وتصب فى هذا البحر. وقيل أيضا إن مياه المجرة الواسعة فى السماء تصب هى الأخرى فى البحر. ولكن هذا البحر العظيم لا تزداد كمية مياهه ولا تقل، لا تنضب ولا يفيض. فما السبب يا ترى؟

يحكى أنه فى مكان على بعد ملايين الكيلو مترات إلى الشرق من بحر بوهاى أخدود كبير يدعى «قويشيوى» أى تجمع المياه فى الأخدود. كان هذا الأخدود واديًا سحيقًا لا قرار له. فلا عجب إذن أن لا يمتلئ البحر أبدا بالمياه التى تصب فيه مهما كثرت كمياتها.

وعلى سطح البحر قرب «قويشيوى» عامت خمسة جبال شاهقة، فى كل منها دروب متعرجة، يبلغ طول كل درب من السفح إلى القمة خمس عشر ألف كيلو متر. وكانت قمة الجبل قطعة من الأرض المنبسطة، يبلغ محيط دائرتها أربعة آلاف وخمسمائة كيلو متر. لقد انتصبت هذه الجبال الخمسة فى صف واحد، يبعد كل منها عن الآخر خمسة وثلاثين ألف كيلو متر. ولو وقف شخص على شاطئ بحر الصين الشرقى ينظر بعيدا، لرأى سحبا تلتف حول هذه الجبال التى تظهر حينا وتختفى حينا آخر.

وإذا كان الجو صافيًا ظهر فيها كثير من القصور والقاعات.

لقد أقام الآلهة فى هذه الجبال الخمسة، وبنوا فيها تلك القصور والقاعات من الذهب واليشم الأبيض. وقد كانت جميع الطيور والحيوانات هناك بيضاء اللون. كما نمت هناك كثير من الأزهار والأشجار الغريبة، كشجرة اللؤلؤ التى تعطى ثمارا متألقة لذيذة، إذا أكل المرء ثمرة منها طال عمره. وقيل إن هذه الآلهة من أسلاف الإمبراطور السماوى، يستطيع كل منهم أن يركب السحب،

ويمتطى الضباب. وينتقل بسرعة خاطفة.

فعلى الرغم من أن كل جبل بعيد عن الآخر إلا أن هؤلاء الآلهة لم يجدوا أية صعوبة فى الانتقال فيهما بينها. فهم يستطيعون أن يقطعوا خمسة وثلاثين ألف كيلو متر ذهابا وإيابا عشرات المرات فى اليوم الواحد.

لقد آلمهم أن هذه الجبال بلا قواعد تحت سطح البحرعلى الرغم من شموخها. فقد عامت على الأمواج بلا ثبات. وأقلقهم أن تدفعهم الأمواج مع هذه الجبال إلى القطب الغربى يوما ما. قيل إن القطب الغربى مكان مظلم شديد البرودة. لا تصل إليه أشعة شمس ولا ضوء القمر. ولا يعيش هناك إلا حيوان كبير يدعى «تنين الشمعة» يحمل شمعة فى فمه ينبعث منها ضوء خافت. فالمكان غير مناسب. وهذا أقلقهم أشد القلق.

ذهب الآلهة إلى الإمبراطور السماوى يشتكون إليه من هذا الأمر. ولما سمع شكواهم أمر مساعده يوى جيانغ بحل هذه المشكلة. وكان هذا واجبه لأنه إله البحار. فقيل إنه أرسل خمس عشرة سلحفاة سحرية كبيرة لتحمل تلك الجبال الخمسة على ظهورها وتجعلها راسخة لا تتحرك.. وحتى لا تهرب تلك السلاحف من التعب قسمها إلى ثلاث مجموعات، تعمل كل مجموعة منها بالتناوب مرة واحدة كل ستين ألف سنة. والواقع أن هذا العمل لم يوافق رغبة السلاحف التى كانت تتصرف بحرية فى البحر.

ولكنها لم تستطع مخالفة أوامر الإمبراطور السماوى، فغطست تحت الجبال، وحملتها على ظهورها رافعة رؤوسها فوق سطح المياه دون أن تحرك أجسامها. ومنذ ذلك الوقت رسخت تلك الجبال الخمسة على سطح البحر، فلم تؤثر فيها الأمواج الهائجة ولا السيول الجارفة. وشعر الآلهة هناك بارتياح، فلا خوف من أن تزحف تلك الجبال إلى القطب الغربى.

وكان الآلهة يفاجؤون أحيانا بأحداث عارضة. شأنهم فى ذلك شأن البشر. فقد اكتشفوا على بعد ثلاثة وعشرين ألف كيلو متر من شاطئ بحر الصين الشرقى جبلا يدعى «بوه قو» وبالقرب منه بلد للعمالقة يدعى «بلد ملك التنين»،

قامة كل شخص هناك تناطح السحاب. وقد عاش هؤلاء العمالقة فى الأوقات العادية على صيد الأسماك والسلاحف الكبيرة ذات التروس اللينة.

وذات يوم ذهب عدد من العمالقة إلى شاطئ البحر للصيد فوجدوا عدة سلاحف عائمة على سطح البحر رافعة رؤوسها دون حراك. اقتربوا منها، ومدوا صنانيرهم نحوها، فابتلعت إحداها طعم السمك على عجل لأنها لم تتناول طعاما منذ عشرات الآلاف من السنين، ولكنها وقعت فى الفخ.

وهكذا نجح العمالقة فى صيد ست سلاحف، وألقوا بها على الشاطئ. فأصبحت تلك السلاحف طعاما لذيذا للعمالقة. وعندما شبعوا من لحومها، عزفوا عن إلقاء عظامها وتروسها لأنهم رأوا فى صيد هذه السلاحف الكبيرة فرصة نادرة. لذلك جففوا عظامها على النار، واتخذوها وقودا. كما جعلوا من تروسها سقوفا تثبت للرياح والأمطار.

ومن جراء ذلك وقعت حادثة مؤلمة. فعندما اصطيدت السلاحف الست فقد جبلان من الجبال الخمسة ركائزهما. وأخذا يندفعان مع أمواج البحر والعواصف إلى القطب الغربى كمركب مقطوع المرساة. فانتقل الآلهة المقيمون فى هذين الجبلين إلى الجبال الأخرى. وبعد وقت قصير دفعت الأمواج والعواصف بهذين الجبلين إلى القطب الغربى، فغرقا فى البحر المظلم.

إن هذه الحادثة التى تسبب بوقوعها العمالقة أغضبت الإمبراطور السماوى غضبا شديدا. ومن أجل إنزال العمالقة قلص مساحة أرضهم. ولجأ إلى قدراته السحرية فى تقصير قاماتهم، فأصبحت بطول عدد أمتار فقط، الأمر الذى جعلهم عاجزين عن صيد السلاحف الكبيرة.

ومنذ ذلك الوقت لم تبق إلا ثلاثة جبال للآلهة فقط. وعندما علم حاكم بلدى تشى ويان فى فترة الممالك المتحاربة «٢٢١-٤٧٥ ق.م» أن على البحر ثلاثة جبال للآلهة، فيها دواء يطيل عمر الإنسان، خطرت لهما خاطرة كلها طمع وجشع، كان هذان الحاكمان منغمسين فى الملذات عن طريق استغلال الشعب واضطهاده. وقد خشيا فقدان كل شىء بعد موتهما. لذلك أمرا بأن تضع مئات

القوارب، وأن ينطلق بها أشخاص يبحثون عن ذلك الدواء الخاص فى جبال الآلهة. ولكن العواصف والأمواج قلبت هذه القوارب. وقال أشخاص قلائل ممن نجوا من تلك الحادثة إنهم قد رأوا فعلا ثلاثة جبال بعيدة، تشبه ثلاث قطع من السحب فى صف واحد على سطح البحر. ولكن عندما تقدموا، غرقت تلك الجبال واختفت فى البحر. وحين واصلوا تقدمهم إلى الأمام، هبت رياح شديدة جعلت القوارب تتراجع إلى الوراء. بذلوا أقصى الجهود فى الاقتراب من ذلك المكان، ولكنهم أخفقوا فى ذلك. فمن يستطيع أن يميز الصواب من الخطأ فى حديثهم ذلك؟ ومهما يكن من أمر فقد خاب أمل الحاكمين فى الحصول على الدواء الخاص بإطالة عمر الإنسان، فماتا واحدا بعد الآخر.

يحكى أن الإمبراطور الشهير تشين شى هوانغ حلم بأن عمره سيطول عند شيخوخته بعد توحيد الصين. فذهب إلى جبل هويجى، وأخذ يراقب بنفسه عشرات الآلاف من العمال المدنيين، وهم يقومون بصنع قارب كبير.

وانطلقوا يبحثون عن ذلك الدواء الخاص فى البحر. ولكنهم لم ينجحوا، ولم يرجع منهم أحد. أحس الإمبراطور تشين شى هوانغ الذائع الصيت والقادر على كل شيء بخيبة أمل، فاضطر إلى العودة، وعندما وصل عائدا إلى شاتشيو لقى حتفه هناك.

وكان هناك رجل يدعى لى شاو جيون، ادعى بأنه استوعب إطالة عمر الإنسان، ثم أخبر الإمبراطور هان ودى بأن رأى ذات مرة خلال قيامه بجولة فى البحر، إلها يدعى آن تشى سنغ، يأكل تمرة صينية كبيرة يعادل حجمها حجم القرعة، وهذه التمرة دواء خاص بإطالة عمر الإنسان، وهى جبال الآلهة وراء البحار. فأثار بحديثه هذا طمع الإمبراطور هان ودى الذى أمر بأن تصنع قوارب، يرسل فيها أشخاصا للبحث عن ذلك الدواء الخاص. ولكن هدفه لم يتحقق أيضا.

ومنذ الوقت لم يتم التوصل إلى أى خبر صادق عن جبال الآلهة فيما وراء البحار، ولم يعرف عنها إلا الحكايات.

الجرادة الرمادية والجرادة الخضراء

فى فصل الخريف ، وفى حقل ذرة لم يستو بعد، كانت تعيش جرادة رمادية.

وقريبا من حقل الذرة، وفوق العشب الأخضر، كان يوجد مسكن الجرادة الخضراء.

ذات يوم ، استعدت الجرادة الرمادية وقفزت قفزة هائلة. فغادرت حقل الذرة وحطت فوق العشب الأخضر.

- ماذا يحدث؟ ماذا تفعلين أنت هنا؟

- من هذا الذى يتكلم؟

والتفتت الجرادة الرمادية حولها تبحث عن مصدر الصوت، فاكتشفت جرادة خضراء عند مرمى بصرها. جرادة لم تستطع تمييزها بسهولة بين الأعشاب بسبب كسوتها الخضراء.

- أنا الجرادة الرمادية، أسكن فى حقل الذرة المجاور، اعذرينى إن كنت أقلقت راحتك بهذا الهبوط الصاخب.

كانت الجرادة الرمادية تتكلم وهى منهمكة فى تفحص الجرادة الخضراء من كل الجهات: رأس أخضر، وجسم أخضر، حتى الجناحان خضراوان كأنهما ورقتان منشورتان، ورقتان من حجر اليشم الكريم.

تأملت جرادة حقل الذرة جرادة العشب الأخضر، فأكل الحسد عقلها وقلبها وكرهت نفسها. كرهت هذا اللون الرمادى، فعادت إلى حقل الذرة تجر أذيال الخيبة.

فى الغد، عادت الجرادة الرمادية خفيفة إلى الأرض الخضراء، فدعكت جسمها بالحشائش دعكا شديدا حتى اخضر لونها، فصارت ترقص فرحا وغبطة.

وعند عودتها إلى حقل الذرة، وبينما كانت تعرض جمالها على أترابها ولعابها الأخضر يسيل من فمها، انقض عليها فرس النبى من خلف، فأكلها.

لقد جنى عليها هذا اللون الأخضر الجميل الذى جعلها تتميز على قريناتها فى حقل الذرة الرمادى.

■ ■ ■

بائع البرتقال

انتصب بائع برتقال على قارعة الطريق يبيع ثماره، فمرت بقربه عجوز وسألته إن كانت هذه الثمار المعروضة للبيع حامضة؟

ظن البائع أن حريفته العجوز لا تأكل البرتقال الحامض، فرد عليها مسرعا:

- لا، هذا برتقال حلو، كم يلزمك يا سيدتى؟

- ولا حبة واحدة. أنا أرغب فى شراء البرتقال الحامض. فابنتى حامل وهى تهوى أكل ذاك الصنف من البرتقال.

ها قد خسر البائع الصفقة.

وبعد وقت طويل، اقتربت منه امرأة حامل، وسألته:

- هل هذا البرتقال حامض ياسيدى؟

وبما أن المرأة حامل، فإن الإجابة كانت على طرف لسان التاجر:

- نعم. هو حامض يا سيدتى. كم كيلو جرام تريدين؟

- ليست لى رغبة فى هذا البرتقال، فحماتى تحبذ البرتقال الحلو وتمقت البرتقال الحامض.

وها هو التاجر يخسر مرة ثانية الصفقة.

إن من يريد خداع الآخرين يخدع نفسه قبلهم.

■ ■ ■

شن صاحب الحانة

تقول الأسطوة بأن شابا طيب القلب يدعى «شن» كان قد افتتح حانة فى موقع البرج قبل بنائه وحدث أن مر بتلك الحانة. ذات يوم، كاهن طاوى رث الثياب وطلب نبيذا .. كان «شن» كريمًا جدًا بحيث إنه خدم الكاهن الطاوى مجانًا وكجزء من رد ذلك الجميل عاد الكاهن بعذ حين ليرسم طائر كركى أصفر على حائط الحانة وكانت ميزة ذلك الطير أنه كان يرقص حين يصفق الناس له وهكذا دهش الناس بتلك الأعجوبة فأخذوا بالتوافد على الحانة وخلال فترة وجيزة أصبح «شن» غنيا، بعد عشر سنوات زار الكاهن الطاوى الحانة ثانية وامتطى ذلك الطائر ليحلق به إلى السماء!

■ ■ ■

«بان قو» البيضة الكبيرة

يحكى أنه فى العهود الموغلة فى القدم كانت السماء والأرض صنوين لا ينفصلان، وكان الفضاء يشبه بيضة كبيرة، فى داخلها ظلام دامس، لا يمكن من خلاله تمييز الاتجاهات. ونشأ فى هذه البيضة الكبيرة بطل عظيم واسمه «بان قو» يفصل الأرض عن السماء. واستيقظ بان قو بعد ١٨ ألف سنة من النوم، ولم ير إلا ظلاما حالكا، وشعر بحرارة شديدة حتى كاد يختنق، وكان يريد النهوض، لكن قشرة البيضة كانت تلف جسده بشدة، ولم يتمكن من مد يديه ورجليه. فغضب «بان قو» وأخذ يلوح بفأس كانت معه. وبعد ذلك سمع صوتا مدويا وانشقت البيضة فجأة، وتطايرت المواد الخفيفة والصافية إلى الأعلى لتشكل السماء وسقطت المواد الثقيلة والعكرة إلى الأسفل لتكون الأرض.

وكان بان قو سعيدا جدا بعد انفصال الأرض عن السماء، لكنه خاف من إمكانية التقاء السماء والأرض مرة أخرى فى يوم ما، لذلك ، وقف بين السماء والأرض، وكان طوله يزداد عشرة أمتار يوميا، ويزداد ارتفاع السماء وسمك الأرض عشرة أمتار يوميا أيضا، وبعد ١٨ ألف سنة، أصبح بان قو عملاقا، وبلغ طوله ٤٥ ألف كيلو متر، وهكذا استقرت السماء والأرض أخيرا، ويشعر بان قو بالتعب الشديد لكنه مطمئن نسبيا، أما الأسطورة فقالت إن جسده الضخم انهار فجأة.

وبعد وفاة بان قو، أصبحت عينه اليسرى الشمس الحمراء، وأصبحت عينه اليمنى القمر الفضى، وتحولت أنفاسه الأخيرة إلى رياح وسحب، وأصبح صوته الأخير هدير الرعد، وأصبح شعره ولحيته نجوما متلألئة، وتحول رأسه وأطرافه الأربعة إلى انهار وبحيرات، وأصبحت عروقه طرقا، وأصبحت عضلاته أراضى خصبة، وأصبح جلده وأوباره أزهارا وأعشابا وأشجارا، وأصبحت أسنانه وعظامه معادن وأحجارا كريمة، وتحول عرقه إلى أمطار وندى، ومن هنا تقول الأسطورة ظهور الدنيا.

المرأة والحكيم

هناك أسطورة صينية تحكى أن سيدة عاشت مع ابنها الوحيد فى سعادة ورضا حتى جاء الموت واختطف روح الابن. حزنت السيدة جدا لموت ولدها ولكنها لم تيأس، بل ذهبت إلى حكيم القرية وطلبت منه أن يخبرها الوصفة الضرورية لاستعادة ابنها إلى الحياة مهما كانت أو صعبت تلك الوصفة.

أخذ الشيخ الحكيم نفسا عميقا وشرد بذهنه ثم قال: أنت تطلبين وصفة. حسنا. احضرى لى حبة خردل واحدة بشرط أن تكون من بيت لم يعرف الحزن مطلقا وبكل همة أخذت السيدة تدور على بيوت القرية كلها وتبحث عن هدفها حبة خردل من بيت لم يعرف الحزن مطلقا. طرقت السيدة بابا ففتحت لها امرأة شابة فسألتها السيدة هل عرف هذا البيت حزنا من قبل؟ ابتسمت المرأة فى مرارة وأجابت وهل عرف بيتى هذا إلا كل حزن؟ وأخذت تحكى لها أن زوجها توفى منذ سنة وترك لها أربعة من البنات والبنين ولا مصدر لإعالتهم سوى بيع أثاث الدار الذى لم يتبق منه إلا القليل.

تأثرت السيدة جدا وحاولت أن تخفف عنها أحزانها وبنهاية الزيارة صارتا صديقتين، ولم ترد أن تدعها تذهب إلا بعد أن وعدتها بزيارة أخرى، فقد فاتت مدة طويلة منذ أن فتحت قلبها لأحد تشتكى له همومها. وقبل الغروب دخلت السيدة بيتا آخر ولها نفس المطلب، ولكن الإحباط سرعان ما أصابها عندما علمت من سيدة الدار أن زوجها مريض جدا، وليس عندها طعام كاف لأطفالها منذ فترة وسرعان ما خطر ببالها أن تساعد هذه السيدة فذهبت إلى السوق واشترت بكل ما معها من نقود طعامًا، وبقولاً ودقيقًا وزيتًا ورجعت إلى سيدة الدار وساعدتها فى طبخ وجبة سريعة للأولاد واشتركت معها فى إطعامها ثم ودعتها على أمل زيارتها فى مساء اليوم التالى.

وفى الصباح أخذت السيدة تطوف من بيت إلى بيت تبحث عن حبة الخردل وطال بحثها لكنها للأسف لم تجد ذلك البيت الذى لم يعرف الحزن مطلقا لكى تأخذ من أهله حبة الخردل. ولأنها كانت طيبة القلب فقد كانت تحاول مساعدة كل بيت تدخله فى مشاكله وأفراحه وبمرور الأيام أصبحت السيدة صديقة لكل بيت فى القرية، نسيت تماما أنها كانت تبحث فى الأصل عن حبة خردل من بيت لم يعرف الحزن، ذابت فى مشاكل ومشاعر الآخرين، ولم تدرك قط إن حكيم القرية قد منحها أفضل وصفة للقضاء على الحزن حتى ولو لم تجد حبة الخردل التى كانت تبحث عنها.

فالوصفة السحرية قد أخذتها بالفعل يوم دخلت أول بيت من بيوت القرية، فرحا مع الفرحين وبكاء مع الباكين.

ليست مجرد وصفة اجتماعية لخلق جو من الألفة والاندماج بين الناس إنما هى دعوة لكى يخرج كل واحد من أنانيته وعالمه الخاص ليحاول أن يهب من حوله بعض المشاركة التى تزيد من بهجته فى وقت الفرح وتعزيه وتخفف عنه فى وقت الحزن إلى جانب أن هذه المشاركة لها فائدة مباشرة عليك ليس لأنها ستخرجك خارج أنانيتك، ولا لأنها ستجعل منك شخصية محبوبة إنما لأنها ستجعلك إنسانا سعيدًا أكثر مما أنت الآن.

■ ■ ■

انتصار الإمبراطور هونغ على يو

كان العديد من العشائر والقبائل تعيش فى حوضى النهر الأصفر ونهر اليانغتسى ويعتبر الإمبراطور هوانغ دى أشهر زعيم قبلى فى حوض النهر الأصفر ويليه الإمبراطور يان دى. وهما شقيقان، وكانت فى حوض نهر اليانغتس قبيلة جيو لى ويدعى زعيمها تشى يو.

وكان لدى تشى يو ٨١ أخا كلهم أقوياء جدا، وهم مهرة فى صنع الأدوات الحربية مثل الخناجر والأقواس والسهام، وكان تشى يو يقود قبيلته القوية للاعتداء على القبائل الأخرى بين حين وآخر.

وفى يوم من الأيام اعتدى تشى يو على أراضى الإمبراطور يان دى لكن الأخير لم يكن ندا لتشى يو، ولجأ إلى أراضى الإمبراطور هوانغ دى فى تشوه لو، فتحالف هوانغ دى مع زعماء مختلف القبائل لخوض معركة حاسمة مع تشى يو فى سهل لو وهى معركة تشوه لو المشهورة.

وفى بداية المعركة، نجح تشى يوه بالتتابع اعتمادا على الأسلحة الممتازة والجنود الشجعان، لكن الإمبراطور هوانغ دى دعا بعد فترة التنين وغيره من الحيوانات المفترسة لمساعدته، ولم يعد جنود تشى يو قادرين على مقاومة جيش هوانغ دى فلاذوا بالفرار.

وبعد عدة اشتباكات عنيفة، قاتل هوانغ دى ٨١ أخا لتشى يو وقبض عليه حيًا، وأمر بقتله أخيرًا، ودفن رأسه وجسده منفصلين خوفا من أن يخلق المتاعب بعد قتله.

وبعد ذلك، حظى الإمبراطور هوانغ دى بدعم الكثير من القبائل، وأصبح زعيما لكل القبائل.

وكان الإمبراطور هوانغ دى متعدد المواهب، وأبدع الكثير من الأشياء مثل بناء القصور وصنع العربات والسفر والملابس الملونة، وكانت زوجته لى تسو مخترعة أيضا، ففى البداية لم يعرف الناس منافع دودة القز، وعلمت لى تسو الناس حضارة الحرير فى الصين، وبعد أن اخترع هوانغ دى مقصورة، اخترعت مقصورة متحركة فى الأيام الممطرة ألا وهى المظلة.

وتقد الأساطير الصينية القديمة الإمبراطور هوانغ دى أعظم التقدير، لذلك تعتبره الأجيال اللاحقة سلف الأمة الصينية، وكانت قبيلتا هوانغ دى ويان دى قريبتين ثم اندمجتا، لذا، يسمى الصينيون أنفسهم أبناء يان هوانغ، وبنى الصينيون ضريح هوانغ دى فى مقاطعة شنشى بجانب النهر الأصفر إحياءً لذكرى جدهم الأول، ويتجمع الصينيون من جميع أنحاء العالم قرب هذا الضريح كل ربيع إحياء لذكرى سلف الأمة الصينية.

■ ■ ■

كوا والشمس

جاء فى الأساطير القديمة أن هناك جبلاً شامخًا فى البرارى الشمالية. وتعيش فى أعمق غاباته مجموعة من العمالقة يدعى زعيمها كوا فو، لذلك سميت هذه المجموعة بقبيلة كوا فو. وهم طيبو القلب ومجتهدون وشجعان ويعيشون حياة حرة.

وفى عام من الأعوام، كان الجو حارًا جدًا، حيث ترسل أشعة الشمس أشعتها مباشرة إلى الأرض، فاحترقت الأشجار وجفت الأنهار، ومات معظم أفراد قبيلة كوا فو من جراء شدة الحرارة، وبات رئيسهم كوا فو حزينًا جدًا وقرر ملاحقة الشمس واعتقالها ليجعلها تحت إمرة الإنسان.

ودع كوا فو من تبقى من أفراد قبيلته وتوجه نحو مشرق الشمس، وكانت الشمس تتحرك بسرعة لكن كوا فو كان عازما على ملاحقتها، ومر بجبال وتجاوز أنهارا، وعندما تعب، نفض التراب عن حذائه إلى الأرض، فتكون تل ترابى ضخم، والتقط ثلاثة أحجار ليعمل موقدا لإعداد الطعام، فأصبحت الأحجار ثلاثة جبال شاهقة.

وواصل كوا فو مسعاه مثابرا على ملاحقة الشمس، وزادت ثقته مع الاقتراب منها، ولحق بها أخيرا، وشعر بسعادة لا توصف وهو يمد ذراعيه ليحضن الشمس لكنها فى منتهى الحرارة، وشعر كوا فو بالعطش والتعب وجرى إلى النهر الأصفر وشرب كل مياهه، وجرى إلى نهر وى كه وشرب كل مياهه لكنه ظل عطشان، وجرى نحو الشمال إلى البحيرات الواسعة، لكنه مات فى الطريق.

وكان كوا فو يشعر بأسف بالغ على فراش الموت، وهو قلق على أفراد قبيلته، لذلك رمى عصاه الخشبية، وفجأة، نبتت أشجار الخوخ فى مكان سقوط العصا، وكانت تلك الأشجار نضرة طول السنة تشكل ظلالا للمسافرين وتخفف عطشهم.

تجسد قصة ملاحقة كوآ فو للشمس إرادة الشعب الصينى فى التاريخ القديم فى التغلب على الجفاف، وظلت روح كوا فو تعيش إلى الآن بين البشر المحبين للخير والعطاء.

■ ■ ■

جلد البقرة

كان هناك شاب فقير يعمل راعيا سعيدا فى حياته. ولا يملك إلا بقرة كبيرة السن ومحراثا. وكل يوم كان يعمل فى الحقل ويعد طعامه ويغسل ملابسه بنفسه. وكانت حياته صعبة جدا. لكن فى يوم من الأيام حدث أمر عجيب. فبعد عودة الراعى إلى المنزل. وجد منزله نظيفا جدا، وملابسه مغسولة وطعامه معدا بشكل جيد وساخنًا على المائدة. فتعجب كثيرا وتساءل مع نفسه، هل نزل ملاك من السماء؟

واستمرت هذه الحالة عدة أيام. وقرر الراعى أن يستكشف حقيقة الأمر. وفى يوم من الأيام خرج من المنزل صباحا كالمعتاد، لكنه لم يذهب إلى الحقل، بل اختفى فى مكان قريب من المنزل.

وبعد قليل، جاءت فتاة جميلة، ودخلت منزله، وسارعت فى تنظيف المنزل وإعداد الأطعمة، لكن الراعى باغتها وسألها: «لماذا كل هذه المساعدة؟» وفوجئت الفتاة وقالت بخجل: «اسمى جى نيوى «النساجة»، عرفت أن حياتك صعبة. لذلك أتيت لمساعدتك». وفرح الراعى الشاب كثيرا. وقال بشجاعة: «إذن، تزوجينى . لنعمل ونعيش معا». ووافقت النساجة. وتزوجا، وكل يوم يخرج الراعى ليعمل فى الحقول، وتبقى النساجة فى البيت تنسج الأقمشة وتعد الأطعمة. وكانت حياتهما سعيدة جدا.

وبعد سنوات أنجبت النساجة ولدًا وبنتًا، وعاشت الأسرة بمنتهى السعادة.

وفى يوم من الأيام، غطت سحب سوداء كثيفة السماء فجأة، وهبت عواصف شديدة، وجاء شخصان من القصر السماوى وأخذا النساجة إلى السماء.

وكان الراعى حزينا جدا لمفارقة زوجته بهذه الطريقة، وقرر أن يعيدها لتجتمع العائلة من جديد، لكن كيف يصعد الإنسان العادى إلى السماء؟

حينئذ، تدخلت البقرة الكبيرة السن التى تعيش مع الراعى وقالت له:« اذبحنى، واعمل من جلدى أجنحة، وبهذا يمكنك أن تطير إلى القصر السماوى للبحث عن زوجتك». ورفض الراعى هذا طبعا، لكن البقرة أصرت على ذلك، ولم تترك له أى خيار، فاضطر الراعى إلى أن يفعل كما قالت البقرة.

ولبس الراعى جلد البقرة وحمل طفليه بسلتين مربوطتين بحبلين وعصا على كتفه وطار إلى السماء بحثا عن زوجته الغالية فى القصر السماوى، لكن لم يأبه به أحد، ورفض إمبراطور القصر السماوى لقاء الراعى بزوجته.

لكن الراعى وطفليه ناشدوه عدة مرات. ووافق الإمبراطور السماوى أخيرا أن تجتمع العائلة لوقت قصير، ومر الوقت بسرعة. وأمر الإمبراطور بأخذ النساجة من جديد، وتعقبها الراعى الحزين مع طفليه. وكاد أن يحلق بها، لكن قرينة الإمبراطور القاسية رسمت خيطا بدبوس الشعر لتفرق بينهما وأصبح الخيط نهر المجرة العريض، ومنذ ذلك اليوم فصاعدا، لم يستطع الراعى والنساجة سوى الوقوف على جانبى نهر المجرة والتطلع لبعضهما البعض من بعيد، ويجتمعان مرة واحدة فى السنة فى اليوم السابع من الشهر السابع بالتقويم القمرى الصينى. وفى ذلك اليوم، تطير عشرات الآلاف من طيور العقعق إليهما لتبنى جسرًا طويلا على نهرالمجرة لمساعدة الزوجين الحبيبين على اللقاء.

■■■

قصة ثقب الخشب

كان الإنسان البدائي لا يعرف النار ولا يعرف استخدامها، وكان الظلام يلف كل شيء في الليل.

وتقول الأسطورة إن إلها كبيرا اسمه فوشي شعر بالحزن الشديد برؤية الناس على الأرض يعيشون بصعوبة، وقرر تعريفهم باستخدام النار، لذلك أبرقت الدنيا وأرعدت حيث سقط الرعد على الأشجار وأشعل النار فيها وامتدت النار لمسافة كبيرة. وكان الناس يشعرون بخوف شديد، لكن شابا شجاعا اقترب من النار، وشعر بالدفء، وقال للآخرين بسعادة: اقتربوا! إن النار غيرمخيفة. إنها دافئة ومنيرة!

حينئذ، وجد الآخرون حيوانات برية مشوية، فتجمعوا بجانب النار وتمتعوا بلحوم الحيوانات البرية المشوية حيث أدركوا أهمية النار، فجمعوا الأغصان للحفاظ على توقد النار، لكن النار خمدت بسبب إهمال الشخص المناوب، وعانى الناس من جديد من الظلام والبرد.

وتضيف الأسطورة أن الإله فو شي شاهد كل هذا وتراءى للشاب الذي وجد أهمية النار في الحلم وقال له: «هناك دولة سويه مينغ في أقصى الغرب توجد فيها شعلات النار، يمكنك الذهاب إلى هناك للحصول على الشعلات»، واستيقظ الشاب وقرر الذهاب إلى دولة سويه مينغ للبحث عن النار.

وصل الشاب إلى دولة سويه مينغ بعد التغلب على صعوبات كثيرة، لكنه لم يجد شمسا، ولا ليلا ولا نهارا، ووجد الظلام يلف كل مكان، ولا توجد نار على الإطلاق. وشعر الشاب بخيبة الأمل واستراح جالسا تحت شجرة تدعى «سوى مو»، وفجأة رأى عدة عصافير تنقر الشجرة بحثا عن طعام وخلال نقرها كانت

شرارات تتطاير من الجذع الصلب، لذلك، أسرع الشاب إلى جمع بعض الأغصان الحادة وأخذ يحاول ثقب جذع الشجرة كما فعلت العصافير. لم يتطاير الشرار فى البداية لكن الشاب واصل عمله مثابرا إلى أن ظهرت النار أخيرا، ونزلت دموع السعادة من عينى الشاب.

وعاد الشاب إلى مسقط رأسه بالنار التى لن تخمد، عاد بوسيلة إشعال النار بثقب الخشب، وشكر الناس كثيرا وجعلوه زعيما لهم وأطلقوا عليه اسم «سويرن» يعنى «مشعل النار».

أما تشانغ أيه فظلت تعيش وحدها فى القمر الهادئ واللطيف حتى اليوم. وتشتاق إلى زوجها وحياتهما السعيدة بين حين وآخر. خاصة فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن القمرى حيث يصبح القمر بدرًا جميلاً.

الإمبراطوران ياو وشون يتنازلان عن العرش خلال التاريخ الإقطاعى الطويل فى الصين، حيث كان الابن يرث عرش أبيه الملك.

لكن وراثة العرش بين الأباطرة الثلاثة الأوائل فى الأساطير الصينية «ياو» و«شون» و«يوى» لم تكن هكذا، بل كانت الجماهير تختار من يتمتع بالأخلاق والكفاءة لاعتلاء العرش.

تقول الأسطورة إن ياو كان أول إمبراطور فى الصين يجمع زعماء مختلف القبائل لمناقشة مسألة وراثة العرش بعد أن تقدم به العمر.

وقال أحد الحاضرين له: «أعتقد أن ابنك دان تشو مناسب لوراثة عرشك لأنه عاق». ولكن ياو رفض هذا الترشيح قائلا: «لا ، ابنى غير مؤدب وهو مشاكس».

وبعد ذلك، رشح عدد من زعماء القبائل شابا يدعى «شون» لاعتلاء العرش، ووافق ياو قائلا: «نعم. سمعت أن هذا الشاب طيب وممتاز». ولاحظ ياو تصرفات شون عبر طرق مختلفة وفى الأخير تأكد من أنه مؤدب وكفء فقرر ترك العرش له

وظل شون مجتهدا وعاش حياة بسيطة عادية بعد اعتلاء العرش ويعمل مثل الآخرين مما أكسبه ثقة الجماهير. وبعد عدة سنوات، توفى ياو، وقرر شون ترك العرش لابن ياو «دان تشو» لكن الجماهير رفضت. وعندما كبر شون، اختار «يوى» خليفة له عبر نفس الأسلوب.

وفى عهود «ياو وشون ويوى» اطمأن الناس على حالهم بدون خوف من الصراع على العرش، وعاش الأباطرة حياة بسيطة وجميلة بين رعاياهم.

■ ■ ■

السلاحف الخمسة عشر

أسطورة تتحدث عن الدنيا فى قديم الزمان وتقول إن الناس كانوا يعيشون سلاما عندما خلقت الإله «نيوى وا» .. سلف الإنسان المخلوقات. وفى يوم من الأيام انشقت السماء والأرض، وانبثق لهب شديد من جوف الأرض وأحرق الغابات، وتدفق الفيضانات وجرفت الجبال، واستبدت الأشباح والشياطين والوحوش وعانى البشر من وضع مأساوى جدا.

وسمعت الإلهة «نيوى وا» دعاء البشر فقتلت الأشباح والشياطين والوحوش وهدأت الفيضانات. وبعد ذلك بدأت مشروعا عظيما.. ترقيع السماء.

فجمعت قصبا كثيرا وراكمته حتى علا نحو السماء، وبعد ذلك بدأت تبحث عن الأحجار الزرقاء التى يشبه لونها لون السماء، لكنها لم تجد أحجارًا زرقاء كافية على الأرض، فاضطرت إلى جمع الأحجار البيضاء والصفراء والحمراء والسوداء ووضعتها فوق القصب وأشعلته لصهر الأحجار وملأت الأحجار المنصهرة شق السماء.

وغضب إمبراطور السماء غضبًا شديدا بعد معرفته بهذا الحادث، وصب جام غضبه على أبناء بلد العمالقة لونغ بوه فقصر قاماتهم حتى لا يثيروا مشاكل أخرى. وظلت الجبال الثلاثة الأخرى آمنة ومستقرة على بحر الصين الشرقى بفضل السلاحف.

وفى شرق بحر بوهاى هاوية لا قاع لها تدعى «قوى شيوى» «هاوية العودة»، وفى هاوية قوى شيوى خمسة جبال سحرية وهى «داى يوى» و «يوان تشياو» و «فانغ هو» و «يينغ تشو» و «بنغ لاى»، ويبلغ ارتفاع كل جبل ثلاثين ألف لى وتصل المسافة بين جبل وآخر إلى سبعين ألف لى، وعلى هذه الجبال قصور ذهبية

يسكنها آلهة كثيرون.

وتضيف الأسطورة أن جميع الطيور والحيوانات على هذه الجبال السحرية بيضاء، وتنمو عليها العديد من الأشجار العجيبة ذات الثمار المشابهة للأحجار الكريمة واللآلئ، وإذا أكلها الناس العاديون، عاشوا إلى الأبد.

ويلبس الآلهة ملابس بيضاء خالصة، ولكل منهم جناحان صغيران فيمكنهم الطيران بحرية فوق البحر الواسع وتحت السماء الزرقاء مثل الطيور، كما يمكنهم زيارة الأقارب والأصدقاء بين هذه الجبال الخمسة. وكانت حياتهم سعيدة جدا.

لكن هناك مشكلة صغيرة، هى أن هذه الجبال السحرية تعوم على سطح البحر، وليس لها جذور، وسبب عدم الاستقرار هذا صعوبات لحياة الآلهة، فذهبوا إلى إمبراطور السماء ليشكوا من هذه المشكلة، وأمر إمبراطور السماء إله البحر «يوه تشيانغ» بإرسال ١٥ سلحفاة كبيرة لحمل الجبال السحرية الخمسة، وبهذا، استقرت هذه الجبال، وعادت الحياة السعيدة إلى الآلهة.

لكن فى عام من الأعوام، جاء عملاق من بلد العمالقة «بلد لونغ بوه» إلى هاوية «قوى شيوى» لصيد الأسماك، لكنه صاد ست سلاحف من البحر، وأخذها معه، لهذا ابتعد جبلا «داى يوى» و«يوان تشياو» إلى القطب الشمالى وغرقا فى البحر، فاضطر الآلهة الذين كانوا يسكنون على هذين الجبلين إلى نقل منازلهم.

ورغم نجاحها فى سد الفجوة السماوية لكن السماء لم تعد مثلما كانت عليه، حيث مالت نحو الشمال الغربى فذهبت الشمس والقمر إلى هناك تلقائيا، وانهار جنوب شرق الأرض حتى تشكلت حفرة كبيرة، لذلك جرت مياه الأنهار والجداول إلى جنوب شرق الأرض، وتشكل محيط هناك.

■ ■ ■

الماكر اللئيم

اصطاد ثعبان دراجا أعرج واستعد لالتهامه. لكن ثعلبا سرقه منه بحركة سريعة بارعة، ولم يترك له فرصة لاستعادته.

قال الثعبان:

- أنا من اصطاد هذا الديك البرى فمن حقى أن أتمتع بأكله.

رد عليه الثعلب:

- سيكون من نصيبى يا ثعبان. فمنذ شهر، أوقفته وعضضته من إحدى قائمتيه. انظر مليًا، أليس هذا الدراج أعرج؟

أمام هذه الحجة الدامغة ترك الثعبان الدراج للثعلب.

واستعد الثعلب لالتهام الدراج لكن ذئبا انقض على الفريسة وفتكها منه. فلم يستسلم الثعلب بسهولة، وصار يحاجج الذئب:

- إنه دراجى يا ذئب. أنا من اصطاده، فهو ملكى ومن حقى التهامه. فلماذا تسطو على رزق غيرك أيها الظالم الغشوم؟

رد الذئب مبتسما:

- هذا لن يكون أبدا يا ثعلبى العزيز. ولتعلم أننى اصطدت هذا الدراج منذ ستة شهور لكننى لم آكل هذا الطائر البرى لأنه كان هزيلا. فربطته فى كهف وجعلت أسمنه. ومع حرصى الشديد، غافلنى ابن الدراجة الملعونة وفر بجلده.. انظر مليا، ألا ترى ذيله المنتوف يا ثعلب؟

كان الثعلب يعرف أن ما قاله الذئب كذب فى كذب، وأن مقولته لا أساس لها من الصحة مثلها مثل تأكيداته هو للثعبان. ولكن ما حيلته أمام حجج الذئب

الدامغة. فتخلى له عن الدراج.

فى تلك اللحظات، وصل نمر بغتة. انقض على الدراج وفتكه من بين أنياب الذئب الذى صاح محتجا:

- اترك لى دراجى أيها النمر، فأنا من اصطاده. إنه رزقى الحلال يا سيد الغابة.

فرد النمر على افتراءات الذئب:

- هذا غير صحيح يا حبيبى؛ لأن هذا الدراج ملكى الخاص. لقد حجزت هذا الطائر منذ سنة. والله لأقطعن اليد التى تمتد نحو ريشة من ريشه.

فارتفع لغط الذئب والثعلب والثعبان:

- هذا كذب بائن يا نمر، فعمر هذا الدراج أقل من سنة.. هات حجة أخرى إن كنت من الصادقين.

فقال لهم النمر هادئا مطمئنا:

- كلامكم سليم يا أحبابى، ولكن لتعلموا أننى اصطدت منذ سنة دراجة عرجاء وبلا ذيل، فاستعطفتنى هذه الدجاجة المسكينة وطلبت منى أن أطلق سراحها. ووعدتنى بأن تهبنى كل فراخها مقابل عفوى وكرمى.

كان الثعلب على علم بموعد عيد ميلاد النمر، فاشترى لهذه المناسبة ربطتى كرنب هائلتين واستودعهما لدى العنزة وطلب منها أن توصل الهدية مصحوبة برسالة إلى الكاسر الرهيب.

«بما أن النمر حيوان لاحم لا يأكل الخضراوات، فإن حزمتى الكرنب ستكونان من نصيبى لا محالة».

هكذا حدثت العنزة نفسها وهى تحث السير إلى أن وصلت عرين النمر، فقدمت له الهدية.

قبل النمر الهدية شاكرًا، ثم انفجر ضاحكا بعد أن قرأ الرسالة:

- يا لهذا الثعلب النزق! هل نسى أننى لا آكل الخضر. هما لك أيتها العنزة فكلى الكرنب هنيئًا مريئًا.

أعجبت العنزة بكرم النمر، فشكرته وانهمكت فى تذوق الخضر إلى أن أنهت الوليمة. فهمت بمغادرة المكان. لكن - يا للمفاجأة - لقد وجدت الباب موصدًا فى وجهها وسمعت قهقهات النمر:

- لقد أسرَّ لى الثعلب بأنك هدية عيد ميلادى. فبماذا سأتغدى فى يوم فرحتى إذا ذهبت الآن؟

وقفز على العنزة فاتحا شدقين واسعين عض بهما العنزة من العنق.

إن الحيلة فى ترك الحيل. ومحتال واحد يقابله محتال ونصف.

وربح صغير قد يخبئ وراءه خسارة فادحة تكون عاقبتها وخيمة.

■ ■ ■

الطائر «زو»

الأسطورة:

هذه الأسطورة من الأساطير التى دونت على خاتم أسطوانى مع رسوم للطائر زو، وهو من آلهة العالم السفلى المدمرة، وعدوة إلهة السماء العلوية.

وتروى الأسطورة كيف أن الطائر زو قد قام بسرقة ألواح الأقدار التى تعطى إلى الإلهة أنليل السيطرة والقوة الخارقة، وقد كان ذلك بسبب الإحجام والإمساك بمصائر الناس وتدعيم ملكه، إلى جانب السيطرة على السلطة والعرش من إنليل.

انتظر الطائر إلى أن أشرق النهار وطلعت الشمس، وانشغال الإلهة إنليل بالاستحمام، فيدخل قاعة الملك فى الخفاء ودون أن تراه عين بشر أو ملك أو إله، ويقوم بسرقة التاج والصولجان ويسرق معهما ألواح الأقدار. عندئذ يفاجأ إنليل بتلك السرقة، وعلى الفور يستدعى أبناءه الآلهة ويطلب من ابنه «كواكا» و «لووان» أن يصارع الإلهة زو التى أصبحت سارقة فى عرف قوانين السماء، إلا أنهما كانا من بين الأبناء اللذين رفضا طلب الأب وقد قدما اعتذارهما لعدم قدرتهما على مواجهة زو الذى طار إلى أعالى الجبال.

فيلجأ الأب إلى ابنه الإله الصغير «صاصاوا»، الذى تخفى فى زى وهيئة جنى جميل يلعب بالأسحار التى كان قد تعلمها من معلمه «بانا واوا» ثم ذاعت شهرته خلال عامين فعرف زو أن هناك ساحرًا خارقًا للحياة وهو الوحيد الذى هزم الكثيرين فأرسلت إليه، ولما رأته طلبت منه إحضار خاتمها الخاص من إحدى غرف القصر، وهو أمامها الآن، وعلى الفور وفى لمح البصر كان الخاتم فى إصبع يديها، فتعجبت من قدرته وجلس معها يحدثها عن مغامراته وما حدث

له فى تلك البلاد وذلك العالم العجيب، ومن هنا وقف زو وقالت له: ألست من عالمنا يا خذا؟!!

رد عليها شاهرا عصا العالم العلوى حيث الموت الأبدى. فأخذها معه لأبيه، وأمامه قام بذبحها. وأمر إخوته أن يسحقوا جمجمة زو الذى أهانهم جميعًا وعلى هذا عاد الصولجان وعادت ألواح الأقدار.

التى جاء فيها ما يلى:

" لقد شهدت عيناه ذلك الطائر

وسر سيطرة إنليل وقوته.

رأى تاج ملكه ورداء الألوهية المقدس

وألواح الأقدار تملأها مرارًا

وكيف حدثتها نفسها سرقة الألواح؟

ومصائر العالم ومسالك الأقدار للأحياء؟

انتظر طلوع النهار وهو عالق على باب إنليل

وعندما خرج ليستحم فى الماء الصافى

خلع تاجه وتركه على العرش ومعها ألواح الأقدار

فسرق كل ذلك، السلطة والعرش والسيادة

ثم طار بها جميعًا، واختفى بين جباله

حيث ساد الوجوم وعم على الكون الصمت.

وعندما خرج الإله من الماء شلت حركته

لأن الحرم المقدس قد تم سرقته، وضاعت هيبته

جمع الإله الأكبر أولاده للمشاورة

وهنا فتح أنو فمه وكلم أولاده الآلهة:

"ليقم ذلك الإله ليصرع زو

وليأتينى بروحه إلى العالم المعمور فى السماء".

فدعوا باسم الأمير "كواكا"

لما تكلم الآمر الناهى:

"كواكا"،أيها المنتصر المغوار، ليكن انقضاضك حاسمًا

وبسلاحك فلترسل البرق يصرع زو

فيصير اسمك عاليًا فى مجمع الآلهة العظماء

فأنت لا نظير لك بين إخوتك الكرام

وسأبنى لك معبدًا كلها مشيدة بالأزيان

ولك فى جهات الأرض الأربعة هياكل لعبادتك

فتصير جليلاً يعلو اسمك.

فرد قائلاً:" أى أبت، من يستطيع الاقتراب من تلك الجبال الرهيبة؟!!

وهنا طلب منه الأب أن لا يذهب

فأرسلوا الى ابنه «لووان»

فتكلم الآمر الناهى:

«لووان، أيها المنتصر المغوار، ليكن انقضاضك حاسمًا

وبسلاحك فلترسل الرعد يصرع زو

فيصير اسمك عاليًا فى مجمع الآلهة العظماء

فرد قائلاً: «أى أبتى، من يستطيع الاقتراب من تلك الجبال الرهيبة؟!!

فقال لنفسه متحيرًا: وهل بين الآلهة أبنائى مثيل زو؟! فصاح الصوت صارخًا أنا لها يا أبتى..

فعهد إليه وبعد عامين دخل عليهم بروح زو وجمجمتها

وهكذا اعتلى الإله الأصغر بمكره ودهائه العرش.

وأمر إخوته بتحطيم جمجمة زو.

«فوشى» يعلم الناس

تتضمن الأساطير القديمة أساطير الملوك العشرة، الآلهة التى وجهت الناس فيما قبل تأريخ حرب ماء.

وكانت أنصاف الآلهة، والتى كانت نصف إليه ونصف إنسان، والذين قد عاشوا بين الناس وعملوهم قواعد الحضارة.

كما كان يمكنهم أن يتغيروا إلى أشكال الحيوانات أو يبقوا فى شكل نصف الإله، أو فى الحالة نصف الحيوانية، وفى النهاية، يذهبون إلى السماوات عندما يكون وقتهم قد انتهى على الأرض.

«فوشى» كان الحاكم الأول لهذه الفترة السحرية، والكثير من العلماء يعتقدون بأن قصته مستندة على قصة الملك الذى عاش فى وقت ما بين ٢٧٣٦-٢٩٥٣ قبل الميلاد.

على أية حال، سواء كانت مستندة على شخص حقيقى أو غير حقيقى، فأنفوشى كان رمزًا محبوبًا فى علم الأساطير، وهو الذى علم مهارات البقاء والمعيشة مبكرًا إلى البشر.

وهذه المهارات تتضمن استعمال النار، وصيد السمك، والصيد، والكتابة، وقراءة البخت، وفى بعض القصص، وصف بامتلاكه جسم إنسان وفى قصص أخرى، كان عنده رأس إنسان وجسم الأفعى، وفى العديد من القصص كان زوج «نواه»، وهما سوية كانا حاملى الحضارة.

وفى القصة، يقدم «فوشى»، نظام القرعة الذى وجد قديما وهو عبارة عن الأعواد القصيرة والطويلة. وكان الناس يرمونها إلى أسفل وهى عبارة عن ستة أعواد وبعد ذلك يقومون بترجمة الشكل الذى تكونه هذه الأعواد. وفى البداية، كانت تفسيرات هذه الأعواد يعبر عنها بشكل شفهى، ثم كانت تكتب أخيرًا بعد قرون بين «١٠٥٩-٢٤٩ ق.م» . أما اليوم، فهى معروفة ب «إى جنح» أو كتاب التغييرات. وحتى فى الأوقات القديمة، فإن هذا الكتاب اعتبر مهمًا جدًا بحيث كان أحد بضعة النصوص الصينية التى أنقذت فى احتراق الكتب الشهير فى عام ٢١٣ ق.م. والكثير من الناس ما زالوا يقرؤون هذا الكتاب لكشف فلسفته، وحتى يستفيدوا من نبوءاته.

وفى علم الأساطير، «فوشى» كان له السبق فى تقديم الكتابة، واخترع نظام الربط والعقد. وعلى أية حال، هذا الاختراع كان أيضًا نسب إلى «تسانج جيه» مراقب القصر القياسى الذى عاش فى حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد. والبعض من الكتابة الصينية القديمة شملت الخطوط البسيطة ورموز الصور الذى يمكن أن يكون قد تم خدشها بسهولة فى الأحجار، أو على ظهر سلحفاة، أو على عظام الحيوانات. فى عام ١٦٠٠قبل الميلاد. وكان نظام الكتابة قد تقدم تمامًا، ورموزه وجدت على السفن البرونزية العديدة فى تلك الفترة. وأثناء سلالة «الكين» فى الفترة ما بين «٢٢١-٢٠٦» قبل الميلاد. وقد أصبحت الكتابة الصينية منظمة ومتطورة، والعديد من رموز ذلك العصر تشبه مباشرة الكتابة الصينية التى تستعمل اليوم.

راقب «فوشى» البشر وهو يتعثر فيما حوله. حيث إن هؤلاء الناس ما كان عندهم السلطات الخارقة للآلهة، من قوة النمور، أو سرعة النمور. كما أنهم لم يكن لهم الدرع الوقائية للسلاحف، أو جلد جواميس ماء، أو الفراء السميك للثعالب؛ بل كان الناس عندهم جلد رقيق، ولحم ناعم، وشعر متناثر، وعندهم قلوب طيبة وكانوا يتنقلون ببطء، وهم فى ضحك مبتهج، لكنهم كانوا يخافون.

لذا قرر «فوشى» مساعدة البشر الجديد.

ولذلك علم «فوشى» الناس أولا كيف يلفون ألياف النبات سوية لتشكيل حبال عريضة وطويلة؛ ثم الحبال الأنحف. التى صنعوا منها نسيج الخيوط وشبكات صيد السمك. وبذلك يمكن للناس أن يهبطوا إلى أعماق الماء لإيجاد الغذاء بالحبال. كما تعلموا ضفر جسور قوية. ثم وترها عبر هوة عالية؛ لذا يمكن للناس أن يعبروا من قمة جبل إلى أخرى بحثا عن الغذاء.

وعندما كان البرق يشعل النار فى الأشجار. فى أغلب الأحيان. كان الناس يرتعدون ويختفون فى الكهوف. ولإغراء الناس للخروج. حك «فوشى» عودين سوية حتى أصبح فى بدايتهما نار. وعلم البشر كيف يطبخون اللحم والسمك من خلال النار، والذى كان سهل الهضم، وأكثر لذة من اللحم الخام والسمك النيئ.. وبعد ذلك اكتشفوا أن النار يمكن أن تبقيهم أيضًا فى أمان وراحة فى الليالى الباردة، حيث خافت الحيوانات الشرسة من النيران، والحشرات خافت من لسعها وتفادت دخانها.

وفى الربيع، شكل«فوشى» فروعا صغيرة ووضعها على فتحة النار، ثم جفف أعوادا محدودة حتى شكلت أعمدة كالسهام، ثم غطى بها النار.

ووجه «فوشى» الناس إلى أن يخدعوا ويطاردوا الأيل، والخنزير البرى، والطيور المهاجرة. كما وجههم إلى تجميع الفطريات فى الغابات،والأعشاب البرية فى السهول، وعلى طول الجداول المائية.

وعلمهم كيف يصطادون الخراف، والعنزات، والأوز، والبط، بالخديعة، عن طريق توجيه الحيوانات إلى مكان العشب وتخويفها بالنار وصيدها. كما حذر «فوشى» الناس فقط لأخذ ما يحتاجون ولا يجب أبدًا أن يهدروا الغذاء أو يقتلوا الحيوانات بشكل عشوائى ودون جدوى. ولمتابعة الغذاء طوروا وتبادلوا ربط عقد مبهرجة شكلت مثل الفراشات، والزهور، والماس. لكنهم نسوا فى أغلب الأحيان ماذا كانت تعنى كل عقدة..؟ ثم تجادلوا وتقاتلوا فيما بينهم على تلك العقد؛ لأنه لا يعرف كل منهم عقدته، لذا اخترعوا نظام الكتابة بخدش الصور الصغيرة والأرقام على العظام، كل صورة كانت تعنى كلمة. كما نسخ الناس الأشكال

المقوسة للكلمات على ظهر السلحفاة، والخيزران، وعلى العظام الحيوانية لتذكير أنفسهم بديونهم.

وكانت لديهم مشكلة. فهم لا يعرفون أى طريق يأخذوا، وأى طريق يسلكوه، ولذلك علمهم «فوشى» كيف يستشيرون الوحى وذلك كما يلى: أولاً، يأخذون صدفة سلحفاة ثم يطبعون حافات أو آثار أرجالها على الطين. ثم على كل حافة، يسحبون ثلاثة من الخطوط، وعلى الحافة، يسحب «فوشى» ثلاثة خطوط مستقيمة وهى تمثل السماء.

ثم يعلم «فوشى» الناس أنه على الحافة المعاكسة، يسحبون ثلاثة خطوط مقطوعة وهى التى تمثل الأرض.

أما الماء فكان يعبر عنه بخط متوسط صلب واحد بين اثنين مكسورين من الخطوط؛ أما النار، فكان نظيرها، خط متوسط مكسور واحد بين خطين صلبين.

أما الخط المقطوع تحت خطين صلبين فكان يشير إلى الريح والخشب؛ والخط الصلب الواحد تحت خطين مقطوعين أشار إلى العاصفة والرعد.

وكانتا علامتان مكسورتان تحت خط صلب، كان يشير إلى الجبل؛ والعلامتان الصلبتان تحت خط مقطوع كان رمزا إلى.

ثم علم «فوشى» الناس كيفية استعمال هذه العلامات. وذلك عندما وجد النبات ذات الألف ورقة وانتزع أوراقه الريشية وزهوره الصفراء الصغيرة جداً، لكن أبقى فقط على القصبات المستقيمة. ثم كسرها إلى قطع قصيرة وقطع طويلة. ومزجها مع بعضها ورمى القطع على الأرضية ست مرات، ثم أخذ يرتبها فى صفوف. فكان القصار منها تعنى الخطوط المقطوعة؛ والقطع الطويلة كانت تعنى الخطوط الصلبة. وعلم «فوشى» الناس كيف يترجمون معنى الأعواد والخطوط وما تشير إليه.

وفى كل مرة كان «فوشى» يجمع فيها القصبات ويطرح قصبات جديدة من النبات ذات الألف ورقة مرارًا وتكرارًا. تظهر أعواد طويلة، وعلى شبه واحد

ومكونة من اثنين دائمًا، مثل الأرض والسماء. أو الماء والنار. أو الريح والرعد، أو البحيرة والجبل.

وفى كل وقت، كان «فوشى» يعلم الناس معنى هذه الأنماط. فكانت بعض الأنماط قد تعنى أن الناس كانوا آمنين. والأنماط الأخرى قد يحذرهم من خطر ما. وبعض الأنماط نصحتهم البقاء فى مكانهم. والآخرون نصحوهم بالتحرك من مكانهم. والبعض منها حثهم لمهاجمة العدو. والبعض حثهم على الانسحاب من المعركة. وبقراءة هذه الأنماط والأعواد. يمكن للناس أن يفتحوا ثرواتهم وصناعاتهم وأن يجربوا الاختيارات حول أعمالهم.

والناس أبهجوا وكانوا سعداء بمعرفتهم هذه الأنماط. وبدوا جاهزين لتأهيل الأرض. لكن «فوشى» عرف ما هو أفضل. وأدرك تطبيق ذلك فى إيجاد الغذاء، وصنع الأدوات، وصيدالحيوانات. كما استمر فى تسجيل ذلك فى سجلات.

وقد جعل «فوشى» الاختيارات غير كافية، لأنه قلق بأن الناس سيصبحون متبجحين وأنانيين، ولكن «فوشى» أرادهم أن يبقوا متواضعين، يتعلمون من ماضيهم، لتذكر نجاحاتهم وحالات الفشل بإخبار القصص عمن قبلهم ولمن بعدهم.

ولقد اهتم الناس بالأقواس الجميلة التى كانت تبهج النظر. كما كان يمكنهم أن يقلدوا صوت الريح وينفخوا مثل الأشجار، وكانوا يقلدون صوت الماء المتدفق على الصخور، وحوافر الخيول فى المعركة. كما علم «فوشى» الناس كيف يستعملون هذا العود لإخبار الناس القصص التى لا تنسى.. ولمساعدة الناس، ولمس قلوبهم، أعطاهم هديته الأخيرة. وهى هدية الموسيقى. حيث علم «فوشى» الناس كيف يصنعون عودا صينيا. وملاحظة اللحن الذى كانوا مسرورين لسماعه!

وفى كل الوقت كان الناس يصنعون لحنًا باستخدام الخيوط. يبقى هذا اللحن فى عواطفهم النائمة والصامتة. وكانت الأفكار تتدفق فى قلوبهم وعقولهم. وتملأ أجسام الناس بالبهجة والهدوء. وعندما انتهى وقت «فوشى» على الأرض، عندئذ ودع الناس وتمنى السلامة لشعبه وصعد إلى السماوات، كما تمنى أن يتشاركوا بحكمتهم مع بعضهم البعض، وأن يواصلوا العيش فى سلام.

القــرد

فى القرن الأول بعد الميلاد. دعت فلسفة «التيزوم» التى كان مسيطرة على الفكر الصينى. وكانت مستندة على «ديه جنج» وهى مجموعة من الأشعار عددها واحد وثمانون مكتوبة من قبل الفيلسوف «لاو» والذى كان قد ترجمها وعرفها بعدة طرق. وقد تناول فيها قوة الحياة المبدعة الطبيعية للكون. هو يتكلم عن عدم التدخل أيضًا. فى معية المخلوقات.

ومن هذه الفلسفة. نما بشكل تدريجى الفكر الدينى. وبنيت المعابد. وأعطوا الرهبان مهمة الإشراف على أماكن العبادة. وقد حكمت السماء من قبل حاكم. وهو الإمبراطور، الذى سوعد بثمانين إلها.

وعلى نفس النمط. حكمت الجحيم أيضاً من قبل إمبراطور. والذى كان يقوم بالإشراف على وظائف مضيفى الشياطين. وهؤلاء «التيوزميين» أصبحوا مسحورين بالخلود، والكيمياء، والقوى السحرية مثل الطيران والتحول «من شكل إلى آخر» وبعد خمسة عشر قرنا، كان هناك مسئول حكومى سمى «ووه تشنج» كتب راوية شعبية سميت «رحلة إلى الغرب». وتعيد الأسطورة التالية رواية الجزء الأول من رواية هذا المسئول. وتعرض لنا الشخص الأكثر شهرة فى الفولكلور الصينى، وهو الملك القرد.

وتعرض سلطات الملك القرد. والذى كان يوصف بأنه الطماع والوقح والمتكبر، لكن خدع القرد السحرية والشخصية تجعله شخصا محبوبا.

نص الأسطورة:

على جبل الفاكهة والزهور، كانت توجد صخرة سحرية أنجبت بيضا من الحجارة. ومن بيض الحجارة ظهر القرد الذى كانت مهمته الأولى أن يقفز

وينحنى لأربعة اتجاهات. وكانت عيونه قد أومضت مثل البرق، وأسنانه أضاءت مثل النجوم فى الليل. وقد لعب بالقرود الأخرى وبالذئاب، والنمور، والأيل، وقد كانت لديه شهية هائلة وفى أغلب الأحيان كان يلتهم سهم الحيوانات الأخرى من العشب، والأوراق، والتوت، والفاكهة.

ولكن، شخصيته البهيجة وطبيعته الفضولية كانت تجعله الحيوان الأكثر شعبية على الجبل.

وفى ذات يوم، قفز القرد خلال مياه الشلال المتعاقب واكتشف خلفه كهفا أسس بطاسات من الحجارة، وكان ممتلئا بالكؤوس، والكراسى. وكان مسرورا جدا بهذا الكهف، ولذلك دعا القرد كل القرود الأخرى للمجىء لرؤية الطرافات التى وجدها، وعندما وصل الآخرون أمسكت القرود بالأدوات التى تريحهم فى هذا الكهف، وأعلنوا أن هذا القرد هو الملك. وفى وسط السحالب البرية ونمو الأعشاب العطرى فى الجبال، عاشت القرود فى السعادة المثالية فى هذا الكهف لقرون.

وذات يوم، أصبح الملك القرد باكيًا. وأدرك بأنه قريبًا قد يأخذه ملك الموت وكرد فعل على خوفه، سرق بعض الملابس والصنادل وخرج للبحث عن سر الخلود. وفى كل مكان كان يذهب إليه. كان يقلد إنسانًا متبعا نفس الأساليب التى يتبعها الناس، لكن الناس سخروا من بدلته الغريبة حيث كان يلبس لباسًا أحمر، وإزارًا أصفر، وحذاء أسود. ولعشر سنوات، تجول من قرية إلى قرية. أخيرًا وجد كهف الخلود.

وبعد المضايقات الكثيرة التى لقاها القرد من قبل الخالدين فى الكهف حتى يدخله، ولكنه أخيرا دخل الكهف، وقبل القرد أن يعمل كتابع لهذا الرجل المقدس داخل الكهف.

ولكى يكون من الخالدين، كان لابد على القرد أن يتعلم وأن يدرس تعليمات «التيوزميين»، وكذلك الكتابة والكلام بشكل صحيح. كما كان لابد أن يكنس أرضية الكهف، وأن يجمع حطبًا، ويجلب ماء، وأن يدير الحديقة وبعد فترة

قصيرة. تعلم القرد العديد من خدع الخالدين. والآن هو يمكنه أن يحول نفسه إلى الأشجار المختلفة، وإلى اثنين وسبعين نوعا من الحيوانات، والصخور. وبعد الكثير من الإلحاح، علموه الخالدون أيضًا كيف يطير، ويرتفع على الغيوم. وعندما أتقن هذه المهارات، أحب القرد التباهى أمام التوابع الآخرين.

وفى ذات يوم، أمسكوا به الخالدون وهو يتغير إلى شجرة صنوبر. وغضبوا منه؛ لأن القرد يبذر هذا الشيء الثمين من السحر بالتباهى. ولذلك أبعده الخالدون فوراً من الكهف.

وبذلك عاد الملك القرد إلى بيته على جبل الفاكهة والزهور. وقد حيوه بشكل صاخب، وذكروا له أن هناك شيطانا كان يسرق كهفهم.

ولما أمسكوا بهذا الشيطان، ثبت لهم أنه عقيم. وفى كل وقت كان الشيطان يظهر فيه، كان يمسك بضعة من أطفالهم القردة ويحتجزهم سجناء حتى يكون مستعدًا لأكلهم.

ولما سمع ذلك منهم، أصدر فورًا، الملك القرد تحديا إلى هذا الشيطان. وعندما سمع الشيطان نداءاته، ضحك على القرد. ووضع سيفه جانبًا، وقذف نفسه فى وجه هذا القرد المخلوق النحيل. وبدأ الشيطان والقرد يتقاتلان لساعات. وتعامل بعضهم مع البعض بالكثير من الضربات، والركلات السريعة. وأخيرًا، القرد تذكر إحدى الخدع التى تعلمها من الخالدين. وبسرعة، سحب مجموعة من شعر رأسه. وأخذ يقطع هذا الشعر إلى قطع صغيرة، ثم بصقها فى الهواء، وصاح «تغييرا» وحالا، قطع الشعر تحولت إلى عدة مئات من القرود الصغيرة، والتى باغتت الشيطان بصيحاتها الثاقبة.

وضربت القرود الصغيرة الشيطان حتى أوقعوه. ثم ثانية غير القرد القرود الصغيرة إلى الشعر. وحرر الأطفال المسجونين وأرجعهم إلى آبائهم.

والذين احتفلوا أيضا بعودة ملكهم.

تمتعت قرود الكهف، بالفاكهة. والنبيذ والعنب.

الزيارة إلى ملك التنين

لقد عرف القرد بأن الشيطان كان على حق عندما ضحك عليه: لأنه كان ملكا لقروده، ولكنه ما كان عنده أى ملابس أو أسلحة تجعله مستحقا لأن يكون ملكا. لذا قرر القرد أن يطير كالحمامة عبر البحر للاجتماع بالملك التنين فى البحر الشرقى. وعندماطلب منه السلاح المناسب، عرض عليه الملك التنين عمودا حديديا ثقيلا وزنه عدة أطنان. لا أحد فى البحر يمكن أن يرفعه؛ والكثير قد خاف من ضوئه الوهاج الغريب. ولما أمسك القرد بالعمود، وقرأ عليه مما علمه الخالدين، غيره إلى قضيب بحجم سلاح حديدى.

وعندئذ قام بالعديد من الدفعات، والمراوغات، وتأرجح القرد، والتصق فى الهواء بشكل شرس، ولذلك فإن السلاحف سحبت رؤوسها، واختفت فى جسمها، والسرطان البحرى، الروبيان، وجنود سرطان البحر وكل الحيوانات أسرعت خارج طريقه خوفا منه.

لكن القرد ما كان راضيًا عن العمود الحديدى الرائع؛ ولذلك طلب لباسا مناسبا من الملك التنين؛ ولذلك استدعى الملك التنين أخ التنين وأمره بضرب الأجراس والطبول. من أجل فتح الخزانات، وأمر التنينات أن تعطى للقرد زوجا من الأحذية التى صنعت من ليف اللوتس، وقبعة صنعت من عنقاء القرد ودرعا مصنوعا من الذهب الأصفر. وبدون حتى إيماءة شكر، غادر القرد. ولذلك كان الملك التنين وإخوته غاضبين من القرد سيئ الأخلاق واشتكوا إلى الآلهة فى الجنة من سلوك الملك القرد الوقح.

وعندما عاد القرد إلى كهفه فى الجبل، عرض ملابسه الجديدة. وأخذ يمشى فى هذا الطريق، ويدور حول نفسه أمام القرود. ثم سحب القرد الأدوات الحديدية. وغيرها أول إلى جسر طويل أوسع من النهر؛ ثم حاول هذا الجسر إلى برج طويل كان عاليا حتى مس الغيوم.

وأخيراً، قلص الأدوات الحديدية إلى إبر تطريز صغيرة جدًا ودسها وراء

أذنه. وابتسم ابتسامة عريضة فى تعجب وإعجاب بملابسه الرفيعة والجديدة وسلاحه. وأعلن القرد نفسه نظيرا لأى إله فى الجنة.

وحصل القرد على عمل فى الجنة، وقد كانت الآلهة فى الجنة غاضبة من القرد وقررت أسر هذا الشخص ذى السلوك الوقح.

وأقنعت الآلهة شيطانين من عالم الجريمة أن يربطا القرد، ويأخذاه أمام قضاة الأموات العشر. وصنع القرد اضطرابا، واحتج بشكل مرير على أسره.

وطلب من القضاة أن يدققوا فى سجل حسابات الموتى، الذى سجلوا فيه فترة حياة كل مخلوق على الأرض. وبينما كان يوبخ القضاة، شطب القرد اسمه بسرعة من سجل حسابات الموتى، وذلك حيث كان معه فرشاة سوداء سميكة استخدمها فى شطب اسمه.

وما كان عند شياطين عالم الجريمة اختيار لتركه. وبذلك فشلت الآلهة فى إرسال القرد إلى عالم الجريمة، ولذلك قرر الإمبراطور إبقاء العيون على القرد فى الجنة. واستدعى الملك القرد، وأعطاه عملا مستقرا معهم. وهو أن يغذى، ويسقى ألفا من خيول السماء.

وقدا اعتبر القرد أنه أهين، عندما أعطى ذلك العمل المهين، وترك الجنة، وعاد إلى كهفه فى الجبل. وعندما جاء مسئولو المحكمة السماويين إلى الكهف لجلبه، وافق القرد على الذهاب معهم وهذا لاهتمامهم به. والذى شعر به نتيجة موافقتهم على إعطائه عملا أكثر أهمية وبعد ذلك خلق القرد فوضى فى الجنة، ثم وضع الإمبراطور القرد كمسئول عن حديقة الخوخ. وكانت أزهار الفاكهة الصغير جدًا قد نضجت إلى أحلى خوخ فى الكون. وهذا الخوخ يمنح الحكمة، والأطراف القوية، والشباب الأبدى، والضوء الذى يعطى شكلاً جميلا إلى أولئك المحظوظين لأكلهم منه بما فيه الكفاية. القرد الطماع أخبر حراسه بالوقوف خارج غرفته، وبينما هم فى الخارج نزع عباءاته اللامعة وانسل إلى الحديقة حيث التهم الخوخ الناضج.

ثم التف ونام فى البستان. وكان هناك عيد عظيم استعدت له الآلهة وكان ذلك عصرًا، ولما دخلت الجنيات العذارى حديقة الخوخ لالتقاط الفاكهة. فزع فيهم القرد، ووجدن العديد من الفروع المكسورة، والخوخ الساقط، ثم وجدن القرد الناعس الذى وبخهن لإزعاجه فى نومه.

وعندما ذكرته الجنيات بالعيد العظيم، أدرك القرد فجأة بأنه ما قد دعى وفكر باللحوم النادرة، والنبيذ، والفاكهة الكثيرة، وكان القرد الطماع جائعا ثانية، وبحث عن مأدبة حتى يأكل. ولذلك انسل القرد إلى مطبخ السماء وحشا نفسه بفطائر اللحم المترفة. ثم أسرع إلى النبيذ فى القبو وكرع بسرعة عدة أكواب من النبيذ، وكل واحد من الأكواب كان أكثر لذة من سابقه. ومن شدة استعجاله، قلب بعض النبيذ عرضياً وهو ينطلق بسرعة، وكسر عدة أكواب، ولما انتهى الليل، خاف القرد من طباخى القصر أن يجدونه. ولذلك بحث عن مكان للاختفاء فيه، وفى طريقه وجد قصر الفيلسوف العظيم «لاو» وكان الرجل الحكيم خارج البيت، ولما نظر القرد فى كل الغرف فى بيت الفيلسوف ولم يجد أحدًا. دخل فى مختبر الكيمياء. ووجدِ القرد فيه خمسة قرع مليئة بإكسير الخلود. وعلى المنضدة تقريبًا مائة حبة، من الإكسير المبرد، وقد سطرت بعناية فى صفوف، وكانت جاهزة للمأدبة. فجمع القرد بقبضته الحبوب وابتلعها، وكان مثل حب الصويا المحمص، وأخذ يبعثر البقية فى جميع أنحاء الأرضية. وسقط على يديه وركبتيه وهو يمسك بالحبوب الباقية، وقد سقط بجوار عدة مناضد فى معمل الفيلسوف المرتب.

وقد أزال الفوضى التى صنعها فى مختبر الكيمياء، وتذكر مشاهد مماثلة من الفوضى التى صنعها سابقا مثل الحطام الذى كان قد أحدثه فى حديقة الخوخ، والمطبخ وقبو النبيذ.

ولذلك قرر القرد الانسلال خارج السماء.

وعندما عاد إلى كهفه فى الجبل، رحبت به القرود بنبيذ التأريخ، لكنه قد تذكر طعم النبيذ الرفيع الذى شربه فى السماء، ولذلك بصق القرد الملك هذا

النبيذ ذا التخمير المحلى. وافتخر بأنه يمكن أن يعود إلى السماء وأن يشرب من نبيذ العنب اللذيذ. ثم بشكل هادئ صعد القرد إلى السماء وسرق الأدنان الباقية. وجلب النبيذ الثمين إلى كهفه واحتفلت القرود بعودته إلى جبل الفاكهة والزهور، وعندما اكتشف الإمبراطور هذا الدمار، أرسل جنرالات جيشه السماويين لأسر اللص. وقد قاتلهم القرد بإبرة تطريزه، وحول الإبر إلى عمود قتال هائل. وبذلك كان لا أحد يستطيع أن يهزم القرد وهو معه هذا السلاح. ولا حتى المائة الألف من القوات السماوية التى قاتلته بالفؤوس والأعواد والسيوف. وبذلك كان ذلك القرد اليتيم. الذى ولد من البيض الحجارة من صخرية سحرية. والذى أسس فنون القتال، وأرسى سيادته قد أصبح ملكًا لا يهزم.

■ ■ ■

نبوءة وحيد القرن

كان هناك رجل حقيقى، وهو معلم مشهور عاش بين ٤٧٩،٥٥١ ق.م وكان اسمه «كنج تشو». وهذه الكلمة التى تطلق عليه كانت ترجمتها «السيد كنج» وهذا الاسم أطلق عليه من قبل أتباعه، لأنه كان يعد من الرموز التاريخية الصينية الأخرى، والأساطير مثل نبوءة وحيد القرن التى كانت تدور حول حياة «كنج تشو».

وفى وقت ولاته، كانت الصين فى فوضى. وما كان عند الناس الفقراء طريق لتحسين حياتهم. وفى هذا الوقت قدم الإمبراطور «تشانج» نظام الاعتقادات لتغيير البلاد. وهذا النظام، جاء مستندا على بضعة أفكار بسيطة وهى: أن الحكام لايستطيعون أن يجبروا الآخرين على أى شىء، لكن بدلاً من ذلك كانوا يقودون الناس بالإقناع والقدوة الحسنة.

وكانت له العديد من الأفكار التى كانت ثورية فى هذا الوقت. ولقد شغل منصبا حكوميا لفترة قصيرة، وقد أداره بشكل مبدع.

على أية حال، على الرغم من نجاحه كمستشار للعائلة المالكة، إلا أن الفساد فى العائلة الملكية أجبره على الخروج عن موقع عمله ومهامه. ولم يكن قادرا على إقناع اللوردات والأمراء فى وقته للاعتراف بأفكاره المتواضعة، ولكنهم كانوا يحكمون على أفكاره حسب ظروفهم الخاصة بهم والتى تناسبهم ولا تناسبه، وقد قضى بقية حياته يعلم الناس إعادة كتابة الأدب الكلاسيكى للصين، وبقى أتباعه على تعليماته حية بعد موته. وفى عام ٥٩ بعد الميلاد، أى بعد أكثر من أربعمائة سنة بعد موته، اعترف به إمبراطور «الهان»، كبطل سماوى لم يكن له نظير من قبل. وتبنى الأباطرة أفكاره الجيدة حول الحكومة. وبنيت المدارس على شرفه.

وتقدم هذه القصة وحيد القرن «تشى لين»، وهو حيوان مقدس عند

الصينيين. وهو أشبه بوحيد القرن فى الأساطير الأوروبية. مثله كمثل العديد من الحيوانات، ومنها الأيل، والثور. والتنين، والحصان. وأى حيوان مستأنس.

ترك «تشى لين» الحيوانات الأبرياء بمفردها. ولكن عندما غضب. طعن الناس الشريرين بقرنه. ولذلك لبس الجنود شعار «تشى لين» على لباسهم لتذكيرهم بواجباتهم وليكونوا جديرين بالثقة مثل القضاة العادلين.

وفى القرن الرابع عشر، أرسلت زرفة، إلى المحكمة الإمبراطورية. والعديد من المراقبين ادعوا أنها كان تشابه «تشى لين» البطل الأسطورى.

نص الأسطورة:

ذات يوم كانت هناك امرأة رحيمة جداً. سميت «تشينج» عاشت فى محافظة «شاندونج» فى شمال غرب الصين. وكانت تحظى بحب واحترام الجميع. وكانت كل غايتها أن يكون لديها طفل. ولذلك صلت للآلهة ليلاً ونهاراً من أجل أن ترزق بابن. على أية حال، وبخها زوجها لأنها أرادت طفلا آخر يزيد من أعبائه.

وذات مرة كان هناك رجل نبيل، ولكنه فقد كل ماله: ولذلك تخلى عنه كل أصدقائه القدامى، وأصبح خجلان من فاقته. ولحسن الحظ، أن «تشنج» كانت راغبة فى الزواج منه.

وفى أحد الأيام قامت «تشنج» برحلة طويلة إلى المعبد للصلاة والدعاء من أجل الطفل. وكان زوجها غاضبا منها ولذلك رفض مرافقته. واحترم القرويون شجاعتها فى محاولتها القيام بمثل هذه الرحلة إلى مثل هذا المكان المعزول. وكان الطريق حاداً وصخرياً.

وشعرت «تشنج» بالوحدة فى هذا العالم. وقد جرحت وهى فى طريقها الحجرى الضيق أثناء رحلتها، وتأذى صدرها عندما تنفست برودة هواء الجبل. وكان فى جيبها مجموعة من العملات المعدنية التى سقطت منها وجلجلت النقود بشكل هادئ أثناء سقوطها.

وتلك النقود قد حصلت عليها من دخلها الضئيل من بيع التطريز فى السوق. وقد تمنت شراء البخور والفاكهة الآلهة المعبد. وكان لابد لها أن تتجنب الفروع، والصخور فى الطريق. وكانت حذرة من إحداث ضوضاء، حتى ولو صغيرة، لأنها لم ترد جذب انتباه النمور الجائعة، التى جابت التلال، وكانت جاهزة للانقضاض على الفريسة السهلة. والأسوأ من ذلك، قطاع الطرق الذين قد يجدونها، وهؤلاء اللصوص كانوا فى الأصل مزارعين عاملين، لكن اللوردات الطماعين أخذوا منهم المحاصيل، وفرضوا ضريبة عليهم، وسرقوا زوجاتهم، واستعبدوهم هم وأطفالهم، وأخذوا أرضهم. وبعد سنوات من الإذلال والمجاعة، تحولوا إلى لصوص تجولوا فى الريف. وسرقوا الغذاء وقتلوا الناس. وبمرور السنوات، قطاع الطرق كانوا قد أصبحوا أكثر انعداما للرحمة من الوحوش البرية فى الجبال.

وكلما مشت «تشنج» بعناية على طول الطريق وتقدمت. وجدت بعض آثار الأقدام الحيوانية الضعيفة. وكلما نظرت إليها، وجدت صورة هذه الآثار تصبح أقوى وأوضح. وقد شكلت مثل حوافر الحصان، أو حوافر حيوان أكبر منه قليلا. وبينما كانت تفحص طبعات الحافر، إذ بقلبها يمتلئ بالبهجة وذلك لأنه يمكن أن تكون هذه آثار أقدام وحيد القرن السحرى. وهو ذلك الحيوان الذى عرفوه من قصص ظهر كطالع للسلام. لكن عالمها الذى كنت تعيش فيه كان فيه كل شىء ما عدا السلام. وذلك كان واضحا فى الناس الفقراء الذى عرفوا الخوف والوحدة، والحرب، والنزاع.

ولما واصلت «تشنج» التحديق فى الآثار الغامضة التى كانت على الأرض، إذا بنسيم دافئ يدخل على جسمها. وسمعت حفيف أوراق خفيف، وتقدم مخلوق جميل من بين الأشجار، وكان طوله خمسة عشر قدما وكان مغطى بجلد أصفر شاحب، وكان عليه بقع كبيرة مثل الغيوم الحمراء الغامقة والسحب الأرجوانية وقد غطت جسمه الذى كان على هيئة الأيل. وعلى رأسه، كان يوجد قرن سمين فردى مغطى بجلد بين أذنيه. وفى مؤخرته، ذيل طويل كان يتنقل بلطف مثل

الثور. وقد خطا الحيوان قليلاً على الأرض وما آذى أى مخلوق حى. أما الرقبة فقد تحركت وهى تتباطأ. وفى إيقاع سائل مهيب. حيث كان يشبه التنين الأسود الكبير. وكان له عيون ناعمة كالندى الرطب. وفى الحقيقة. فإن هذا الحيوان بناء على هذا الوصف، كان «تشى لين» وحيد "القرن" السحرى الذى مشى نحوها وراقبت المرأة وحيد القرن بخوف وروع. واقترب المخلوق الجميل من المرأة وتوقفت ضربات قلبها. وكانت مفاجأة لـ«تشنج»، وعندما خفض «تشى لين» رأسه أسقط قطعة من فمه عند قدمى المرأة.

وعندما تكلم المخلوق، كان صوته واضحا مثل جرس بعيد ناعم.

أخبر «تشى لين» «تشنج» بأنها قريبًا ستحمل ويكون لها الابن الذى سيكون حاكما عظيما. ولكنه سيكون حاكما بدون مملكة، وملكًا بدون عرش. ثم انحنى وحيد القرن بشكل رشيق، واختفى فى ظلال الأشجار والتقطت، «تشنج» القطعة الساقطة من «تشى لين» وقد حيرتها الرسالة، وبدت القطعة الساقطة اللامعة بها أسرار عميقة تحت سطحها الغانم. وطبيعيًا شعرت ببرودة فى يدها. ورغم كل ذلك وبعد أن أطالت نظرها إليها، بدت لها أوضح حيث كانت أصلب من العملات المعدنية البرونزية التى كانت فى جيبها، ورغم ذلك عرفت «تشنج» بأن هذه القطع يمكن أن تكون مثل السائل الذى يتشكل مثل التنينات الملتوية، والحشرات المنقنقة، وهبوط الغيوم. وعندما ضربت تلك القطعة فى الحجارة الموجودة على الأرض، انبعثت منها أصوات موسيقية واطئة الراحة والأمل فى قلبها وألهمتها بحماس بأن وحيد القرن سيجلب السلام إلى العالم الواقع فى مشاكل. وأسرعت إلى البيت لإخبار الزوج بهذا اللقاء السحرى، وخطواتها كانت تبعثر الأحجار التى كانت موجودة على الأرض، والتى كانت تتفاداها بعناية. وبعد سنة واحدة لاحقًا، صدقت نبوءة وحيد القرن، وابتهجت «تشنج» بولادة ابنها، وسمته «كنج كى».

ووضعت «تشنج» القطعة التى أسقطها وحيد القرن حول رقبة مولودها للحماية ضد الأمراض والحوادث، وبعد ولادة الطفل بثلاث سنوات، مات أبوه

ورفعت أمه اللفافة عن الولد أكثر من أى وقت مضى.

وكان هذا الولد موهوبًا بالذاكرة التى لم يكن يتمتع بها أحد، حيث تذكر «كنج كى» كل شىء قد رآه وسمعه. وأحب القراءة وكان يقرأ مقاطع من الأدب الكلاسيكى. وبسبب فكره المدهش، قد أثير حوله بشكل ثابت الجدل وسلطت عليه الأضواء وهو لم يكن وسيما، وكان عنده بروز فى جبهته.

وفى الوقت الذى كبر فيه الولد، ظهرت ملامحه حيث كان عملاقا، بطول سبعة أقدام تقريبًا. وكان عنده العديد من الأفكار الجيدة.

ولسوء الحظ، لم يلق الانتباه المطلوب له من اللوردات لأنه كان فقيرا.

وعلى أية حال، كان حازما ومتحمسا لتعليم معتقداته إلى كل شخص ممن يستمعون له. وكان هذا الولد متكلمًا، ولقد كان مواليا له ثلاثة آلاف شخص من أتباعه ممن دعاهم وكان منهم البارعون.

وعلم «كنج كى» اعتقاداته للناس وعلمهم كيف يتصرفون بشكل محترم نحو بعضهم البعض.

كما علمهم أن التعلم بدون تفكير هو خطأ قاتل، ولكن التفكير بدون تعلم هو الأسوأ.

كما قال لهم أيضا: «لا تقلق إذا كان لا أحد يعرفك، لكن يجب أن تكون مستحقا لأن تكون معروفا».

وقال لهم أيضا: إن أى رجل جيد يمكن أن يؤثر على أولئك الذين هم أعلى منه: والرجل التابع يمكن أن يؤثر فى أولئك الذين هم أقل منه.

وبعد كل هذا يتضح لنا أن السيد «كنج كى»، العملاق، قد حقق نبوءة وحيد القرن. حيث كان ملكا بدون عرش، وحاكما بدون مملكة. ورغم ذلك كانت أفكاره صادقة ومتطابقة مع روح «تشى لين»، وقد جلب أيضا السلام إلى كل أنحاء الأرض.

حــرب المــاء

. .

«جونج» إله الماء قديما كان قوى مدمرة. وقد تصارع للسيطرة على الأرض بعد فترة قليلة من خلق الناس. وقد سلفه. «زرونج» وكان إله النار. الذى حكم العالم بسلام من قبله عندما أصبح «جونج» هو الحاكم، أراد توسيع تأثيره وسيطرته على الكون بزيادة كمية الماء فى الكون . بنسبة سبعة عشر. ولذلك أرسل «جونج» أمطارًا غزيرة واقترب أكثر لتحطيم العالم فبصراع عنيف على السلطة مع إله النار. وكان الإله خالق الناس «نواه»، قد ظهرت أخيرا فى هذه الأسطورة للحد من قوات الإلهين التدميرية.

أما من الناحية التاريخية، الإلهان المتحاربان كانا قد قدما فى أغلب الأحيان منذ القدم كعمالقة، كما قد صورا فى بعض الصور بأن «جونج» كان يمتلك جسم أفعى ووجها إنسانيا بالشعر الأحمر. أما «زرونج» فقد صور تقليديًا فى جسم إنسانى هائل عريض الأكتاف الواسعة، وجلد أحمر، ولحية حمراء.. وكلا الإلهين كان له شكل فظيع ومخيف.

وأيضا مما صور فى القصص القديمة عن الأرض أنها كانت على هيئة مربع مستوى، والسماء كانت على شكل قبة علقت فى كل من الزوايا الأربع باستخدام قمم أربعة جبال عالية، وأحد هذه القمم كان جبل «بوزهو» وهو الجبل، الذى ذكر فى هذه القصة.

نص الأسطورة:

ورد عن علماء الرياضيات الصينيين أن الأرض كانت مستوية فى القرن الأول بعد الميلاد . قبل فترة طويلة من ظهور «جونج» إله الماء الأول فى نصوص التاريخ الكلاسيكية . وكان «جونج» هو الذى ضرب العالم بفيض مستمر من نوبات المطر والفيضانات. وضرب الطوفان البيوت حتى حولها إلى أكوام من

القمامة، وأسقط الأشجار القديمة العظيمة، كما انهارت الجبال وتحطمت وتعكرت الأنهار. وما أخذ «جونج» أى رحمة بآلاف الناس والحيوانات التى ماتت على الأرض المنتفخة المنقعة.

وقد تفادت الآلهة الأخرى غضبه؛ لأن غضبه كان جادًا. واكتفوا بأن يراقبوا بشكل صامت فى خنادقهم المائية، وقراهم، وفى المعابد التى حطمت، واحدًا بعد الآخر.

وأخيرًا، «زورونج»، إله النار، قرر بأن «جونج» لابد أن يذهب بعيدًا جدًا. وينتهى عما فعل وكان قد غضب من جبن الآلهة الأخرى، وهو لم يصدق تلك الخطط المتقنة التى وضعها «جونج» لتشكيل الأرض مرة ثانية إلى أبعاد ثقيلة من الماء: لذا تحدى «زرونج» «جونج» لاستعادة السيطرة على الأرض.

وقد قبل «جونج» هذه المنافسة والدخول فى المعركة بسرور. وكان الاثنان من القوات القوية التى تصارعت مع بعضهم البعض عبر السماء، واهتزت السماء بالرعد، والبرق الذى ومض عبر السماء لأيام، وأمسكوا بيعضهما البعض، وتصارعا، ورمى كل منهما الآخر إلى الأعلى، والأعلى فى السماء حتى إنهما أخيرًا كسرا قبة السماء.

وعندما لم يتمكن أى منهما من أن يكسب السيطرة على الآخر، عندئذ تحدى كل منهما الآخر لإعادة هذه المرحلة من معركتهما على الأرض. وقد قبل كل منهما التحدى بسرور.

اتجه «جونج» إلى أسفل إلى الأرض، ووضع جحافل جنوده الأقوياء على طوافة عائمة مصنوعة من قصبات الخيزران. وكانت مشتعلة بالأعلام، والطبول، والنداءات من آلاف رجال المعركة العطشى إلى الحرب. واندفع الطوافة عبر الماء، وأرسلوا الموجات عبر البحر. والمرشات الضخمة التى تفقعت وأزبدت حول الطوافة.

وعلى الجانب الآخر فقد وضع «زرونج» نفسه بشكل استراتيجى فى طريق محاربى «جونج».

وكلما اقتربت طوافة «جونج، أصدر «زرونج» عمودا شاهقا ضخما من النار.

وقفزت النيران إلى قلب الطوافة المجوف ووصلت النيران إلى أقطاب الخيزران، التى اشتعلت باللهب، وهبط «جونج» وهو ينادى إلى من يولون له بالوفاء من جنوده الذين قد قفزوا من الطوافة المحترقة فى البحر، ولكنهم لم يستجيبوا له خشية من النار. وبسرعة نادى «جونج» إلى المخلوقات المائية. مثل: السلاحف العملاقة، والروبيان، وسرطانات البحر والذين قد استجابوا لندائه.

وعندئذ ابتسم إله الماء بعد أن رأى قواته الهائلة، التى هى على خلاف جيشه الإنسانى، فهؤلاء من محاربى الماء الذين كان لديهم درعهم الوقائية الخاصة بهم فهم قد عاشوا فى البحر ولا يمكن أن يموتوا بالغرق. ثم تولى «جونج» القيادة، وأثار موجات بارتفاع الجبال إلى إله النار.

وصاح «جونج» إلى منافسه قائلا: أنت لا تستطيع ربح هذه الحرب. فأنا القوة المتفوقة، اعترف بذلك!.

وبالرغم من أن «زرونج» لم يكن عنده حتى ولو شخص واحد لمساعدته، إلا أنه رد عليه قائلا: لا، أنت لن تكون القوة المتفوقة: أنت لا شىء أكثر من جبان مستبد. ثم التف وجمع كل قوته. واستنشق كل جزيئات الحرارة، والشرارة، والجمر التى كانت فى الوجود، ونفخ إلى الخارج مما أدى إلى انفجار النار فى المحاربين الثوار. وأحرقت حرارة النيران مخلوقات البحر وحولتهم إلى نفايات داخل درعهم الخاصة. وأصبح البحر يعوم ككتلة من الرماد.

وبذلك فإن «جونج» الهائل قد هزم، وجيشه أصبح ميتا ومفرقا.

وكل الآلهة قد ابتهجت بهزيمة «جونج» المذل والمدمر، والذى هرب إلى الغرب حتى وصل إلى جبل «بزهوا». وفى غضب، صدم رأسه فى ذروة الجبل. وكان ضربته قوية حتى أنها شقت الجبل الحاد من اتجاه القمة، ودفعت قمته حتى كادت أن تصل السماء. ثم أخذ قطعة ضخمة من هذا الجبل، وضربها لأعلى حتى وصلت إلى قبة السماء، وكسرتها وصنعت بها فتحة كبيرة، وقد تصدعت السماء وحدث بها ألف شق، وكانت هذه الشقوق جميعا تحيط بالفتحة

المفتوحة فى السماء.. وأثناء ذلك ماتت مخلوقات من ما بعد السماوات، وسقطت خلال الظلام للنزول على الأرض.

وفى الوقت نفسه، فإن قوة الضربة قد شققت وفتحت قشرة الأرض. وانطلقت الصخور الحارة والملتهبة من الجبال المنفجرة لحرق الأرض.

وسالت النار السائلة من كل شق، وملأ الدخان الأرض المتصدعة بينما اهتزت الأرض غير المستقرة، وترنحت، وهاجت نيران الغابة، وطفحت البحيرات من عدم قدرتها على احتواء الماء وما به من حطام الأشياء، وطفحت وأرسلت هذا الحطام إلى القرى المحطمة. وقد أذهلت كل الآلهة من ذلك ومعهم «زرونج» لكنهم كانوا فى موقع ضعيف ولا يقدرون على إنقاذ العالم من الانهيار.

كما راقبت «نواه» ما حدث من الدمار على الأرض. وتسابقت لإيجاد الصخور المكونة من الخمسة ألوان المقدسة - الحمراء - والبيضاء والسوداء، الخضراء، والصفراء - وهى الألوان التى ترتبط بعناصر الأرض الخمسة المهمة وهى : الأخضر يرتبط بالتربة، والأحمر يرتبط بالنار، والأصفر يرتبط بالخشب، والأسود يرتبط بالمعدن، والأبيض يرتبط بالماء.

وصهرتهم سوية فى مشعل ضخم. واستعملت هذا الخليط المقدس، تدريجياً لتصليح الفتحة التى كانت فى السماء والتى نتجت من الدمار الذى قام به إله الماء المدمر. وطوال الوقت، لعنت الإله «نواه» إهمال الآلهة والذى تسبب فى هذا الخراب. وجمعت «نواه» الأميال والأميال من الطين النهرى، وحشت كل الشقوق التى استطاعت أن تجدها فى الأرض. وعندما استقر الطمى النهرى فى الشقوق، وانحسر الماء فى الأرض. وجلبت «نواه» طميًا نهريًا أكثر، وصنعت منه سدا نهريا ثم فجرت المياه التى حسرتها داخل الشقوق، والتى تدفقت بيسر وبسرعة شديدة إلى البحار.

ثم أنقذت الإله «نواه» سيقان السلاحف الضخمة المحارية الميتة. كما علقت السماء بالأعمدة فى الأربع زوايا الموجودة فى الأرض. وعندما كانت تسند

الزاوية الشمالية الغربية للسماء، مالت الأرض فى الغرب وانزلقت السماء إلى الأسفل فى الشرق، وحاولت «نواه» كثيرا ولكنها كانت غير قادرة على تسوية السماء.

وأخيرًا، ضربت «نواه» سوية اثنتى عشرة قصبة من الخيزران حتى صنعت منها الناى. وشكلت هذه الآلة على شكل ذيل طير العنقاء وهو طير السلام. وعلمت الناس النفخ خلال الناى وأخبرت الناس أن يكون عندهم شوق. وحب للموسيقى وللناى المصنوع من الخيزران.

هذا الناى الذى يمكن أن يقهر كل المخاوف.

ومازالت الأرض تعانى وتقرقع من حين لآخر وتتكسر، وبقيت السماء والأرض مميلة إلى الأبد نحو المنطقة الشمالية الغربية. لهذا فإن القمر والنجوم يتحركان فى ذلك الاتجاه، ولهذا فإن أنهار الصين فى جميع أنحاء البلاد تتجه لتسكب ماءها فى البحرالشرقى.

■ ■ ■

كـون رونـغ

وردت الحكاية فى كتـاب صـينى قـديم مـشـهـور يحـمل عنوان «الحكايات الجديدة فى البلدان العديدة».

جـاء فـى الكتـاب، أن كون رونغ كان ذا مـعارف واسـعة فى عـهـده، عـهد أسـرة هان الملكية الصـينيـة. وبتـأثير أسرته، كان كون رونغ منذ صـغـره ذكيـا وحـاذقـا خاصة فى لباقة فى الحديث، فاكتسب شيئا من الشهرة رغم صغر سنه.

وعندمـا بلغ كون رونغ من العمر ١٠ سنوات، رافق والده إلى مدينة لو يانغ لزيارة حاكم المنطقة الإدارى لى يوان لى. وكان هـذا الحـاكم عـالما شهيرا ومغرورا، ويتـردد عليه زوار كثيـرون، ولكن، إذا كان زائرًا لا فى العير ولا فى النفير. فلن يبلغ البواب الحاكم بوصوله غالبا.

كان كون رونغ الصغيرالسن له رغبة شديدة فى لقاء هذا العلامة. وحضر ذات يوم إلى أمام مقر الحاكم لى، ودعا البواب إلى إبلاغ الحاكم لى بوصوله. ولكن، عندما وجد البواب أن الزائر كان مجرد فتى صغير السن، حاول صرفه. وبوحى من تكفيره، قال كون رونغ للبواب:

«إنى أحد أقرباء السيد لى، فإنه سيقابلنى حتما».

بعد أن أبلغه البواب، استغرب الحاكم لى الأمر بعض الشىء؛ لأنه ليس لديه قريب مثل هذا الزائر، ومع ذلك، قرر أخيرا لقاء كون رونغ.

وسأله الحاكم لى يوان لى باستغراب كون رونغ أثناء اللقاء:

«بودى أن أعرف ما هى القرابة التى تربط بينك وبينى؟»

رد كون رونغ عليه قائلا: «إنى من أحفاد كونفوشيوس، وأنت من أحفاد منشيوس. ويعلم جميع الناس فى الدنيا أن كونفوشيوس كان قد سأل منشيوس

عن مواضيع حول الآداب، فكانت علاقتهما علاقة بين معلم ومتعلم، وبطبيعة الحال فإننا أنا وأنت صديقان قديمان للأسرة».

معروف أنه فى تاريخ الصين، أن كونفوشيوس قد عاصر فيلسوفا شهيرا آخر بالصين وهو منشيوس الذى اسمه الأصلى لى دان مؤسس المذهب الأكاديمى التاوى. وقيل إن كونفوشيوس كان يطلب دائما وبتواضع المشورة من منشيوس فى بعض المواضيع كلما صادف ما هو غير مفهوم لديه.

وكان للحاكم لى يوان لى ضيوف كثيرون يجلسون فى بيته، وهم يتعجبون من كون رونغ البالغ من العمر ١٠ سنوات فقط واسع الاطلاع وحسن التصرف.

وفى هذا الوقت بالذات أتى شخص آخر يدعى تشن وى لزيارة الحاكى لى يوان لى أيضا. وكان تشن عالما شهيرا أيضا. وحينما أخبره بحسن التصرف الذى أبداه كون رونغ تواه، ولم يكن فى الحسبان أن تشن وى لم يحبذ ما قالوا، فقال اعتباطا أمام كون رونغ: «إنه مجرد قطنة صغير وليس أكثر، وليس من الضرورى أن يصبح حسنا لدى كبره» فدحضه كون رونغ الذكى ذلك فورا قائلا: «أظن أن السيد تشن لابد أنه كان ذكيا للغاية فى صغره» ومن الواضح أن المعنى الضمنى هو أن تشن وى شخص لا خير فيه. وبعد سماع قول كون رونغ هذا، شعر تشن وى بالحرج الشديد حتى لم يستطع النطق بأية كلمة مدة طويلة.

علاوة على ذلك، أنقصه «كون رونغ يتنازل عن الكمثرى» معروفة لدى الجميع أيضا. ومما ورد فى هذه الحكاية أنه عندما كان كون رونغ طفلا صغيرا، كان جميع أفراد الأسرة يتجمعون لأكل الكمثرى، ويختار كون رونغ فى كل مرة حبات الكمثرى الكبيرة إلى كبار الأسرة، ويبقى الصغيرة لنفسه، فكان مؤدبا جدا.

عين كون رونغ حاكما إداريا محليا فى منطقة بعد كبره لاتساع معارفه وتعدد كفاءاته.

ولكن كانت البلاد آخذة فى التشتت والانقسام، وكانت بلاد الصين على وشك دخول ما يسمى «عهد الدويلات الثلاث» تاريخيا. وظل كون رونغ بصفته

عالما تقليديا يبدى قلقه واستياءه من الأوضاع السياسية دائما حينذاك من خلال أقواله وتصرفاته ومؤلفاته، الأمر الذى انتهى بقتله على يد شخصية معروفة أخرى فى تاريخ الصين وهو تساو تساو.

كان كونفوشيوس الذى عاش فى القرن الـ ٦قبل الميلادى عالما شهيرا فى الفكر والتعليم فى تاريخ الصين، وصار المذهب الأكاديمى الكونفوشيوسى الذى أسسه هو أهم عنصر فى الثقافة الصينية اللاحقة حتى اليوم. وفى الفترة الإقطاعية الصينية الطويلة المدى، ظل الحكام يحترمون أفكار المذهب الكونفوشيوسى كأفكار تقليدية، لذا، فإن الأسرة الكونفوشيوسية ظلت أسرة ذات شهرة واسعة للغاية. ومن بين أهل أسرة كونفوشيوس بعد عهده. برز عديد من الشخصيات المعروفة أيضا، وكانت إحداها من الجيل العشرين بعد كونفوشيوس لشخص يدعى كون رونغ. ودارت حوله حكاية عن أنه مجرد قطنة صغير وليس أكثر، فليس من الضرورى أن يكون نابغًا فى كبره.

■ ■ ■

الراهب شيوان تسانغ

توجد فى الصين رواية أسطورية طويلة مشهورة جدا عنوانها «رحلة إلى الغرب». تحكى هذه الرواية قصة حول رحلة أربعة بوذيين ذهبوا إلى الغرب من أجل الحصول على الكتب البوذية المقدسة. وبعد تغلبهم على متاعب ومخاطر لا تعد ولا تحصى، وصلوا إلى الغرب أخيرا، ونجحوا فى الحصول على الكتب المقدسة. وإن أصل البطل فى هذه الرواية - تانغ سنغ - هو الراهب المعلم الصينى - شيوان تسانغ - الذى يعتبر سفيرا ثقافيا مشهورا فى قديم الزمان بالصين.

ولد شيوان تسانغ عام ٦٠٠ الميلادى خلال عهد أسرة تانغ الملكية الصينية. وهو ذكى جدا منذ صغره. واستطاع قراءة الكتب البوذية المقدسة حينما بلغ ١١سنة من عمره. وقبل مراسم الترهبن فى مدينة لويانغ التى تعتبر مدينة ثقافية فى ذلك العهد، أصبح راهبا رسميا فى ١٣ سنة من عمره. وفى ١٨ عاما من عمره، أصبح شيوان تسانغ مشهورا فى أوساط الدين البوذى، لأنه قد أجاد قراءة الكتب المقدسة الثلاثة للدين البوذى الهندى، وأطلق الناس عليه «معلم الكتب المقدسة الثلاثة» احتراما له.

وفى شبابه، وجد شيوان تسانغ أن الكتب المقدسة المترجمة إلى اللغة الصينية ليست كاملة وليست صحيحة ودقيقة مائة بالمائة.

فقرر السفر إلى الهند للبحث عن الدين البوذى الأصلى.

انطلق شيوان تسانغ فى مدينة تشانغآن عاصمة أسرة تانغ الملكية وهى مدينة شيآن شمال غربى الصين فى الوقت الحالى عام ٦٢٧ الميلادى وبدأ رحلته إلى الغرب، وكان مقصد رحلته هو معبد نارلاندا الهندى الذى كان أعلى جهاز لبحوث الدين البوذى فى ذلك العهد، وله أكثر من سبعمائة سنة من التاريخ، وهو كذلك مكان يتطلع إليه البوذيون فى المناطق الأخرى بالعالم.

وقبل أكثر من ١٣٠٠عام، كانت البشرية لا تعرف كثيرا عن المعلومات الجيولوجية. وكانت ظروف المواصلات حينذاك متخلفة جدا. لذلك، إن الرحلة من وسط الصين إلى الهند البعيدة جدا أمر صعب جدا. وليس من الضرورى أن يمر بالصحراء الجرداء والغابات العذراء فحسب، بل لابد أن يمر بالجبال الثلجية شمال غربى الصين. ورغم وجود هذه الصعوبات الخيالية، إلا أن الراهب المخلص شيوان تسانغ تغلب على كل هذه الصعوبات أخيرًا، ووصل فى صيف عام ٦٢٩ إلى شمال الهند، ثم دخل فى وسطها، وزار الأماكن المقدسة الهندية الستة للبوذيين.

وفى عام ٦٣١، بدأ شيون تسانغ يدرس فى معبد نارلاندا. وخلال خمس سنوات بعد ذلك، قرأ كمية هائلة من الكتب البوذية المقدسة. وعقب ذلك، زار مختلف المناطق بالهند، وتعلم من أكثر من عشرة معلمين بوذيين كبار. واستوعب خلاصة الدين البوذى جيدا.

وفى مناظرة خاصة بالأفكار البوذية لأنحاء الهند، أجاب شيوان تسانغ على جميع الأسئلة الغريبة والصعبة التى طرحها البوذيون الآخرون عمدا. ومن ذلك الحين، أصبح ذا شهرة فى أوساط الدين البوذى.

وفى ربيع عام ٦٤٣، عاد من الهند إلى الصين، وكان يحمل معه الكتب المقدسة والتماثيل البوذية التى جمعها خلال السنين الماضية. وكان الإمبراطور تاى زونغ من أسرة تانغ الملكية الصينية بعث خصيصا بمجموعة من المسؤولين الحكوميين لاستقباله. كما طلب الإمبراطور منه أن يتولى منصبا فى الدوائر الحكومية، لكنه رفض ذلك بعد أن عبر عن شكره للإمبراطور. ثم أقام فى معبد هونغ فو بمدينة تشانغآن «مدينة شيآن فى الوقت الحالى». وبدعم من الإمبراطور تاى زونغ، دعا كثيرا من كبار الرهبان والمعلمين فى أنحاء البلاد إلى المعبد لبدء أعمال ترجمة الكتب البوذية التى استغرقت ١٩ سنة. وخلال ١٩ سنة، ترجم شيوان تسانغ ٧٥ كتابا بوذيا مقدسا تضم ١٣٣٥ مجلدا. ومن بينها أضخم كتاب مقدس ترجمه شيوان تسانغ ومكون من ٦٠٠ مجلد. وإن الكتب البوذية المقدسة

التى ترجمها كتبت بلغة جميلة وتطابقت مضامينها مع النصوص الأصلية.

وفى الوقت الذى ترجم شيوان تسانغ فيه الكتب البوذية المقدسة، عمل على نشر الدين البوذى أيضا.

وبالإضافة إلى مؤلفاته فى مجال الدين البوذى، أنجز شفويا خلال أكثر من سنة كتابا بعنوان «المناطق إلى غرب أسرة تانغ الملكية الصينية» ودونه أحد أتباعه اسمه بيان جى، حيث سجل أحوال الدول البالغ عددها أكثر من مائة دولة التى تقع إلى غرب الصين وزارها خلال أكثر من عشر سنوات. ويشمل هذا الكتاب معلومات وافرة عن تاريخ هذه الدول ومناطقها الجغرافية وأصول قومياتها ومنتجاتها ومناخها وسياساتها وثقافاتها وإلخ. وحتى الآن، ما زال يعتبر هذا الكتاب مصدرا ثمينا لأحوال أفغانستان وباكستان والهند حتى منطقة آسيا الوسطى تاريخيا وجغرافيا فى قديم الزمان. وقد تم ترجمته إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية واليابانية والألمانية وغيرها.

وفى الحقيقة أن مساهمات شيوان تسانغ فى المجال الثقافى قد تجاوزت إلى حد كبير الأهداف التى حددها لرحلته إلى الغرب.

وتتحلى بمكانة هامة فى تاريخ الصين الثقافى حتى التاريخ الثقافى الشرقى عامة. فإنه ليس مترجما كبيرا وعالما بوذيا معترفا به دوليا فحسب، بل هو أيضا رحال عظيم فى العهود القديمة الوسطى.

إن رحلة شيوان تسانغ إلى الغرب حدث ذو تأثيرات كبيرة جدا، ودفع الكتاب فى مختلف العهود التاريخية إلى كتابة أساطير على أساس قصصه. وفى عهد أسرة مينغ الملكية، تم تأليف الرواية الأسطورية «رحلة إلى الغرب». وأصبحت هذه الرواية إحدى أشهر الروايات القديمة الصينية الأربع، وهى معروفة جدا لدى الصينيين.

■ ■ ■

الرداء الأصفر

كل يوم كان يذهب السيد «تشانغ» إلى عمله فى السهل وهو يرتدى ملابس ملونة بألوان داكنة. وقبعة سوداء وحذاء أسود. وفى أحد الأيام، كان «تشانغ» قد تعب من النظر إلى كل الأشخاص الآخرين الذين يرتدون ملابس بنفس الألوان الداكنة، وقد تمنى أن يلبس لباسا بألوان زاهية جميلة. وفى الشوارع قد مر السيد «مو» الحاكم فى سيارة الرئاسة.

وقد رآه السيد «تشانغ» وقال: «إنه كان يرتدى ملابس ذهبية جميلة مشرقة، وجميع الناس فى المدينة، توقفوا للانحناء إجلالا وإكبارا له. وقد عقد السيد «مو» رأسه عالية وتجاهلهم. وأعجب بذلك الرداء الأصفر السيد «تشانغ» الذى كان يرتديه الحاكم. وقال إنه سيذهب بعد ذلك لتفصيل مثل هذا الرداء الجميل، وقد طلب من الأفندى «أس» أن يفصل له مثل ذلك الرداء الأصفر. وقد أصيب الأفندى «أس» بالصدمة إزاء هذا الطلب لأنه لا يسمح إلا للناس المهمين فقط بارتداء مثل هذه الملابس زاهية الألوان. وقد أصر السيد تشانغ على طلبه.

وأخير، قد أعد الأفندى «أس» تصميما واحدا مشابها لذلك الرداء الأصفر الذهبى، وباعه إلى السيد «تشانغ»، ولكن مرة أخرى حذره الأفندى «أس» من عدم لبسه أمام الناس. وكل يوم السيد «تشانغ» كان يطلق على نفسه لقب صاحب الرداء الذهبى، وكان ينظر إلى نفسه فى المرآة ويرى نفسه ذات أهمية. عندما ذهب إلى بلدته التى كان الناس فيها على حد تعبيره يرتدون ملابس مدنية، ولذلك فهو كان لا يريد إخفاء ذلك الرداء الذهبى. وقد خرج من بيته وهو يرتدى ذلك الرداء الذهبى الجميل وسار وهو متغطرس وهو يستنشق الهواء الصافى، وقد مشى وهو لا يكلم ولا ينظر إلى جيرانه. وقد مشى وحده وقد عقد رأسه عالية.

وفى أحد الأيام كان السيد «تشانغ» يستريح على ضفة النهر وهو يرتدى رداءه الذهبى ارتداء، أستمع إلى صراخ اثنتين من الفتيات الصغيرات. حيث إنهما كانتا يلعبان كرة الريشة وتنس الريشة، وقد سقطت كرتهما فى النهر. فقفز السيد «تشانغ» فى النهر لمساعدة الفتاتين. وعندما رأت الفتاتان صاحب الرداء الذهبى قالتا له: لا تهتم لأنه كان ليس من المهم عليك مساعدتنا فى هذه المهمة الصغيرة.

تجاهل السيد «تشانغ» تعليقات الفتاتين الصغيرتين. وعمل على إرجاع كرة الريشة إليهما. وبعد أن أعاد «تشانغ» كرة الريشة للفتاتين أسرع إلى تغطية ردائه الذهبى.

وأثناء عودة السيد «تشانغ» إلى داره كان هناك كلب من حاشية الحاكم يمسك كل من يرتدون ملابس غير مدنية. وقد أمسك صاحب الرداء الأصفر وقد رآه وهو مخفى تحت سترة مدنية. وقد ألقى القبض عليه واقتيد السيد «تشانغ» أمام عامة الشعب. لمقابلة الحاكم والذى أراد معاقبته. وكان الفتاتان الصغيرتان اللتان ساعدهما السيد «تشانغ» يختبئان وراء أحد الأعمدة، ويستمعان إلى أبيهما الذى تحدث بكلمات قاسية إلى السيد «تشانغ». وقد أسرعتا إلى إنقاذ السيد «تشانغ». حيث قالت البنتان لأبيهما: كيف ساعدهما السيد «تشانغ» قبل ذلك.

أعرب السيد «مو» الحاكم عن امتنانه للسيد «تشانغ» ودعاه إلى القصرالليلة القادمة لمشاهدة عرض للألعاب النارية. وقال له: إنه يسمح له بارتداء الرداء الذهبى لليلة واحدة. السيد «تشانغ» لم يذهب إلى القصر. ولكن ظل فى داره وهو يرتدى ملابسه المدنية. وقال «إن الخاصة مثل الشمس والقمر يوصفان بالذهاب ولكن كل النجوم لم تكن مثلهما».

■ ■ ■

«وو» وابنته

خلال فترة معينة من سلالات «الشين والهان»، كان يوجد رئيس كهف يدعى «وو» وكان متزوجا اثنين من الزوجات. وقد أنجبت كل واحدة من زوجتيه طفلة فتاة. وقبل مضى وقت طويل توفيت إحدى زوجات «وو» رئيس الكهف تاركة طفلتها الجميلة «شين ياه»، إلى زوجة الأب حتى تربيها مع ابنتها التى كانت أقل جمالا بكثير من أختها «شين ياه».

وقد عاملت زوجة الأب «شين ياه» معاملة سيئة لأنها كانت أجمل من ابنتها قبيحة المنظر. وكانت زوجة الأب تفرض على «شين ياه» القيام بالأعمال المنزلية الشاقة دون أى مشاركة من أختها.

وكانت «شين ياه» تحب الأسماك الكبيرة، والجميلة ذهبية العينين التى توجد بكثرة فى البحيرة. وكانت كل يوم الأسماك تأتى المياه وتقف على الشاطئ منتظرة «شين ياه» حتى تغذيها.

وعلى الرغم من أن «شين ياه» كانت لا تحصل إلا على كمية قليلة من الطعام إلا أنها كانت مستعدة لتقاسم هذا الطعام القليل مع الأسماك. وعندما علمت زوجة الأب العلاقة الحميمة التى توجد بين «شين ياه» والأسماك. راقبت «شين ياه» حتى علمت مكان الأسماك وانتظرت حتى خرج السمك من الماء وقامت بطعنه بالخنجر، ثم قامت بطهى السمك لتناول العشاء. وعندما علمت «شين ياه» بوفاة الأسماك. جلست تبكى ثم سمعت صوتا ما، وعندما تطلعت إلى مصدر الصوت، رأت رجلا حكيما يبلغ من العمر الكثير، ويرتدى ملابس مزينة وكان لديه شعر معلق فوق أكتافه متدليا إلى أسفل.

وقال لها هذا الرجل الحكيم إن عظام السمك قد ملئت بروح قوية، وقال لها

إنه إذا كان لديها أى أمنية تريد تحقيقها عليها أن تركع أمام العظام وتقول لهم رغباتها من قلبها. وسوف تحقق لها العظام أمنيتها وسوف تقدم لها أيضا الهدايا، وقد حذرها الرجل الحكيم من عدم إضاعة أى شىء من الهدايا.

ثم قامت «شين ياه» وأخذت العظام من كومة القمامة بعد أن ألقتها زوجة أبيها فيها وخبأتها فى مكان آمن.

ومع مرور الزمن، وكان قد اقترب موعد عيد الربيع. وكان فى ذلك الوقت يتجمع الشباب والشابات فى القرية، للعثور على الزوج والزوجة. وقد طال انتظار «شين ياه» للذهاب إلى مهرجان الزواج هذا، ولكن زوجة الأب ما كانت ستسمح لها بالذهاب لأنها تخشى أن يختارها شخص ما بدلا من ابنتها. ولذلك قررت زوجة الأب أن تذهب إلى المهرجان هى وابنتها تاركة «شين ياه» فى المنزل.

وكانت «شين ياه» تريد الذهاب إلى المهرجان، وعندما يأست من إقناع زوجة أبيها بالذهاب معها، تذكرت أرواح العظام، وذهبت إليها فى مكانها الآمن، ثم طلبت من العظام أن تحضر لها رداء مناسبا حتى ترتديه وتذهب به إلى المهرجان. ولبت العظام للفتاة طلبها، وفجأة وجدت نفسها ترتدى ثيابا من أفخم الثياب التى قدد رأتها فى حياتها، وكانت الفتاة الجميلة وهى ترتدى الرداء الأزرق السماوى مع غطاء أزرق من الريش الرفراف الذى كان يرفرف حول أكتافها. وفى قدميها لبست حذاء جميلا، وكان هذا الحذاء منسوجا من خيوط ذهبية فى نمط جميل. وقد أحست عندما سارت بالحذاء أنها أخف من الهواء. وقد حذرت أرواح العظام الفتاة من عدم فقدان النعال.

وعندما وصلت «شين ياه» إلى المهرجان كان الجميع ينظرون إليها وهى تمشى فى طريقها. وزوجة الأب وابنتها - خطوة أقرب من «شين ياه» التى بدت جميلة جدا وقد أعجب بها ملك الجزيرة.

وعندما شعرت «شين ياه» أنها تأخرت حيث قد حذرتها العظام من عدم التأخير - وانطلقت من المهرجان مخلفة وراءها واحدة من الحذاء الذهبى.

وعندما وصلت إلى المنزل قد تحول الرداء الجميل الذى كانت ترتديه مرة أخرى إلى الرداء الممزق. وتحدثت مرة أخرى إلى العظام. ولكنها هذه المرة كانت صامتة ولم تجبها.

وبحزن قامت الفتاة وخبأت الحذاء الذهبى فى القش.

وبعد مرور بعض الوقت وجد تاجر هذا الحذاء الذهبى فى القش حيث خبأته الفتاة. وقد علم قيمة واحدة الحذاء الذهبية وقرر التاجر بيعها إلى ملك جزيرة «الهان». وكان الملك يريد أن يجد صاحبة هذا الحذاء وهى الفتاة الصغيرة والجميلة. وقد بعث الناس فى كل مكان فى المملكة للبحث عنها. ولكن كان الحذاء لا يتناسب مع قدم أى واحدة من الفتيات اللاتى قابلوهن. وقد أمر ملك الجزيرة حراسه أن يبحثوا عن الفتاة جانب الطريق حيث تم العثور على الحذاء. وقد قرر إعلان مكافأة لمن يجد صاحبة الحذاء الذهبى.. ثم انتظر الملك.

وكما كان متوقعا. جاءت جميع النساء لمحاولة لبس الحذاء. وفى الليل المظلم وجد أحد الحراس «شين ياه» وهى عائدة إلى المنزل، وطلب منها أن تلبس الحذاء الذهبى والذى انزلقت قدماها بهدوء داخله.

وقد هرع الرجل إلى الملك وأخبره أنه وجد صاحبة الحذاء وقد ألقى القبض عليها. وقد أمر الملك بنقل الفتاة إلى قصره فى المملكة حيث إنه لا يستطيع أن يعيش بدونها. كما أنه جلس يتطلع فى وجهها، وقال لها إنه قد بهر من جمالها وأنه يريد الزواج منها. وقد أمر الملك رجاله أن يعيدوا للفتاة حذاءها الذهبى. كما أحضر لها ثوبا جميلا. وذهبا سويا إلى المهرجان. وقد تزوجت «شين ياه» الملك وعاشت معه فى سعادة دائمة. أما زوجة الأب وابنتها فلم يسمح لهما بزيارة «شين ياه» وقد أجبرتا على مواصلة العيش فى الكهوف حتى فى يوم ما هدم عليهما الكهف وسحقتا حتى من أثر سقوط الحجارة عليهما.

■ ■ ■

عيد تشونغ تشيو

يعتبر فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن حسب التقويم القمرى الصينى، من أكبر الأعياد التقليدية الصينية. وعادة ما يتجمع كافة أفراد العائلة ويأكلون كعكة القمر «كعكة يوى بينغ»، والفواكه. ويتمتعون بالبدر المشرق الجميل، وهناك حكاية حول هذا العيد نسردها عليكم بإيجاز حسب الأسطورة القديمة:

تستمر الحكاية مع بطلى قصتنا وهما «هو يى» و «تشانغ أيه»، فمع مرور الأيام، شعر «يهو يى» بالأسف الشديد تجاه زوجته الحزينة، وسمع أن على جبل كونلون عشبا سحريا ويستطيع الإنسان إذا تناوله الصعود إلى السماء ليصبح إلها، لذلك توجه إلى جبل كونلون وجلب ذلك العشب، لكنه مع الأسف لم يكف الاثنين، وكان «هو يى» لا يريد الصعود إلى السماء وحده، فحمل العشب إلى البيت وخبأه.

لكن زوجته «تشانغ أيه» لم تعد تحتمل الحياة الفقيرة والصعبة. وعثرت على العشب السحرى عندما خرج زوجها من البيت وتناولته، وفجأة، شعرت بأنها خفيفة جدا ورفرفت نحو السماء ووصلت إلى القمر فى النهاية، ودخلت قصر يدعى «قوانغ هان قونغ» وأصبحت صاحبته.

ويبقى «هو يى» وحده حزينا جدا فى عالم البشر، ويعيش اعتمادا على الصيد وتعليم الصبيان إطلاق السهام، وكان بينهم شخص اسمه «فونغ منغ» يتقدم بسرعة، وشعر «فونغ منغ» بأنه لن يصبح الأول فى العالم طالما ظل أستاذه «هو يى» حيا، لذلك سولت له نفسه قتل معلمه فقتله وهو سكران.

أما «تشانغ أيه» فظلت تعيش وحدها فى القمر الهادئ واللطيف حتى اليوم، وتشتاق إلى زوجها وحياتها السعيدة بين حين وآخر، خاصة فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن القمرى حيث يصبح القمر بدرا جميلا.

النبال الكبير

نص الأسطورة:

بين الأوراق اللماعة للشجرة الأسطورية عاشت عشر من الشموس الشريرة. وتركوا لوحدهم للعب فى الجنة، وقد أهملوا من قبل آباءهم. إله الشمس «ديجون» وإلهة الشمس «شيهو». وكل يوم كانت تترك «شيهو» السماء فى صدفة لؤلؤية وتسحب فى عربة بستة تنينات صغيرة نارية. وعلى الشجرة الأسطورية. تناوبت الشموس التسلق إلى رأس الشجرة للقفز إلى العربة وجعلها تدور بهم كما كانوا يفعلون من قبل.

كانت الإلهة «شيهو» تحرك عربتها عبر السماء، لتسليط الضوء والدفء بانتظام فى جميع أنحاء العالم والتى أيقظت الديكة. وكان هذا هو شغلها وعملها وعمل أبنائها أيضا.

لكن «شيهو» كان لابد عليها أن توبخ أبناءها بشكل دائم وذلك لتثبيت حرارتهم أكثر من اللازم فى الأماكن التى أسرت اهتمامهم.

وبينما كانت شمس واحدة تؤدى واجبها بشكل مضبوط، كانت الشموس التسع تمرح بين الأوراق المتعرجة للشجرة الأسطورية.

وكانت الشموس فى أوقات العصر عاطلة يطاردون بسعادة بعضهم البعض فى أنحاء الشجرة، ثم فى الغسق يبردون أنفسهم فى المحيط.

انتظروا عربة أمهم بلهفة. وكانت الشمس أمهم تهبط دائماً فى سلسلة من الدوارات الرائعة الهتافات الصاخبة من أبنائها الشموس العشرة. وعلى أية حال، بعد العديد من السنوات، أصبحت الشموس ضجرة. وكل منهم خطط لقضاء وقته الأكثر فى اللعب، والوقت الأقل فى العمل.

ويوماً ما ،قرروا مقابلة السماء، كلهم سوية، قبل أن تصل أمهم. وتمنوا لو أنها تولد ضوءًا ودفء كافيًا يدوما لعدة أيام. وبذلك لا يحتاج أحد للعمل لفترة قصيرة.

ولما كانت الشموس العشرة تطارد بعضها البعض عبر السماء، إذ بالرطوبة على الأرض تتبخر ببطء .. والضوء الذى بعث من الإخوة الشموس سوية كان يعمى.. كما أن حرارتهم أحرقت التربة، وجففت الأنهار. أما المحاصيل فقد ذبلت، والعديد من الناس ماتوا من العطش فى الأرض.

وكان لا يوجد شىء للأكل عدا سبانخ الماء، الذى بالكاد نما فى طين حقولهم. والوحوش ظهرت فى البحار والسماء لاختطاف الناس من بيوتهم. وقد صلى الناس إلى الآلهة ليلاً ونهاراً للنجاة. وعندما وصلت صلاواتهم إلى الشمس أخيراً أصبح الإله «ديجون» والد الشموس العشرة، غاضبًا جدا من أنانية أبنائه وكسلهم. وعندئذ دعا «ديجون» أفضل رامى، وهو النبال الكبير «واى». وأعطى إله الشمس لـ «واى» عشر أسهم سحرية.

وطلب منه معاقبة أبنائه الأشقياء. وعندما رأى النبال الكبير «واى» كل المخلوقات الميتة على الأرض، ملئ بالحزن وصاح فى الشموس وأمرهم لإيقاف الغباوة، لكنهم قفزوا فقط حول النبال الكبير، دون أن يهتموا له.

وعندما هددهم بضربهم بسهامه السحرية ضحكت الشموس، لأنهم عرفوا أنهم أبناء إله الشمس «ديجون» وأن النبال الكبير كان مجرد خادم محكمة سماوى عند والدهم. وبغضب، مسك النبال الكبير «واى» سهمًا سحريًا واحدًا وأخرج رعشته ثم صوب السهم بعناية إلى قلب الشمس الأكثر تبجحاً. وقد طار السهم مباشرة إلى قلبه.

وبسرعة تدمرت ونزلت من السماء فى شكل كرة من النار. وعندما وصلت إلى الأرض، تحولت الشمس المدمرة إلى غراب أسود ضخم طول جناحه ثلاثة أقدام، وبعد ذلك مات. ثم بدت الأرض أبرد فورًا.

وبعد أن شهدت الشموس الأخرى ما حدث للشمس المتبججة أصبحت خائفة، وتبعثروا فى كافة أنحاء البلاد، محاولين الهروب.

لكن، النبال الكبير تعقبهم إلى أسفل واحدًا بعد الآخر. وفى كل مرة كان يقتل أحد الشموس. بعدها فورًا تكون الأرض أبرد.

وضرب الشمس الثانية بنشاط، وأخذت تتموج بين الغيوم ثم ضرب الشمس الثالثة، والسحب كانت حول الجبال العالية. وضرب الشمس الرابعة، وقطر الندى كان له شكل مثل اللآلئ على كل ورقة. وقد تفوق عليهم أكثر، وضرب الشمس الخامسة وفصول الربيع كانت خارج التلال الصخرية. ثم تحرك وضرب الشمس السادسة والأنهار تموجت. وبعد ذلك ضرب الشمس السابعة والفروع والأوراق الخضراء المعشبة قد انتشرت فى كل مكان. ثم ضرب الشمس الثامنة وقد تفتحت البراعم على الأشجار. ثم ضرب الشمس التاسعة وقد تطايرت عشبان الأرز.

أقسم النبال الكبير «واى» على إيجاد الشمس الأخيرة وتقديمها للعدالة.

كانت الأرض قد بردت بكل مثير جداً بحيث كانت مريحة للفلاحين. الذين أرادوا من النبال أن يترك الشمس الأخيرة لتضىء لهم. ولذلك قبل أن يتمكن من أن يصوب سهمه الأخير إلى الشمس الأخيرة، قد انسل ولد شجاع خلفه وسرق السهم العاشر. وبعد هذا العمل الشجاع، شجع الفلاحون الولد الشجاع بما فيه الكفاية لاستجداء النبال الكبير وذلك حتى يترك الشمس الأخيرة لإضاءة السماوات.

وقد مُلِئ «واى» بالشفقة على المزارعين، ووافق على أن يترك الشمس الأخيرة التى بقيت فى السماء.

وقد ندبت هذه الشمس الأخيرة خسارة إخواتها وكانت منكوبة، لأنها مضطرة للقيام برحلتها اليومية لوحدها. علاوة على ذلك، رفضت أمها التماسها أن تستعير عربتها، كما رفضت التنينات التى كانت تجر العربة سحبها. وأخذت

الشمس تقطع السماء كل يوم من البداية إلى النهاية، ومشت الشمس الأخيرة عبر السماء فى خلوة، وقد جلبت الضوء والدفء إلى العالم حتى الخلود، وعندئذ عاد الازدهار إلى الناس. ونمت المحاصيل ثانية، وروت الأنهار عطشهم. واستحمت الحيوانات فى الماء العذب وعاد شروق الشمس الواضحة.

وشكر الناس النبات الوحيد وهو سبانخ الماء،الذى نما فى المياه الموحلة، وسمح للناس بالنجاة فى وقت الجفاف الفظيع الذى سببته الشموس الطائشة العشرة.

■ ■ ■

وصف قائد مظفر

وجد على النقوش، على آنية مقدسة - المراسم النموذجية التى شارك فيها، وكانت فى جانب منها عبادة، وفى الجانب الآخر حفل ملكى.

وترتيب الحفل يشبه أى حفل تتويج حديث، والنظام يشبه نظام القداس البابوى للعشاء الربانى..

ومنصة الذبح بُنيت بدقة فائقة تتفق مع نظرية توزيع الصوت، بحيث يسمع الترتيل فى المعبد كله.

وفى اليوم السابق ليوم القربان يُقام عرض فخم يتقدم إلى ساحة المعبد، ما تتمثل فيه الأساطير التاريخ الدينى للشعب الصينى، ويتقدم فيه الإمبراطور، يحيط به الحرس والموسيقيون والراقصون والقواد وأصحاب الأعلام والمظلات والرياش والريش.

وفى الليل يظل الإمبراطور ساهرًا صائمًا، بينما يقوم رئيس الكهنة ومساعدوه بتنظيم جميع الأشياء، ويضاء مصباح ذهبى، ويكوم الخشب لحرق الضحية، وتوضع على منضدة مستقرة أجسام الضحايا.

قال: فى اليوم الأول، وقبل الشروق، يقوم الكهنة الكبار بتجهيز الملك فى قصره، ثم يتقدم الملك إلى معبد الأسلاف، وقد وقف أمراء الإقطاع العائدون من الحملات العسكرية أمام البوابة الجنوبية، ثم يدعون إلى الفناء الكبير، حيث يعرضون أسراهم.. التى بهم تكون الأضاحى كقرابين فى معبد الأسلاف، ويلقى التقرير النهائى للحملة.

وفى اليوم الثانى تولم للرعايا الموجودين وليمة من اللحوم والخمر مكافأة لهم من الملك.

ومن الترانيم التى تتلى فى هذه المناسبات الدينية:

«بهدوء جليل، وانسجام مهيب، يسجل الوزراء والفرسان الحاضرون، فضائل سيدهم المنشئ، المتكفل بنا من قبل السماء، الملك العظيم ون WEN/ آه يا مولاى، يا ابن السماء».

■ ■ ■

الملك شقرا

كان فيما مضى من الأزمان، ملك على جانب عظيم من كرم النفس وطيب الخلال. وكان شعبه قد أطلق عليه اسم «شقرا» وهو اسم لأحد الأشكال التى يتجلى بها بوذا على الأرض، وهذا دليل على ما كان يتحلى به ذلك الملك من الصفات الحميدة، والفضائل الباهرة.

فما من بائس مسكين التجأ إليه، إلا أغاثه وأعانه، وما من مظلوم هرع [1] إلى ساحة عدله، إلا نصره وانتصف له من ظالمه، ولو كان ذلك المظلوم وضيعًا حقير الشأن.

وكانت الحاشية التى يتألف منها بلاطه قليلة العدد، ولم يكن للأعياد التى يقيمها فى قصره، أية فخامة أو أبهة[2]، على حين كانت المدارس والمستشفيات والملاجئ فى مملكته، كثيرة واسعة أنيقة، تتوافر فيها جميع أسباب الراحة، وينفق عليها فى كل عام أكبر جانب من دخل الدولة.

وعاش الناس فى هذه المملكة سعداء هانئين، حتى إن ملوك البلاد المجاورة، أمروا بإقفال الحدود بين ممالكهم وهذه المملكة، ليمنعوا رعاياهم من الهجرة إليها جماعات جماعات.

وضاق أحدهم هؤلاء الملوك المجاورين ذرعا[3]، بما كان يسمعه ليل نهار من الثناء على الملك «شقرا»، فعزم على أن يحاربه ويستولى على بلاده.

ولم يكن هناك أى سبب ظاهر، يحمل ذلك الملك، واسمه «أم رى»، على أن

---

(١) هرع: أسرع مضطربًا.

(٢) الأبهة: العظمة.

(٣) الذرع: بسط اليد والقدرة. وضاق بالأمر ذرعًا: لم يقدر عليه.

يناصب الملك «شقرا» العداء. سوى ما كان يحس به من سخط. عندما يسمع الناس يفاضلون بين أعماله وأعمال الملك «شقرا». فتشول (١) كفة ميزانه. وترجع(٢) كفة جاره رجحانًا كبيرًا. فيتألم وينطوى على عزته المجروحة. ويتخذها سببًا وجيهًا فى محاربته الملك «شقرا» والرضى بما تسفر عنه الحرب من حزن وخراب.

فلما جاء سفير الملك «أم رى» إلى الملك «شقرا» يعلن عليه الحرب، استولت على الملك «شقرا» دهشة شديدة، حتى إذا ثاب إليه رشده. سأل السفير عن السبب الذى يحمل جاره الملك على محاربة بلاده المسالمة الوادعة. وأنهى إليه أنه يقبل تقديم المعاذير التى يفرضها الملك «أم رى» إذا كان فى هذا حقن (٣) للدماء. وتجنب ويلات الحرب.

فرد عليه السفير باسم مليكه «أم رى» وبلهجة جافة قاسية. وقال: إنه لايقبل أى عذر من الأعذار.

فاضطر الملك «شقرا» إلى دعوة رعاياه للانخراط فى سلك الجندية، وإلى تعبئة الجيوش، وإمدادها بما يلزم من سلاح وعتاد(٤).

واستكبر رعايا الملك «شقرا» ما يراد بهم من ظلم وجور، فأقبلوا على التجند إقبالاً منقطع النظير، غير أن هؤلاء الناس المشهورين بالحلم والوداعة والسكون، ما كانوا ليستطيعوا أن يجابهوا جيوشًا تمرست بالحرب والقتال، فاضطروا أن يتقهقروا منهزمين، عند أول صدام حدث بينهم وبين جيش الملك «أم رى» ولا سيما أن الملك «شقرا» كان قد أمر قوادهم أن لا يعرضوا الجند للقتل والهلاك، فيما لا طائل تحته ولا فائدة.

وبعد يومين من بدء القتال، زحف جيش «أم رى» زحفًا متواصلاً، وعسكر

---

(١) شال الميزان: ارتفعت إحدى كفتيه.

(٢) ترجح: تثقل.   (٣) حقن الدم: لم يرقه.

(٤) العتاد: المعدات.

على أبواب عاصمة الملك «شقرا».

وأرسل قائد الجيش المحاصر يعلن المحاصرين شروط التسليم، ويخيرهم بين الإبقاء على حياتهم إذا سلموا المدينة بلا قيد ولا شرط، وبين إعمال السيف فيهم جميعًا. وذبحهم عن بكرة أبيهم.

وعندما أقبل رسول العدو يعلن هذه الشروط، ويتلوها علنًا على رؤوس الأشهاد من قواد الملك «شقرا»، لم يتلق عنها إلا جوابًا واحدًا، فقد صاح جميع السامعين صيحة واحدة قائلين: «الحرب حتى الموت!».

فأشار الملك «شقرا» إشارة إلى رعاياه، فلزموا الصمت، وساد المكان سكون عميق، فنهض الملك من عرشه نهضة المفكر الحازم وقال للرسول:

- «بلغ مولاك يا سيدى أنى أقبل بتسليم المدينة إليه.»

فخيم على الحاضرين السخط والدهش، فتابع الملك كلامه وقال:

- «حسبى سلامة شعبى، فعذاب نفسى وفقدان ملكى لا يقاس فى شىء إلى هلاك الآلاف من النفوس البريئة. لقد أعطانى بوذا هذه المملكة، وها هذا يستردها منى، فلا أقلَّ من أن أعيدها إليه غير ملطخة بالدماء. فاخفضوا سلاحكم يا رفقائى الأعزاء.

إن مهمتكم قد انتهت بانتهاء مهمتى، فعسى أن تقبل منا السماء هذه التضحية، وتضع بلادنا بين أيد حكيمة!».

وعلى الأثر ، ألقى الملك «شقرا» بصولجانه(١) . وخلع طيلسانه(٢) الملكى المذهب، ونزل درجات العرش وهو يحيى الزعماء والرؤساء المزدحمين حوله. ثم خرج من القصر.

ومر فى طريقه بالإصطبلات، فسمع صهيلاً(٣) حزينًا، فقد شعر جواده

---

(١) الصولجان: العصا.

(٢) الطيلسان: الرداء. (٣) الصهيل: صوت الجياد.

بقدومه، فأقبل يحييه صاهلاً مهمهمًا.

فوقف الملك «شقرا» لحظة، وأمر كفه على رأس جواده يمسحه ويداعبه، ونظر إلى عينيه فرآهما تلمعان كأنه يقول له بهما: «خذنى معك». فقال الملك «شقرا»:

- «كلا يا عزيزى.. لا أستطيع أن أصحبك، فجميع ما أملك أصبح من حق الظافر المنتصر، إلا حياتى. فوداعًا يا جوادى الكريم!».

وازدحم الناس حول الملك وهو يجتاز الشوارع، وأقبلوا يحيونه. ويتوسلون إليه باكين منتحبين، أن يبقى معهم أن يحارب.

فوقع هذا الشعور الجميل من نفس الملك أجمل وقع، ولكنه مع ذلك لم يتوقف عن مسيره. وكان جيش الملك «أم رى» فى تلك اللحظة يدخل المدينة خفَّاق الأعلام، وتصدح (١) موسيقاه صداح النصر والفوز، ويستولى على المراكز والأسوار، حتى وصل الملك «أم رى» إلى القصر، فجلس على العرش الذى أخلاه الملك «شقرا».

وابتعد الملك المخلوع المقهور عن عاصمته، وهو مطمئن القلب قرير العين، وتوغل فى البرارى والحقول حتى لا يلحق به أحد. لقد كان مفجوعًا بالملك الذى فقده، ولكن عزاءه الأوحد عنه أنه اشترى به سلامة شعبه وحياة رعاياه.

حسبه أنه حقن الدماء، وجنب الناس الثُّكل واليتم ولبس الحداد. قد تنظر إليه العصور المقبلة، نظرتها إلى ملك ضعيف لا مجد له ولا سؤدد، إلى ملك لم يقس شجاعته إلى شجاعة سواه، ولا دافع عن حياته وملكه، وضحى فى سبيل ذلك بأرواح رعيته، ولكن أكان يستطيع أن يقسو تلك القسوة بعد إذ عهد إليه بوذا فى قطيعه، وأوصاه أن يكون ذلك القطيع نعم الراعى الصالح!!

كان الملك غارقًا فى مثل هذا التفكير، فصدمه رجل يركض مقبلاً على عكس اتجاهه.

---

(١) تصدح: تعزف.

وكاد الرجل يسقط إلى الأرض من شدة الصدمة، لولا أن الملك «شقرا» أمسكه وحال دون سقوطه، ثم قال له متلطفاً:

- «أراك تتعجل الخطى يا صديقى، فماذا الذى يستعجلك هذا الاستعجال»؟

فقال الرجل:

- «كنت راكضاً إلى المدينة لأطلب من ملكنا الصالح المعونة والحماية».

فقال الملك «شقرا» وقد علت شفتيه ابتسامة حزينة:

- «لعل الوقت غير ملائم يا عزيزى». فقال الرجل:

- «ولماذا؟» فقال الملك «شقرا»:

- «لأن الملك قد خلع عن العرش، واستولى عليه الملك «أم رى» فصاح الرجل:

- «وماذا فعل بأمواله وخدمه؟» فقال الملك «شقرا»:

- «لقد ترك كل شىء، ولم يصحب معه أحدا».

فقال الرجل:

- «وأين هو الآن؟»فقال الملك «شقرا»:

- «إنه واقف إزاءك».

فنتف [1] الرجل شعره يأساً وغماً وقال:

- «يا للداهية! ها أنت ذا أيها الملك فقير بائس هائم على وجهه، ولعلك أشقى منى وأفقر!» فقال الملك «شقرا»:

- «نعم يا صديقى. ولكن تعز وكفكف عبراتك، واستسلم صابراً مذعناً إلى المحن التى يمتحننا بها الرب القدير.

إن حزنك لينال منى كل منال، ولكن لاترث لحالى هذا الرثاء...» فقال الرجل وهو يذرف سيلاً من الدموع:

(١) نتف الريش أو الشعر: نزعه.

ـ «إننى أرثى لحالى وأبكى على نفسى يا مليكى. صحيح أن مصابك يؤلمنى، ولكن مصابى أدعى إلى الرثاء والإشفاق.. لئن أصبحت مجردًا من الملك والمال، لقد أردت أنت ذلك، وإن أصبحت وما من مأوى يؤويك، أو خبز يقوتك، أو صديق تسكن إليه، فإنما أنت الذى أراد ذلك. أما أنا فقدت كل شىء، ولست بمستطيع حتى أن أعزى نفسى وأقول: «أنا أردت ذلك» فقال الملك «شقرا» حزينًا متأسفًا:

ـ «ماذا تقول يا صاح؟ أكنت على هذا القدر من البؤس والشقاء؟ لقد كنت أعتقد أن ليس فى مملكتى حزن ولا فقر، إنى اجتهدت طول حياتى أن أحارب هذين البلاءين، على ما كان يوحيه إلى الضمير والواجب حتى لقد ظننت أن كل واحد من رعيتى ناعم بقسطه من البحبوحة[1] والسعادة».

فقال الرجل:

ـ «أكنت تستطيع أن تلجم[2] غضب الطبيعة، وتحول دون ما تحدثه من دمار وخراب؟ إن البرد قد اكتسح حقلى، والصواعق قد هدمت منزلى، وكنت أوشكت أن أتزوج، فإذا بى أصبح أسير الفقر المدقع [3]، وليس عندى شىء أهديه لعروسى الغالية. فهرعت إليك على أمل أن ترد لى منزلى وعملى وهناءتى، فخاب فألى، فأنت اليوم فقير ضعيف».

واستمر الرجل يبكى، والملك «شقرا» مطأطئ الرأس غمًا وحزنًا. ثم انتفض الرجل فجأة وقال مغضبًا محنقًا:

ـ «ولماذا قبلت أن تكون فقيرًا ضعيفًا؟ لقد كنت الملك، فبأى حق تنزل عن ملكك، وتكف عن حماية الطامعين فى عونك وجودك؟ فلو بقيت جالسًا على عرشك، لما كنت أنا اليوم شقيًا بائسًا تلفظنى الحياة.» فاحمر وجه الملك «شقرا» وقال:

---

(١) البحبوحة: رغد العيش.

(٢) الجم الدابة: ألبسها اللجام.

(٣) الفقر المدقع: الفقر الشديد.

ـ «اعلم يا عزيزى أننى نزلت عن عرشى لأنقذ حياة الآلاف من الناس، وأننى بعملى هذا قد لبيت نداء الإنسانية..»

فقاطعه الرجل قائلا فى مرارة ويأس:

ـ «قد تكون أنقذت حياة الآلاف من الناس، ولكنك أضعتنى وطوحت بى فى مهاوى البؤس والفقر والعذاب، فأنت المسؤول الأوحد عن هذا كله.» فاضطرب الملك «شقرا» وغامت[1] السماء فى وجهه وقال فى نفسه:

ـ «عجبًا! أترانى أخطأت فى عملى، وتنكبت بواجبى عن محجة[2] الصواب؟ ولكن لا. لا. فإنما عملت ما فيه مصلحة الناس طرًا، وأنَّى لى أن أعلم أن الرجل..»

ثم التفت إلى محدثه، ووضع يده على كتفه وقال:

ـ «اسمع يا صديقى.. كن شجاعًا..»

فقال الرجل:

ـ «إننى أشقى من أن أعرف معنى الشجاعة.. كنت أرجو منك الكثير.. كانت آمالى كلها معلقة بك..»

فقال الملك «شقرا»:

ـ «نعم، نعم، لقد أسأت إليك دون أن أعلم».

فقال الرجل:

ـ «وكنت راحلاً فى هدوء واطمئنان قلب، فى حين أزفر أنا وأنتحب يأسًا وغمًا.. يا للظلم! يا للظلم!»

فقال الملك «شقرا»:

---

(١) غامت السماء: كانت ذات غيم.

(٢) المحجة: جادة الطريق ووسطه.

- «وددت لو كانت أرزاقى وأموالى التى فقدتها، لاتزال فى يدى دقيقة واحدة أخرى، لأعوضك عن الضرر الذى سببته لك بنزولى عن العرش. ولكن ليس فى يدى شىء فأعطيك إياه..»

- واغرورقت عينا الملك «شقرا» بالدموع، ثم مسحهما فجأة، ولمع فى خاطره بريق رأى جديد. فقال للرجل:

- «قلت لك ليس عندى شىء فأعطيك إياه.. لقد كنت مخطئًا.. فعندى حريتى.. سرقتها من شعبى.. فإنقاذ حياتى من الهلاك هو الأثرة[1] بعينها.. فهيا يا صاحبى وخذ بيدى. ولنعد معًا إلى المدينة..» فقال الرجل:

- «وماذا تريد من عودتك إلى المدينة؟»

فقال الملك «شقرا»:

- «أريد أن تسلمنى إلى الملك «أم رى» فسوف يدفع ثمن أسرى غاليًا، وبهذا تستطيع أن تعيد بناء منزلك، وأن تزرع حقلك، وتستعيد سعادتك.. هيا تعال...»

فصاح الرجل:

- «كلا. كلا. يا مليكى! هذا مستحيل. فقد يغيبونك فى السجون، وربما قتلوك».

فقال الملك «شقرا» مستسلمًا:

- «لتكن مشيئة بوذا! اقطع بعض الأغصان اللينة من هذه الصفصافة وقيد بها يدى. ثم إليك سيفى فأنا أسيرك.

صدقنى أن الملك «أم رى» سيكون معك كريمًا جوادًا، وسأكون أنا لك من الشاكرين، فلعلى قصرت فى أداء كل واجدى عندما رحلت عن عاصمتى سليمًا معافى.».

---

(١) الأثرة: اختصاص المرء نفسه بأحسن الشىء دون غيره.

فارتمى الرجل عند قدمى الملك، متوسلاً إليه أن يصفح عنه وينسى ما قاله له فى ثورة غضبه، وأن يعفيه من تسليمه إلى عدوه، ولكن الملك «شقرا» أصر على ما ارتأى وصمم، ولم يحد عنه قيد[1] شعرة.

وبعد ساعات قلائل، كان الرجل هو وأسيره فى حضرة الملك «أم رى». فلما رأى هذا أسيره مكبلا بالقيود، صاح من شدة الفرح وقال:

- «ها هو ذا عدوى فى قبضة يدى، فسوف أنتقم منه شر انتقام، فلن أعود أسمع بالملك «شقرا» ولن يخدش مسمعى حديث الناس عن فضائله وحميد خلاله.. من أسره؟ إن صاحب هذا العمل الجليل، جدير أن أكافئه بألف صرة من الذهب. أهو أحد جنودى؟».

فقال الرجل وقد ركع فى حضرة الملك:

- «كلا يا أيها الملك! فأنا أحد أتباع الملك «شقرا» ومعنى هذا..» فقاطعه الملك «أم رى» فى ازدراء واحتقار:

- «معنى هذا أنك خائن.. ولكن لن أظهر بمظهر المتعنت، فحسبى أسر عدوى. فضع أيها الرجل سلاحك هنا، واذهب إلى خازنى، وقدم له هذه الكلمة التى سأكتبها لك، ينقدك[1] الألف صرة من الذهب.» فقال الرجل وجلاً وخجولاً:

- «لا أحمل سلاحًا يا صاحب الجلالة»!

فقال الملك «أم رى»:

- «ألا تحمل سلاحًا؟! فكيف استطعت إذن أن تأسر الملك؟» فسارع الملك «شقرا» إلى الكلام وقال:

- «حسبك أيها الملك «أم رى» أنى أسير هذا الرجل، وأنى فى قبضة يدك

(١) قيد شعرة: قدر شعرة.

(٢) نقده الثمن: أعطاه إياه نقدًا معجلاً.

وسلطانك!» فدهش الملك «أم رى» ونقل نظره بين الملك المغلوب وآسره، فاستولت على نفسه عوامل مضطربة متضاربة، وبينما هو غارق فى تفكيره، اقترب الرجل على عرشه وقال هو يلهث من الاضطراب:

- «أيها الملك! لست أنا الذى أسر الملك «شقرا»، فإنما هو الذى أمرنى بأسره وتسليمه إليك. ففعلت هذا على كره منى».

وقص الرجل فى كلمات متقطعة مرتجفة، قصته مع الملك «شقرا» منذ أن لقيه وهو هارب، إلى الساعة التى أمره فيها بأسره وتسليمه إليه. وعبثاً حاول الملك «شقرا» أن يقطع حديث الرجل، ويحول دون تتمته. فكان «أم رى» يستمع له مرهف الأذن، ممدود العنق، جاحظ العينين، فما كان قد سمع قط بمثل هذا الحديث الذى جاء يحطم كبرياءه واستبداده. وعندما فرغ الرجل من حديثه، نهض الملك «أم رى» عن عرشه، ومشى فى خطوات وئيدة[1] إلى الملك «شقرا»، ففك قيوده، واضطره إلى أن يجلس على عرشه، ثم انحنى أمامه وقال:

- «عد إلى عرشك وتاجك أيها الملك الجليل!.. إنى كنت لا أطيق سماع الحديث عن ملك صالح، فما بالك لو اتهمت بتعذيب قديس من القديسين!..».

■ ■ ■

(١) وئيدة: متأنية.

الميثـاق

كان أحد الجُرذان، يعيش فيما مضى من الزمان. في ثقب صخرة كبيرة. وكان ذلك الجحر مخزنه ومأواه. فكلما عاد من جولات البحث عن الطعام، ولمح وهو راجع باب جحره، تملكه سرور لا يوصف، وتنفس فرحان مغتبطًا.

وفى مساء يوم من الأيام، عاد إلى جُحره يجر جوزة صنوبر، ويمنى النفس بأن يتلذذ بها فى فصل الشتاء. فاسترعى انتباهه نور متألق براق، يسطع من الغابة القائمة تحت سفح مسكنه.

فلم يدهش للأمر، لأن الفلاسفة الشيوخ - وكان الجُرذ واحداً منهم - لا يدهشهم أى أمر من الأمور، فقال غير حافل:

- «لعل كوكبًا من كواكب السماء وقع على الأرض!».

وتابع سيره. ورفع رأسه بعد قليل، فرأى الغابة تحترق، وتندلع[1] منها ألسنة النيران.

فارتعدت فرائص[2] الجُرذ، وأجال فيما حوله بصرًا خائفًا هالعًا، فرأى مختلف أنواع الحيوان فى الغابة، قد فر هاربًا من ذلك الخطر الداهم، وجرى واثبًا قافزًا كأن به مسًا من الجنون.

واختلطت فى ذلك الهرب أجناس الحيوان، فركضت الضارية منها الوديعة جنبًا إلى جنب، وسعت إلى القمم الجرد بوحى من غريزتها، واثقة بأنها الملجأ الأمين.

وسارع الجرذ إلى جُحره، دون أن يرمى بجوزة الصنوبر وقال فى نفسه:

---

(١) اندلع اللسان: خرج من الفم.

(٢) الفرائص: جمع فريصة وهى اللحمة بين الجنب والكتف أو بين الثدي والكتف ترعد عند الفزع.

ـ «سـاكـون فـيـه آمنًا مـطـمـئنًا، فلو امـتـدت ألسنة اللهب إلى مـا فـوق سـفـح الجبل، فليس هناك إلا بعض العوسج[١]، فـلا خـطـر إذن من أن يدركنى الدخان ويكتم أنفاسى».

ووصل إلى جُحره، وتنفس الصعداء، وشَعر فى هذه المرة عند وصوله إلى جحره، بسرور ما شعر به قط، ولكنه سرعان ما رجع عنه مذعورًا، فقد وجه فيه ضيفين ثقيلين، لم يتوقع أن يراهما فيه، وجد نمسًا[٢] قبيحًا، وحية رقطاء.

فارتجف وأخذ العرق البارد ينضح من كل جسمه.

فقال له النمس وقد أشار إليه بيده إشارة لطيفة:

ـ «اطمئن بالاً يا عزيزى، فالخطر الداهم يجب أن يمحو ما بيننا من نزاع وخصومة. لعلك رأيت الأسد يمشى إلى جانب الغزالة، فلا عجب إذن إذا جمعنى مسكنك بالحية الرقطاء».

فقال الجرذ متلعثمًا:

ـ «ولكن..» فقاطعه النمس وقال:

ـ «دع «لكن» هذه .. نحن هنا فى مأواك وضيافتك»

والموت مخيم على هذه البقاع بأسرها، فهل تجرؤ على العبث بشريعة الضيافة؟».

فحدق الجُرذ فى النمس طويلاً، ثم اقتنع بصحة كلامه، ورأى أن قسمًا كبيراً من شعر ذيله قد احترق، وأن قلبه لا يزال مضطربًا مذعورًا من خطر النار، أما الحية الرقطاء، فكانت منطوية على نفسها مأمونًا جانبها فقال النمس متلطفًا:

ـ «إن مسكنك ظريف، مريح، تتوافر فيه كل أسباب الراحة، ومخزنك مزدحم

(١) العوسج: من شجرة الشوك.

(٢) النمس: حيوان مثل القط قصير اليدين والرجلين طويل الذيل يصيد الفأر والحيات ويأكلها.

بالطيبات، ولقد ذقت شيئًا منها، فالجوع وليد الحوادث الكبرى.. لماذا تجلس عند عتبة الباب مستنشقًا هذا الدخان الخانق؟... قلت لك اطمئن بالاً ولا تخش بأسًا، فالميثاق الأكبر قد عقد بيننا الليلة على أن يرعى كل حياة الآخر.» فقال الجرذ خائفاً جازعاً:

ـ «إنى لسعيد بهذا الميثاق!» فقال النمس:

ـ «ونحن أيضاً سعيدان به، أليس كذلك يا عزيزتى الحية؟» فهزت الحية رأسها هزة الإيجاب. فقال النمس وهو يجيل بصره فى كل ناحية وزاوية من ذلك الجُحر:

ـ «إنى معجب بالطريقة المثلى التى نظمت بها حياتك فى هذا الجُحر يا عزيزى الجُرذ! أتعيش فيه منذ مدة طويلة؟».

فقال الجرذ وقد بدأ الاطمئنان يتسرب إلى نفسه شيئًا فشيئًا:

ـ «لقد ولدت فيه.» فقال النمس:

ـ «إنه إذن عزيز عليك حبيب إليك» فقال الجُرذ:

ـ «نعم وإنى لشديد التعلق به.»

فقال النمس وهو يملس خطمه [1] ويتظاهر بالكآبة:

ـ «إنك على حق يا عزيزى.. وإنى لأقدر هذا الحب والهيام، فلو كان لى حظ الحصول على مثل هذا المأوى. لما هجرته قط، ولما عدت[2] به شيئًا فى هذه الدنيا. وأنت يا عزيزتى الحية أما كنت فعلت فعلى؟».

فهزت الحية رأسها مؤمنة على كلام النمس.

وتابع النمس كلامه وقال فى ظرف ومودة:

«يسوؤنى أن الصداقة لا تربط بين قلوبنا، وإلا كنت طلبت إليك يا عزيزى

(١) الخطم: الأنف، وفي الطائر: المنقار.

(٢) عدل شيئًا بشيء: سوى بينهما.

الجُرذ، أن تسمح لى بالإقامة معك فى هذا المسكن، فهو يتسع لكلينا، بل يتسع لنا نحن الثلاثة، أليس كذلك يا عزيزتى الحية؟».

فهزت الحية رأسها علامة الإيجاب. فقال الجرذ متلعثمًا:

- «ومعنى هذا..» فقال النمس:

- «لا شىء يا عزيزى.. لا تشغل بالك بهذا الأمر. إليس كذلك يا عزيزتى الحية؟».

فهزت الحية رأسها هزة المؤمن الموافق. فقال النمس:

- «وهذا الميثاق الذي عقدناه بيننا... ما أجمل أن لا نَقّصره على زمن الخطر فقط، وأن نجعل أثره يمتد إلى ما لانهاية له من الأيام؟!».

فقال الجُرذ فى حماسة خامدة:

- «هذا أمر جميل حقًا» فقال النمس بلهجة مؤثرة:

- «لو محض[1] كل منا الآخر الود والمحبة، بدلاً من السعى فى ضرره وأذاه، ولو تعاهدنا على الإخاء والوفاء، لعشنا معًا حياة سعيدة هانئة، ينهض فيها كل واحد منا بنصيبه من العمل، فأنت ياعزيزى الجُرذ، تتكفل همتك ونشاطك بجلب الطعام، فى حين تعنى عزيزتنا الحية، بشؤون الجُحر وتنسيقه، أما أنا فسوف أعينكما وأزودكما بنصائحى. ثم ماذا الذى يمنعنا من أن نحقق هذا الحلم الجميل؟!».

فأخذ الجُرذ يرتجف خوفًا من تحقيق هذه الفكرة، ورمى بنظرة خاطفة إلى خارج الجُحر، ليرى إلى ماذا صار إلى الحريق، فقال النمس بلهجة قاطعة:

- «إذن اتفقنا. سنسكن معًا فى هذا الجُحر، ولن نفترق أبدًا. أليس كذلك يا عزيزتى الحية ؟!».

فلزمت الحية جانب الصمت، على أن النمس لم يحفل بهذا السكوت، فبدأ

(١) محض فلانًا الود أو النصح: أخلصه إياه.

ينظم شؤونه تنظيم من سيقيم مدى العمر فى ذلك المأوى، فبعثر ما كان ادخره الجرذ من نوى[1] الكرز، معًا فى أن يستبدل بها طعامًا أشهى على نفسه، ثم أعد له فراشًا من العشب اليابس الملقى فى إحدى الزوايا.

وكان الجُرذ ينظر فى حزن وكآبة إلى تلك الأعمال، ولكنه كان قد صمم على أمر من الأمور.

ألقى بنظرة خاطفة أخرى إلى خارج الجُحر، فعلم أن الحريق آخذ فى الخمود، فقال له النمس وقد رآه يتجه إلى مدخل الجُحر:

- «إلى أين يا عزيزى؟» فقال الجُرذ متضايقًا:

- «إنى ذاهب أبحث عن طعام.» فقال النمس:

- «هذا حسن. ولكن ارجع سريعًا ولا تتأخر».

فقال الجُرذ وهو يقفز إلى خارج الجُحر:

- «سأعود بعد قليل».

ولما صار خارج الجُحر، وأمن على نفسه غائلة الخطر قال:

- «أيها النمس» فقال النمس:

- «ماذا تريد» ! فقال الجُرذ:

- «أريد أن أودعك ليس إلا.. فمهما كنت أحب مسكنى وأهواه، فأنا للحياة أشد حبًا وهوى، وهذا الميثاق الذى عقدناه بيننا، لا ثقة لى به، فهو ميثاق أملاه القوى على الضعيف. أليس كذلك يا عزيزتى الحية».

وولى الجُذ الأدبار هاربًا قبل أن يسمع جواب الحية..

■ ■ ■

---

(١) النوي: جمع نواة.

سهران

كان قط يسمى «سهران» يعيش فى مخزن المؤن بأحد المنازل، وكان يشن[1] الغارات الشعواء[2] على الفئران والجرذان، ويأكل منها العشرات.

ولم تكن حتى فئران الحقول تنجو من هجماته، فكان يتعقبها فى أحجارها كما يتعقب أخواتها المتوارية فى جذوع الأشجار، وعلى الجملة فقد كان «سهران» كارثة الكوارث على عالم الفئران، تتحدث فيما بينها عن غزواته، وهى ترتعد فرقًا [3] وهلعًا.

فإذا خرج إلى جولاته القاتلة طائفًا البساتين والحقول، نفرت منه فصيلة القوارض، وركنت إلى الفرار.

فلو دبت الشجاعة فى بعض الجرذان وتوانت عن الهرب، ثم لاح لها عن بعد لتولاها الرعب الشديد، وتنادت إلى الفرار صائحة فى وجل واضطرب:

- «لقد أقبل.. لقد أقبل. إنها ساعتنا الأخيرة.. هيا بنا. لنترك له الأرض والديار».

ومهما أسرعت الجرذان الهاربة فى العدو والوثب، فقد كانت فى متناول مخالبه، وقلما عاد من غزوة من الغزوات صفر اليدين.

وفى المساء كان يجتمع بجيرانه من القططة، ويحيى معها ليالى ساهرة فى غناء وترانيم، ويقضى الساعات الطوال يحدثها عن أعماله الباهرة، فتستمع له معجبة مدهوشة، ثم تموء مواء [4] شجيًا، متغنية بمجد ذلك البطل وعظمته.

ومرت الأيام والأعوام، وبليت معها أكاليل الغار المعقود على رؤوس الأبطال،

---

(١) يشن الغارة: يوجهها في كل جهة. (٢) الشعواء: المتفرقة.

(٣) فرقًا: هلعًا. (٤) المواء: صوت القط.

فشاخ «سهران» وطعن[1] فى السن ككل مخلوق على هذه الأرض، ونشأت أجيال جديدة من الجرذان كانت لا تخافه ولا تحسب لسطوته كبير حساب.

وانقطعت غزوات «سهران»، فما عاد يستطيع أن يجتاز الحقول، ويبث فيها الخوف والذعر، وأصبح الفئران والجرذان فى منوع أجناسها وفصائلها، تعيش ناعمة هانئة، وتتمتع بحرارة الشمس التى تنضج الحصاد، وتلونه بشعاعها الذهبى، وتعده لها سلبًا [2] جميلاً.

اضمحل العهد الدامى، ودب فى «سهران» العجز بعد إذ كان الصياد الماهر، لا تفلت منه الفريسة لو اختبأت تحت أطباق الثرى.

واضطر إلى أن يقصر جولاته البطيئة على مراقبة المنزل، ثم اضطره الحال إلى لزوم مخزن المؤن، لا يريم [3] عنه ولا يغادره.

فكان يتمدد فيه ساعات طويلة، دون أن تحمله الحمية إلى البحث والتنقيب فى الزوايا والأركان، ولولا طبق الحساء، تأتيه به الخادمة فى كل يوم، وتجزى به خدماته السابقة، لكان ضحية الصوم الطويل. وكثيراً، ما كان يقول لنفسه وهو يلحس يديه ورجليه المتراخية:

- «آه.. ما أقبح الشيخوخة.. إنها نكبة شديدة، وأشد منها حزًا فى الصدر أن يصبح الشيخ مدعاة الاستهزاء.. ومن يستهزئ بك؟ فئران صغيرة لا تزال فى طور الرضاعة. إننى أسمع ضحكها وراء الأخشاب، وأراها أحيانًا تمد رأسها من عتبات أجحارها، وتتطلع إلىّ ساخرة هازئة، ثم تناديني قائلة: «ياعزيزنا سهران عجوز. لماذا لا تمسكنا؟ ماذا تنتظر؟ أتنتظر حتى تنبت أسنانك؟ هيا هيا تشجع فسوف نخرج إليك فاستعد لاستقبالنا. واحد. اثنان. ثلاثة. ثم تملأ الجو صفيراً منكراً. وأدهى من هذا أن أرى فى بعض الأحيان فأرة عجوزاً، تمر بى متباطئة متمهلة، غير هيابة ولا محترسة وتقول: «لعل سادتك قد فكروا فى شراء مصايد

---

(١) طعن في السن: كبر وهرم.
(٢) السلب: الشيء المسلوب.
(٣) رام عنه: تباعد.

تحل محلك.. لمثل هذا يكون الحزن والشجن».

فإذا انتهى «سهران» من هذه المناجاة، هز رأسه همًا وغمًا.

وفى صباح ذات يوم، أمعن الفئران فى الاستهزاء بذلك المحارب القديم كل الاستهزاء، فشعر بالحماسة تدب فى جوانحه، وتحيى فيه حب الوقائع والمعارك. فاغتنى بصقل شاربيه ومخالبه، وذهب يتمدد أمام أكبر جُحر فى مخزن المؤن، كانت جُرذان المنزل تجتمع فيه. وتعقد المجالس والمؤتمرات.

واستلقى إلى أحد جانبيه، وأغمض عينيه نصف إغماضة، وتماوت حتى يظن أنه يلفظ آخر أنفاسه، غير أن البريق الذى كان يتسرب من بين أجفانه، هو البريق الذى عرف به «سهران» إبان الكر والفر، كذلك كان أنفه الوردى يشهق ويزفر شهيق عهد الشباب وزفيره.

ومد أحد الجرذان رأسه من الجُحر، فلمح عدوه اللدود متمدد الجسم على مقربة منه فتملكه الذعر، وعاد يخبر ملكه والرعية بما رأى، ويقول:

- «رأيته.. رأيته عن كثب. ما أضخمه، إن شاربيه مرعبان.. والحق لقد خفت منه أنا الذى لا أخاف أحدًا».

فقال بعض الجرذان:

- «وما العمل؟ ولماذا استلقى أمام الجُحر الذى نعقد فيه مجالسنا؟».

وجرى جرذ صغير إلى وسط الحلقة، وكان أكثر الجرذان تهكمًا بالقط «سهران»، فقال لإخوانه بلهجة العالم المتكبر:

- «عجيبًا يا قوم.. أيكون عدونا على شفا الموت ونحسب له حسابًا؟ يا لنا من جبناء.. إن الخوف من القط «سهران» دليل على أن الخائف قلما خرج من جحره، فهو يجهل الحوادث الجارية. أما أنا الذى أطوف بالجبال والأودية، وأمى شاهدة على ذلك، فأستطيع أن أؤكد للإخوان أن القط «سهران» قد أصبح أهون من أن يخشى منه، فقد عجز عن الركض بل عن الحركة، حتى إن سادته يأتونه

بالطعام ليأكله. أفيخشى قط مثل هذا؟ إنى أمر مئة مرة فى اليوم أمامه، وأنا أتسكع تسكع المتنزه، وما استطاع قط أن يمد إلى يدًا.. فالخوف منه مدعاة إلى السخرية، ربما كان هذا الخوف معقولاً فى العام، الماضى، ولكنه فى هذه الأيام زى قديم.»

فاستقبل الشباب هذا الخطاب بحماسة وقبول، وهزت الكهول رأسها شكًا وريبة، فى حين أن الشيوخ التى بيضت السنوات شعرها وخففته كانت تتبادل نظرات الجزع والقلق.

فقال ملك الجرذان وكان كهلاً قوى النيوب والأرجل:

- «ما قول الإخوان فى هذا الكلام؟ أما أنا فقد عرفت القط «سهران» خبيثًا محتالاً، وأعتقد أن مجيئه إلينا أمر مريب. فلنبعث إليه رسولاً يستوضحه ما يريد.»

فقال جرذ عجوز:

- «إنها فكرة جميلة ولست أرى خيرًا منك فى أداء تلك الرسالة ما دمت زعيمنا.. فذكاؤك وحرصك وشجاعتك..» وانهالت على الملك عبارات الثناء، فما استطاع أن يرد القيام بتلك المهمة، فذهب إلى فتحة الجُحر، وحدق طويلاً فى القط «سهران».

نظر إليه فرجع عنه لأول وهلة خائفًا، متأثرًا بالعداوة القديمة المستحكمة بينهما، ولكنه لما أعاد النظر إليه، وجده لا حراك به ولا حياة. فأهاب [1] بشجاعته، ووقف عند مدخل الجحر متحديًا منتفخًا. فقال القط عندئذ بصوت خافت ضعيف:

- «أهذا أنت يا ابن أخى الجرذ؟ إن حاسة الشم تقول لى إنك أنت، فى حين أن بصرى الحسير لا يمكننى من تمييز الأشخاص. فإن لم يخطئنى الشم، وكنت أنت يا ابن أخى القادم إلى، فإنى محييك تحية الصباح.» فقال الملك الجرذان،

(١) أهاب: نادى.

وقد ازداد اطمئنانًا بعدما سمع صوت «سهران» الضعيف:

ـ «لماذا تدعونى بابن أخيك؟ ومتى كان بيننا نسب أو قرابة؟» فقال «سهران» فى نعومة وحلاوة صوت:

ـ «لقد ربطتنا دائمًا أواخى[1] النسب والقرابة، فكلانا من فصيلة الأرجل المسَرعة، والشوارب الطويلة، والعقول الفارهة[2]، فبيننا فى هذا كله كثير من المشابه.»

فقال الجُرذ وقد تذكر ما بينهما من عداوة قديمة ومخاوف:

ـ «لماذا تبادلنا إذن العداوة والبغضاء؟»

ـ «آه يا ابن أخى.. ما أجمل أن يسود الوئام بين الأسر!.

وإنه ليؤلمنى أنى عشت ما عشت، والجرذان لم تقدرنى قدرى، ولا وثقت بسلامة نيتى، فإن كنت قد طاردتها، فسعيًا وراء صداقتها وقربها. ولكنها كانت تهرب منى هربها من عدو لدود!.

أفتدهش إذا أنا فى ساعة من الساعات، غضبت على جهلها صدق عاطفتى، فمزقت بعضًا منها؟ ثم لا تنس أن الأقاويل والأساطير قد جاءت تزيد الطين بلة، فصورتنى بصورة الوحش الخطاف، لا يُرى إلا وفأرة أو جرذ فى فمه، على أننى لم أسمع إلا إلى قليل من المودة والإخاء، يا للظلم.. ويا لما تحملت من عذاب..!» فقال الملك الجرذان:

ـ «ولكنك أكلت مع ذلك أبى وأمى. إنى لأذكر ذلك ولا أنساه..» فقال «سهران»:

ـ «إنك لأجود منى ذاكرة يا ابن أخى، إنى كنت نسيت ذلك. نعم. تذكرت. لقد أكلتهما. ولكن لم آكلهما إلا لأنهما كانا ميتين.» فقال الجُرذ ساخطًا غاضبًا:

---

(١) أواخي النسب: روابط النسب.

(٢) الفارهة: الماهرة الحاذقة.

- «ألم يكونا ميتين لأنك قتلتهما؟!».

فقال «سهران» كاظمًا غيظه:

- «قد يكون حدث ذلك، فمخلبى كان دائمًا سريعًا طويلاً، جعلنى أرتكب الحوادث وأنا لا أقصد إلا الخير والوداد.

فلنطو هذا كله يا ابن أخى، فما فات فات، ولسنا الساعة التى نحن فيها».
فقال الملك الجرذان مقاطعًا فلسفة «سهران» وحكمته:

- «لماذا جئت تتمدد أمام هذا الجُحر؟» فقال «سهران»:

- «جئت أمتع نفسى برؤية أحبابى الجُرذان قبل أن أموت، وأسمعها تمشى وتثب هانئة مسرورة. لعلك لا تقدر سعادة الشيوخ عندما يرون الشباب فى مرح وغبطة، فلا تحرمنى يا ابن أخى هذه المتعة الكريمة!».

فقال الجُرذ وقد جلس بإزاء القط «سهران»:

- «ما كنت لأحرمك إياها لولا أنى ورعيتى نخافك ونخشاك.» فقال « سهران» فى هوادة ودعة:

- «وكيف لا تخافنى رعيتك وتخشانى بعدما صُورت لها فى أبشع الصور وأقتمها. ولست أكتمك أن من حقى أيضاً أن أخافك قد انتهى إلىَّ عنك أنك مرعب مخيف. ولكن متى وصل الحى منا إلى نهاية الشيخوخة، جعلته حكمته وتجاربه أقدر على فهم الحياة فهمًا صحيحًا، وعلى هذا فأنا لا أراك مخيفًا مرعبًا،جافًا قاسيًا، ولقد وددت لو كنت أنت أكبر سنًا لتدرك حق الإدراك أنى الصاحب الودود، لا العدو اللدود.»

فتحير الجُرذ، وأخذ يهز رأسه هزات الحيرة والتردد، ولا سيما أن القط لم يتحرك قط فى خلال هذا الحديث الطويل، ولا مد يده قيد شعرة، ليهوى بها على مخاطبه، ويقبض على عنقه، فقال فى نفسه: «لعله صادق فيما يحدثنى به عن مودته وصداقته».

وطال تفكير الجُرذ، فقلق القط «سهران» ورأى من الحكمة أن يقطع حبل الصمت فقال:

- «يخيل إلى يا ابن أخى أنك لا تؤمن بمودتى الخالصة وهذا يؤلمنى.

أفتظن هناك سببًا غير متعتى بمرآك، قد دعانى إلى أن أجىء وأتمدد أمام هذا الجُحر؟ أتحسب أنى قدمت أصطاد الجرذان الخارجة منه؟ ألا تعلم أنى هم(١) فان وأكاد أموت مشلولاً؟ أم تحسب أنه يلذ لى أكل الجرذان؟ إن أصحاب المنزل الذى أقيم به يقدمون لى كل يوم حساء شهيًا لذيذًا، ولكن تعوزنى الشهوة لآتى عليه كله. ولو فرضت أنى ذلك الحيوان الضارى المتوحش، أما كنت فى أثناء هذا الحديث، قد هجمت عليك وعصرتك عصرًا فى يدى.» فقال الجرذ:

- «إن من يراك عن كثب، لا يشك فى وداعتك وعذب خلالك، ويعتقد أنك لا تؤذى ذبابة حقيرة.» فقال «سهران»:

- «على أن فضيلة الصدق والصراحة، تحملنى على القول، إنى كنت فى بعض الأحيان غليظ الكبد جافى الطباع، ولكن الشيخوخة قد علمتنى الوداعة والرقة، فأصبحت أتمنى أن أموت فى إهاب(٢) قديس.»

ولفظ «سهران» هذه العبارة الأخيرة، فى رقة متناهية وسذاجة عذبة، حتى أعتقد ملك الجرذان أنه إزاء أحد القديسين، فدخل إلى الجحر، ونادى جميع رفاقه وقال:

- «ليُقبل كل واحد من الرفاق والإخوان، فليس ثمة أى خطر يتهدده، ولعلنا لم نعرف فيما مضى سريرة «سهران» ولا أدركنا حقيقة شعوره، وكيفما كان الأمر فعلينا أن نغير خطتنا معه فهو عم لنا، ونحن مدينون له بالإجلال والإكرام، فهيا بنا نطوف حوله ونوفر له بطوافنا، ما يطلب ويرجو من متعة ومسرة، لعلها الأخيرة فى حياته. هذا وإنه لأعمى مفلوج، وفى ذلك ما فيه من راحة بال وطمأنينة.»

(١) الهم: الشيخ الفاني. (٢) الإهاب: الجلد.

فقال أكبر الجرذان سنًا:

- «حذار.. فإن حيل القط «سهران» لا تعد ولا تحصى، أما أنا..» فقاطعه الجرذ الشاب المتحمس وقال:

- «صه أيها العجوز! وكفاك تخريفًا إن مليكنا على صواب، فها بنا».

فخرجت الجرذان كلها من الجُحر، وأحاطت بالقط «سهران» إحاطة السوار بالمعصم، فقال ملك الجرذان:

- «أمسرور أنت يا عماه من طوافنا حولك وزحامنا عليك؟». فقال «سهران» وكان صادقًا فى هذه الفترة:

- «كل السرور يا ابن أخى.. فمنتهى الغبطة عندى أن أشعر بك وبرعيتك تجىء وتذهب من حولى.. فليقض كل ما هو قاض، كأن لا أثر لى هنا، أما أنا فسأغفو قليلاً هانئًا مرتاحًا».

وأمال «سهران» رأسه، وركزه إلى يده، ولف ذنبه حوله جسمه، وتظاهر بالنعاس.

وانتشر الجرذان بعد ذلك فى مخزن المؤن، ونهضت مرحة مسروره بما تبغى، فنقل بعضها نوى الكرز من زاوية إلى أخرى، ومزق بعضها الآخر مخطوطًا قديمًا، وارتمت غير هذه وتلك على ثوب قديم فأوسعته ثقوبًا، وقامت جماعة أخرى بالهجوم على جرة من الزيوت فقلبتها وعاثت فيها.

ولم يتحرك القط «سهران» فى أثناء ذلك، وكان يلوح أنه نائم نوم الغبطة وراحة الضمير، وكانت أنظار الجرذان معلقة به طول الوقت، فاقتنعت أن عدوها قد تبدل من حال إلى حال، فأحجمت عن مراقبته.

ثم أشار الملك إشارة الدخول إلى الجحر، فأطاعت الجرذان ودخلته واحدًا وراء واحد.

وكان «سهران» ينتظر هذه الفرصة السعيدة، ففى اللحظة التى هم فيها آخر

جرذ بدخول الجحر، هبطت عليه يد ذات مخالب مسنونة، فصرعته قبل أن يتمكن من الصياح.

وبينما كان المساء يخلع على مخزن المؤن رداءه، وكان «سهران» يتمتع بصيد لذيذ، خيل إليه أنه لن يتمتع به ما عاش.

وفى اليوم التالى، خرجت الجرذان من الجحر وقد تعودت رؤية «عمها» النعسان، ولما رجعت إلى مأواها، تكررت المأساة، وتعشى «سهران» بالجرذ الأخير.

واستمرت الحال على ذلك المنوال عدة أشهر.

ولاحظ ملك الجرذان أن شعبه يتناقص[1] تناقصًا شديدًا، ولكنه لم يعرف كيف يحدث ذلك النقصان، فقد كان دائمًا أول من يدخل إلى الجُحر.

ووصل به الأمر إلى أن يعد من يبقى حوله من الجرذان فكانت تتناقص يومًا بعد يوم فمن مئة إلى خمسين إلى عشرين إلى عشرة.. حتى داخله الشك وقال فى نفسه: «هذا العم النائم عند مدخل الجحر، لعله ساهر يقظان، ولعله أمكر الأعمام وأكثرهم حيلة وخداعًا!».

فأخذ يراقبه، وعندما رجع بجرذانه إلى الجحر، ولاحظ أن الجرذ العاشر لم يدخل وراء رفقائه، وسمع فكى «سهران» يطحنان عظام الجرذ المسكين، أدرك غباوته وبلاهته.

ولما ساد ظلام الليل، أحدث هو وبقية من معه من الجرذان ثقبًا يفضى إلى مخزن مجاور للمؤن، ملآن بأكياس الدقيق.

فقال الجرذ فى نفسه: «إن وراء كل شر لخيرًا عميمًا» ثم سار إلى مدخل جُحره القديم، وصاح فى القط «سهران» قائلاً:

- «عذرًا يا عماه إذا تركتك وحيدًا.. فقد تكون قديساً من القديسين، غير أننى حريص على حياتى.. فالوداع يا عماه».

---

(١) يتناقص: ينقص شيئًا فشيئًا.

الأساطير اليابانية

تمهيد:

لعل الجزر اليابانية قد عمرت منذ قرابة الخمسة آلاف عام بأقوام يحتمل مجيئهم فى أغلبهم من الأراضى الآسيوية الرئيسة.

وهناك تياران بشريان يمكن تمييزهما فى تكوين اليابانيين: تيار شمالى يظهر سلالة لا تتكر من أقوام أوراليين التيين «من قبائل من المغول والهون والتونجوسيين». وذلك إذا استعملنا تعبيرًا لغويًا. على حين أن هناك عنصرًا جنوبيًا لا شك يتصل اتصالاً واضحًا بحضارة البحار الجنوبية. أما متى أو كيف واقع امتزاج العناصر المتعددة التى أدت الى تأليف «الجنس» اليابانى فغير معروف عن يقين ولا يمكن فى نقاط هذه الصفحات القليلة أن نتعمق بعيدًا فى هذه المسألة إلا بما يكفى لتوضيح الأشباه المدهشة القائمة بين الأساطير اليابانية والأساطير « الأجنبية»، مما ينتمى إلى هذين التيارين الرئيسين. وواقع الأمر أن هذه الأشياء خليقة أن تميل بطلاب الأساطير نحو شىء من التحفظ فى استعمال تعبير مثل «الأساطير الوطنية» مما أطلقه علماء معينون على أقدم القصص المسجلة لليابانيين، وذلك أنه من الصعب تجنب الانتهاء إلى أن اليابانيين كأساطير من أصول مختلطة.

وتمتد اليابان كأنها القوس العظيم المصوب نحو المحيط الهادى، حيث تقع غير بعيد من الساحل الشرقى الآسيوى، ويتنوع فيها المناخ حيث يتراوح من المناخ الشمالى البارد فى أقصى الشمال إلى الجنوبى شبه المدارى.

وقد وهبت الجزر الجبلية إلى حد كبير وفرة وتنوعًا فى جمالها الطبيعى الذى تأثر به اليابانيون على مدى العصور. ويشهد النمو المبكر للشعر الذى

أوحت به الطبيع مؤكدًا تناغم الحياة الإنسانية مع بيئتها الطبيعية على هذا الارتباط، وفضلاً عن ذلك فلقد وجدت المشاعر تجاه الطبيعة تعبيرا لها فى عبارات من العواطف الإنسانية. ومع ذلك فإن درجة التشخيص فى الأساطير اليابانية لا تبلغ بحال ما هو واضح فى الأساطير اليونانية التى اصطبغت صبغة إنسانية عظيمة. فلم يقع أبدًا فى الأساطير اليابانية أن طغت الشخوص على المصادر فى العالم الواقعى المادى الذى ظل الوعى اليابانى يؤكده باستعلاء.

ومما يهم ذلك فى بلد تتكرر فيه الكوارث الطبيعية كالأعاصير والزلازل والفيضانات، أن النظرة اليابانية إلى الطبيعة قد كانت دائمًا نظرة حميدة ، تؤكد مزايا الهدوء والجمال أكثر من الاضطراب والتهديد، فلا وجود فى أى مكان من الأساطير اليابانية لفكرة كارثة كبرى من قبل معبودات طبيعية تهدد إلى الأبد. وتورد المأثورات الشعبية أمثلة لأرواح متعبة فضولية مؤذية، ولكنها لا تتحدث عن معبود قاهر شؤم، إذ واقع الأمر أن اليابانيين قد تنحوا بعامة عن تشخيص الكوارث والتهديد، كما ترد الصراعات التى تتردد فى روايتهم الأسطورية. بصورة لا تتغير، مخففة اللهجة وعلى خلاف الإغريق بإعجابهم بالمآسى الطامة، فإن نتيجة النزاع فى الأساطير اليابانية تسوده بانتظام روح التوفيق، ومثل هذا الموقف لا يناقض التأكيد اليابانى لكيان متناغم مع البيئة التى يعيشون فيها.

وهذا التناغم ذو الأهمية العظمى مع الطبيعة، وهو يكون العنصر الجوهرى فى المشاعر اليابانية قد أدى إلى نظرة روحانية إلى العالم، اذ كانت الأشياء فى الطبيعة كالناس تعتبر متحركة أو مشبعة بروح حيوية، وكان فيها نوع من الحيوية الشخصية. ولقد بقى متفوقًا ذلك الإحساس بتلك الحيوية فى الأشياء التى تنتقل من المعتاد عن طريق الشكل أو اللون أو بأى أسلوب آخر. ومن ثم كانت تميز بكلمة كامى ومعناها الأساس «فوق» أو «الجزء الأعلى» أو«متفوق». وكان كل شىء ذى قوة أو جمال أو شكل يفوق المعتاد، موضعًا للإجلال أو بعبارة أدق يلقب بكامى، وكانت قائمة كامى بلا نهاية: من جبل يوحى بالرهبة إلى الصخرة إلى الشكل الشاذ إلى جدول جبلى متدفق إلى شجرة دنيوية.

ويحسن أن ينتبه المرء لتلك التصورات السابقة، لأنها تمكنه من إرجاع الأساطير اليابانية إلى أسسها الطبيعية التى انبعثت منها، والتى لم ينفصل أبدًا عنها انفصالاً مطلقًا وهى تفرض نفسها مباشرة على الصفحات التالية التى ستبذل فيها المحاولة، أول لعرض مصادر الأساطير اليابانية، تلك التسجيلات الأولى التى تغلب عليها رواية الأساطير القديمة، وثانيًا لتتبع ما يسمى «التيار الأسطورى الأوسط» الذى يحتوى عليه دورة ياماتو وذلك بشىء من التفصيل. وسوف يعالج القسم الثالث فى هذه الصفحات التيارات الفرعية التى تمثلها مجموعة ايزومو للأساطير الإقليمية، وهى أقرب إلى أن تكون مساوية لها وليست فى منزلة ثانوية بالنسبة لمجموعة ياماتو.

تكشف الاساطير اليابانية عن نمط مشوش بعض الشىء، هو أميل فى طبيعته إلى الأحداث العارضة منه إلى الملحمة. وهى تؤلف مجموعة متنوعة من الأوهام أكثر منها نظامًا مرتبًا للأساطير. وهى أساطير بلغت من الاختلاط - بغض النظر عن صعوبة نسبتها فى كل الأحوال إلى مجموعات محددة - بحيث كثيرًا ما يصعب تمييز الزيادات اللاحقة من الأساطير السابقة. ومع ذلك فإن دارس الأساطير اليابانية يجد نفسه فى وضع أفضل بالنسبة لزملائه من دارسى أساطير القارة نفسها، وذلك أن جملة الأساطير اليابانية الأولى إنما جمعت معا فى بداية القرن الثامن الميلادى فى مجموعتين هامتين: الكوجيكى Kojiki أو «سجلات الأمور القديمة» والنيهونجى أو «حوليات اليابان» وهذا المصنفان يمدانا بأساطير فترة سابقة على القرن الثامن.

ولقد كان كل من الكوجيكى الذى ظهرعام ٧١٢ ونيهونجى الذى ظهر عام ٧٢٠ نتاج بيئة كانت تهتم أساسًا بالثقافة الصينية التى سادت اليابان فى القرن الثامن وقد كتب كل من المجلدين بالصينية، وإن كانت الحروف وبخاصة بالنسبة للكوجيكى قد استعملت استعمالاً صوتيًا لتؤدى المخارج اللفظية اليابانية، وقد بدأ كل من المجلدين بإثبات نقطة ذات طبيعة سياسية ثقافية، وهى أن الذين كانوا يسمون أنفسهم ياماتو «أى أولئك الذين استقروا فى المنطقة المعروفة حاليا

باسم كيوتو ـ أوزاكا» قد أحرزوا تفوقًا على المراكز السياسية والثقافية الأخرى. ومن ثم كان هدف الكتاب تكوين نوع من التاريخ الرسمى للأسرة الحاكمة، قائم على نماذج صينية، حيث نظر المؤلفون إلى رواية تاريخهم بعين الشك والمنطق، وكذلك مالوا إلى النظر إلى تاريخ عصورهم السابقة بموقف متأثر عن وعى بالصينية التى كانت علمًا على القرن الثامن، إذ نسبوا إليهم فى كثير من الأمثلة سفسطة ما كان لتكتسب إلا بصعوبة قبل أن تستبين مؤثرات البوذية، والحضارة الصينية عامة بوقت طويل.

وعلى الرغم من الدوافع السياسية والتحامل الثقافى التى تميز هذين المجلدين، فإنهما ليمداننا ـ مع التزام الحرص المناسب ـ بثروة من المعلومات عن اليابان القديمة، بحيث يعتبران المصادر الرئيسة للأساطير اليابانية.

على أن الكوجيكى «سجلات الشؤون القديمة» أو فورو كوتو بومى كما يقرأ العنوان أحيانا فلم يظهر، رغم أنه أعد فى النصف الثانى من القرن السابع، العام ٧١٢م وهو أقدم كتاب يابانى باق، وكان تأليفه قد بدأ فى عهد الإمبراطور تمو «٦٧٣ ـ ٨٦» الذى قرر عام ٦٨١ أنْ يجمع سجلات العصور السابقة، حتى لا تضيع ضياعًا لا يعوض، وإلى رجل يدعى هيداند ارى، اشتهر بما له من ذاكرة خارقة، وبأنه كان عضوًا فى كاتاريبى أو طائفة الرواة، عهد بنقل الأساطير مشافهة إلى كاتب يدعى أو نوياسومارو «٧٢٣» فكتبها. ولما كان هدف المؤلفين تعظيم الحكم وإقامة دعاوى أسرية ، فلقد خضعت القصص والأساطير كما سجلت فى الكوجيكى لقدر كبير من التغيير والمعالجة فى سبيل الوحدة القومية. وفضلاً عن ذلك فإن المقدمة تعكس الأفكار الصينية السائدة التى كانت تحفز الكتاب، وذلك أن التاريخ فى نظرهم قد كان أساسًا للعمل فى الحاضر ومقياسًا له. فكان الكوجيكى إذن «صفوة» من الأساطير يظن أنها جديرة بالنقل، إذ كان ينبغى فى سجلات الشؤون القديمة هذه تمييز أنماط يمكن تطبيقها على الحاضر آنذاك.

أما النيهونجى أو «حوليات اليابان»، فقد ظهرت بعد فترة تقدر بثمانية

أعوام من بعد الكوجيكى عام ٧٢٠، وبينما قيل إن الكوجيكى أنما تغطى الفترة من أقدم العصور حتى عام ٦٢٨م، فلقد أمتد النيهونجى بمثل الأمد الزمنى نفسه إلى حد كبير، إلا فيما كان من وصوله بالتاريخ إلى عام ٧٠٠، وتزداد الأمثلة الصارخة على التأثير الصينى فى النيهونجى من مقدمة أسطورة الخلق التى شرحها تفاعل ين ونانج بالنسبة لفقرات رفعت فعلاً من تواريخ الأسر الحاكمة الصينية. وبينما يغطى النيهونجى فى جوهره نفس الموضوعات التى تشملها الكوجيكى، فهو يكشف عن سمتين غابتا عن المصنف الأقدم. وهاتان السمتان هما نظام للتأريخ والروايات المختلفة للأساطير المسجلة. على أن نظام التاريخ فى النيهونجى تعسفى ويكشف عن رغبة المؤلفين فى إيراد سيل من التاريخ اليابانى متبعين الأسلوب الصينى. وينبغى فى عهود الحكم الأولى أن يعدل تعديلاً جذريا بحيث يتفق مع الواقع، ولم يكن حتى بداية القرن السادس أن أصبح - التأريخ موثوقا به. ومن مميزات النيهونجى إثباته بعد كل واقعة اسطورية روايات مختلفة كان المؤلفون يعانون الجهد فى ذكرها. وتختلف هذه الروايات الإضافية عادة فى تفاصيل صغيرة ولكنها تسهب فى الروايات الأساسة اسهابًا كبيرًا كما ترد فى كوجيكى.

وهناك فضلاً عن المصادر الرئيسة المذكورة آنفًا - عدد من المصنفات المعاصرة تؤلف مصادر ثمينة، وإن كانت أقل تركيزًا، للأساطير اليابانية. وأهم هو الكوجوشوى أو «لقطات من القصص القديمة» وهو النوريتو أو الصلوات التعبدية والفودوكى أو معجمات البلدان الإقليمية ومانيوشو وهى المجموعة الكبرى لشعر القرن الثامن.

أما الكوجوشوى الذى ألفه عام ٨٠٧ امبى نو هيروناري، فقد كتب أساسًا ليكون بمثابة احتجاج على أسرة منافسة هى أسرة ناكاتومى فقد كان يحوى الكثير من المواد المشابهة للكوجيكى، فهو ليس عرضًا منظمًا للأساطير؛ ولكنه

(١) طعن في السن: كبر وهرم. (٢) السلب: الشيء المسلوب.

(٣) رام عنه: تباعد.

أقرب إلى أن يكون مجموعة من المأثورات التى حذفت فى بعض الأحوال من الكتب الأقدم وحفظت فى أسرة «أمبى».

وأما النوريتو أو الشعائر الرسمية، ولعلها ترجع فى تاريخها إلى القرن السابع فيشتمل عليها مصنف لاحق أكمل عام ٩٢٧ وسمى انجى شيكى، وهو مجموعة «مراسيم قصر انجى» «٩٠١ ـ ٢٣» ويعتقد بعض العلماء أن هذه الصلوات أنما تمثل صيغًا من أقدم العصور، وأنها غالبًا ما تسبق بعدة قرون إثباتها كتابة. ومن الصعب أن نعرف مقدار التغير الذى تعرض له النورينو على يد مصنفى انجى ـ شيكى، ولكنها على كل الاحتمالات إنما تحتوى على بعض العناصر القديمة.

ولعل أهم هذه المصادر «الثانوية «أنما هو الفودوكى أو معجمات البلدان. وقد أمر بتحريره عام ٧١٣، ولذا اقتضت السجلات الإقليمية أن تحتوى من أجل إصلاح الحكومة المركزية أوصافا مفصلة للأقاليم ـ من حيث السلالات البشرية والحياة الحيوانية والنباتية والأساطير واشتقاق أسماء الأماكن، وعلى الجملة معلومات تكاد تكون شاملة عن شؤون الأقليم، ومن عدد الفودوكى الذى لابد أن كان موجودًا لم يبق سوى هاريما وهيتاتشى وهيزن وبونجو وايزومو، وهذا الأخير هو الوحيد الكامل. وكان قد أتم عام ٧٣٣م، ومما ضاع من الفودوكى طائفة من النتف اقتبست فى مصنفات لاحقة مازالت موجودة، وهذا المؤلف الأدبى بأسره إنما يمدنا بمصدر غنى للأساطير الإقليمية والمأثورات الشعبية.

ثم يوجد آخر الأمر عدد من العناصر الأسطورية فى مجموعة سفر القرن الثامن العظمى تسمى مانيوشو، وهذه المجموعة قد ضمت معًا فيما أعقب عام ٧٦٠م وتحتوى على بعض القصائد القليلة التى نظمت فى القرن الرابع، وإن كانت الغالبية العظمى قد صيغت بين النصف الأخير من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن.

تلك هى المصادر الرئيسة للأساطير اليابانية. وينبغى أن نلاحظ أن تأليفها

جميعًا «وبخاصة الكوجيكى والنيهونجى» أو على الأصح اثباتها كتابة انما كان يقع بعد وقت كبير من صياغة الأساطير عندما كانت تروى وكانت النصوص المكتوبة فى بعض الأحوال ولأسباب سياسية أو أسرية أو دينية هادفة بوضوح. وفى جميع الأحوال ومنذ أقدم النصوص المكتوبة كان التأثير الصينى على الكتابة والأفكار واضحًا، ولسوف يكون من الخطأ أن نظن أيًا من هذه المجلدات ممثلاً عن وجهة نظر «يابانية خالصة» ومع ذلك فليس أقل وضوحًا أن من بين سطور النص المنمق الصينى نجد نواة ذات جوهر يابانى، وأنه على هذا سيقوم أساسًا البحث التالى عن الأساطير اليابانية.

الأسطورة المركزية

فى البدء كانت الهيولى كمحيط من زيت أو كبيضة غير محددة الشكل. ولكنها تحوى بذرة الحياة، ومن هذا الخليط انبعث «شىء» شبيه ببرعم البوص ولكنه حوى معبودًا وأعطى اسمًا. ويكاد يكون فى وقت واحد أن خرجت إلى الوجود آلهة أخرى تنوعت وفق أمور مختلفة. ولكنها جميعا ذات أهمية صغيرة واختفت فى الحال، وفيها جميعًا كانت سبعة أجيال أو أزواج من هذه المعبودات الثانوية، ويبدو أنها تشخص القوى المتفاعلة كالطين والأبخرة والبذور.. وتظهر مثنى من أخ وأخت. ولم يكن سوى الزوج الثامن والأخير من هذه المجموعة. هذان اللذان قدر لهما أن يحرزا أهمية كبيرة - ولكنها عارضة - فى القصة التى أعقبت ذلك وهم بترتيب ظهورهم ايزاناجى الذكر الداعى وأخته ايزانامى الأنثى الداعية.

وبأمر ما يسمى «بالآلهة السماوية» الذين خلقوا قبلهم، وقف ايزاناجى وايزانامى معًا على جسر السماء الطافى «آمانو أوكى - هاشى» وغورا رمحًا سماويًا محلى بالجواهر فى الماء الهيولى الملح من تحتهم.

وطفقا يحركان حتى تخثر السائل وغلظ، وعندئذ جذبا الرمح فكان أن تكونت من قطوات الماء المتساقط فى المحيط جزيرة انوجورو تلك «الجزيرة» التى

كونت نفسها من المادة المغلطة.

ونزل ايزاناجى وايزانامى على هذه الجزيرة الجديدة وجعلاها «العمود المركزى» للأرض ثم كان أن سأل ايزاناجى أخته قائلا: « بأى وسيلة صنع جسدك» ؟ فأجابت ايزانامى: «إن جسدى ينمو فى كل جزء إلا واحدًا» فى حين اتبع هذه ايزاناجى قائلا: «إن جسدى ينمو فى كل جزء وبخاصة واحدًا منها، ألا يحسن أن نوحد جزئى الزائد مع جزءك الناقص فننتج بذلك الكثير «من المناطق»، فأجابت الأخت الصغرى، ان ذلك يحسن «لاحقًا» وإذا بإلهين يتبعان ما اقترحه الذكر الجليل فيطوفان بعمود الجزيرة، حيث يمضى ايزاناجى إلى اليسار وتمضى ايزانامى الى اليمين، وحين يلتقيان تصيح الأخت الصغرى لجمال أخيها «آه ما أجمله من رجل.. «ويصيح ايزاناجى «آه ما أجملها من امرأة» غير أن ايزاناجى بعد ذلك يعنفها لذلك الحماس المندفع قائلا: «إننى رجل وينبغى بحكم الحق أن أتكلم أولاً، فكيف يكون العكس وأنت امرأة فتكونين الأولى فى الكلام؟ ذلك حظ سيئ.

دعينا نطوف من جديد «وإذا بهما يعيدان الشعيرة فيتكلم هذه المرة الإله الذكر أولا. وبذلك يصحح الخطأ الاحتفالى. وعن رواية أخرى للأسطورة، أن الإلهين كانت تحدوهما الرغبة فى الاتحاد، ولكنهما كانا جاهلين بفن الجماع الجنسى. فكان أن لاحظا فتاحًا «عصفور أبى فصادة» يحرك بصورة مميزة رأسه وذيله بعنف، فكان بتقليد الطائر أن استطاع الريان الجماع. ومن اتحاد الاثنين نشأ عدد من الجزر وعدد من الآلهة، كان واحد منها طفلاً مشوهًا لم يكن يستطيع حتى فى سن الثالثة الوقوف منتصبًا، فوضع بذلك أسلوب «الطفل العلقة. وقد ترك هذا العقب نظرًا لعدم اكتماله فى زورق من بوص وترك يطفو بعيدًا.

هذا ومن الشيق أن نلاحظ فى الأسطورة اليابانية أن مولد الطفل العلقة لم يرتبط بشعور الذنب لزواج الأخ بأخته، وعلى الرغم من أن جماع المحارم لم يكن قليلا فى غير ذلك من أساطير.

فإن خطأ يسيرًا فى الاحتفال لم يكن يعتبر عادة اعتذارًا كافيًا، فان أميس فورموزا على سبيل المثال يحدثنا عن أخ وأخت بعد أن هربا من فيضان هائل فى هاون يتجامعان وينجبان ثعبانا وضفدعة.

فأما الأول فيلقيانه بين الشجيرات، وأما الثانية فيتر كانها قرب البيت، وإذا بتحليل الجثتين وما ينتج عن ذلك من رائحة يحمل إله الشمس على بدء التساؤل. وحين يفزعان من العقاب الذى سوف يكال لهما على عملهما الذى يستحق اللوم، يعمدان إلى الهرب. وعلى الرغم مما حظيا به من مغفرة فيما بعد، فلقد ظل التأكيد قائمًا على معرفة ذنبهما.

وواصلت ايزانامى إنتاج أنواع من آلهة: من بحر وأمواج وجبال وهكذا حتى أخرجت آخر الأمر إله النار، فكان أن احترقت بذلك الأجزاء الخاصة بالأنثى الجليلة، وهى تلد ذلك الإله الأخير، بحيث مرضت مرضًا مميتًا وخرجت طوائف أخرى من الآلهة من قيئها «وهى الجبال» ونفايتها «الطين» وبولها، ثم تموت آخر الأمر. ويمرض ايزاناجى من الغضب واليأس، وحين يزحف من حولِ وسادتها منتحبًا ظلت آلهة أخرى تنبعث إلى الوجود من دموعه. ثم يقبض سيفا له طوله بمقدار عرض عشر أيد ويقطع رأس ابنه «إله النار»، فيولد من الدم كذلك مزيد من الآلهة.

وعند هذه النقطة تبدأ أعجب حلقات القصة، فإن ايزاناجى بحكم عجزه عن كبح رغبته فى رؤية أخته الميتة قد عقد العزم على زيارتها فى أرض الظلمات، وكانت قد بنت هناك حصنًا. ويحاول ايزاناجى إغراءها بالعودة الى العالم الأعلى حيث لم تنته بعد أعمالها الخلاقة، ولكنها تتردد قائلة: إنه جاء بعد فوات الأوان، وذلك أنها قد أكلت طعام أرض الظلمات، وتطلب إلى أخيها ألا ينظر إليها ثم تنسحب إلى قصرها.

غير أن ايزاناجى كان غير صبور، فيكسر السن الأخير والأيسر من مشطه ويشعله ثم يدخل إلى قصرها ليتبين لماذا تتأخر هذا الأمد الطويل فيجدها فى

حالة مروعة من التحلل،حيث تغطيها الديدان وهى منتنة عفنة، فإذا به يرتاع للمنظر ويستدير هاربًا، غير أن أخته الغاضبة لما وجدت عليه من هذه الحالة المخجلة تطلق ساحرات أرض الظلمات «شيكومى» فى أعقابه. وكان ايزاناجى فى فراره قد أخذ قلنسوته وألقاها وراءه، فسرعان ما تتحول إلى عنب تتوقف الساحرات لالتهامه، ولكن التعقب يستأنف فينزع ايزاناجى من شعره المشط الأيمن ويلقى به وراءه، وسرعان ما يتحول إلى براعم من خيزران تنتزعه الساحرات كذلك وتأكله. وعندئذ ترسل ايزانامى جيشًا من ألف وخمسمائة مقاتل يتعقب أخيها، غير أن الذكر الجليل يبقيهم بعيدًا عنه بالتلويح بسيفه الذى يبلغ طوله عشر قبضات. وأخيرًا عند الممر السوى بين عالم النور وأرض الظلمات يجد ثلاث خوخات يرجم بها متعقبيه، بحيث يضطرون إلى التقهقر، ثم إذا به بغير ضجة كبيرة يسد الممر السوى بصخرة عظيمة، وعلى كل من جانبيه يخاطب هو وأخته بعضهما بعضًا متوعدين، فتهدده بقتل ألف كائن كل يوم فى أرض النور، ويجيب ايزاناجى بأنه فى هذه الحالة سوف يقيم ألفًا وخمسمائة بيت ولادة، أى أنه سيحدث ألفًا وخمسمائة ولادة كل يوم، وبذلك يقيم تناسبًا متعادلا بين المواليد والوفيات. ثم يمضى فيقطع العلاقة بأخته بنطق صيغة الطلاق.

هذه الأسطورة التى توضح الدورات المتناقضة بين الظلام والنور وبين المولد والموت إنما تورد أشباهاً واضحة بالأسطورة الإغريقية أورفيوس ويوريديس أو بصورة أدق بأسطورة برسيفون. فإن ايزاناس مثل برسيفون قد ذاقت طعام أرض الظلمات وإذا بها بسبب هذا الفعل تمنع من العودة إلى أرض النور. على أن اليابانيين على خلاف الإغريق لا يعالجون احتمالات مفجعة متصلة بالموقف الذى يحل فى الأسطورة اليابانية بنوع من التصالح. وربما لوحظت خواتم التوفيق فى نقاط أخرى فى سياق الرواية الأسطورية اليابانية، ولابد من غير شك أن تعزى إلى بعض الاختلافات الأساسية فى وجهات النظر بين اليابانيين والاغريق.

ثم يمضى ايزاناجى بعد اتصاله بالموت والأرض السفلى الدنسة ليطهر نفسه فى نهر صغير فى تسوكوشى «أى كيوشو»، وأنه ليلقى ملابسه على

الأرض، وإذا بقرابة الاثنى عشر إلهًا يولدون من كل قطعة من ثيابه وجواهره، وعمد حيث تجنب مياه أعالى النهر لسرعته الشديدة وأدناه لبطئه الشديد فاغتسل فى وسط المجرى، ومن الأوضار التى على جسده تولد آلهة أخرى - قرابة الأربعة عشر. وأخيرًا تولد من عينيه اليسرى إلهة الشمس «أماتيراسو» «السماء الساطعة» ومن عينيه اليمنى إله القمر. ومن أنفه يولد سوسانوو «الذكر القوى» ومن هذه الآلهة الثلاثة قدر لكل من أماتيراسو وسوسانوو أن يحتلا منذئذ المركزى الرئيس من الأسطورة. أما القمر فسرعان ما يستحيل باهتًا من الرواية.

أما أماتيراسو فمتألقة ساطعة، ويضع ايزاناجى تحت سلطانها سهل السماء العليا ويهب لها قلادة من جوهر، وأما ساسانوو فقوى مظلم وله أعطى حكم سهل البحر. ويبقى الذكر القوى كئيبًا، فهو يبكى وينتحب بصوت مرتفع بلا انقطاع، حتى تذبل الجبال وتجف البحار وتتحير الآلهة وتصاب بالذهول. وأخيرًا يسأله ايزاناجى عن يأسه الصاخب الذى يبدو له أشد إخلاصًا منه لواجباته كحاكم لسهل البحر. ويجيب سوسانوو أنه ينتحب لرغبته فى زيارة أمه «ايزانامى» فى أرض الظلمات وأن ذلك إنما هو سبب حزنه، فإذا بازاناجى مهتاج لتلك الوقاحة، وإذا به عقابا له ينفيه من الأرض.

ويعقد سوسانوو العزم على توديع أخته الشمس ويخرج إلى عالمها فى السماوات، غير أن تقدمه كان عاصفًا، بحيث خشيت آلهة الشمس أن يعنى وصوله افتئاتًا مقبلاً على أملاكها، ولذلك فهى تعد نفسها للقائه، فتعلق جعبة من ألف سهم على ظهرها، وأخرى تحمل خمسمائة وتقبض على قوسها وتتخذ موقفها بدرجة من القوة. بحيث تسوخ ساقاها حتى فخذيها فى الأرض وإذا بمظهرها يبد وكأى محارب باسل، وإذا سوسانوو وجهًا لوجه مع هذه المحاربة المروعة يؤكد لها أنه إنما يأتى مودعًا، وأنه إنما يقبل «بغير نيات سيئة» ويقترح لكى تعرف إخلاص دوافعه أن يتخذا عهدًا معًا وينجبا أطفالاً، ويفعلان. وتقبل سيف القبضات العشر الذى أعطاها إياه فتكسره ثلاث قطع وتضعها فى فمها

وتمضغها، ويفعل الفعل نفسه بالجواهر التى أهدتها إليه، وبينما كانا يقيئان القطع كانت آلهة عديدة تخرج إلى الوجود.

وعلى الرغم من تأكيداتها كلها، فإن الذكر القوى لم يكن ليتخلى عن أساليبه الوقحة، وواقع الأمر-أن سلوكه فى نواح معينة يزداد سوءًا، فهو يكسر الحدود فى حقول الأرز التى كان أماتيراسو قد أرساه، ويملأ أخاديد الرى ويلوث مسكنها بالبراز. ومن عجب أنها تعفو عنه أول الأمر حين تلوم أعماله عن سكره، ولكنه حين يسلخ فلوا أبلق سلخا إلى الوراء، ثم يقذف به فى قاع النسيج حيث تعمل مع اتباعها بحيث يصابون بجروح مميتة فى أقسامهم الخاصة من المكوكات الطائرة، تضيق ضيقًا عميقًا، ولكى تبرز استيأءها تعتكف فى كهف صخرى وتحكم مدخله.

وباعتكاف آلهة الشمس، يترك النور الدنيا ويتوقف تعاقب النهار والليل، وإذا بمئات الآلاف من الإلهة تضطرب اضطرابًا عميقًا لهذه الأحداث، فتجتمع فى مجرى نهر السماء تتشاور فيما بينها عن أنجح الوسائل لاستدراج الآلهة من مخبئها، فيضعون طيورًا ليلية لها القدرة على الغناء الطويل «أى ديكة» قرب مدخل الكهف ويحملونها على الصياح ويعلقون من شجرة خيطًا من جواهر مقوسة ومرآة وقرابين من ثياب بيضاء. وينشدون أجمعين شعائر رسمية «نوريتو». غير أن الذى يثبت آخر الأمر كفاءته أنما كانت رقصًا شهوانيًا أرعن تؤديه الآلهة، أما نو أوزومى التى طفقت تدق الأرض بصوت عال وتجذب حلمات ثدييها وتنزل ثوبها فإذا بها بذلك تسر الآلهة المجتمعة فينفجرون فى ضحك أجش معجبين. وإذا بآلهة الشمس وقد استاءت بفضول غير مفهوم تطل خارج الكهف حيث دفعت المرآة إلى الباب وإذا بالآلهة التى زغوتها صورتها تخطو رويدًا رويدًا، وإذا بحبل يمد وراءها حيث منعت العودة من ورائه. فكان بظهور الشمس أن عاد النور مرة أخرى إلى العالم واستؤنف تعاقب الليل والنهار.

هذا ويؤلف ظهور الشمس من جديد ذروة الأسطورة الكونية، على أنه من

(١) يتناقص: ينقص شيئًا فشيئًا.

الصعب التأكد تمامًا مما تدل عليه هذه الواقعة فى الرمز الأسطورى أهو عودة الشمس بعد اضطراب طبيعى طال عليه الأمد كان فى هيئة عاصفة عظيمة، أو حتى كسوف شمسى؟ لا شك أنها من وجهة النظر الثقافية أنما تقوم من أجل تمجيد مفهوم من قبل المصنفين لجد امبراطورى، وانتصار على برابرة عن طريق السلم الذى أقامته حكومة مركزية بقدر ينقص أو يزيد فوق قبائل أصغر، ومهما يكن من شىء فإن الأسطورة بهذه الذروة تبدو كأنما تفتقد جزءًا طيبًا من الاستمرار الذى كان لها حتى هذه النقطة، وتتمزق فى طائفة من الوقائع والأحداث التى كثيرا ما يصعب إقامة تتابع مقنع بينها.

وبخ سوساناوو فى المجلس العالى للآلهة من أجل واقعة اعتكاف «آلهة» الشمس بأسرها، وبناء على ذلك وقعت عليه غرامة فادحة بمقدارها «ألف لوحة» مع نزع أظافر يديه وقدميه ثم نفيه إلى السماء.

ثم يتلو ذلك هنا أسطورة شيقة عن مصدر يستحق شيئًا من ملاحظة مفصلة. تلقى سوساناوو أو إله القمر تسوكى - يومى وفقًا لرواية أخرى أمرًا من أماتيراسو بالهبوط والقيام على خدمة إلهة الطعام أو كيموشى فكان عند وصوله إلى قصرها أن رحبت به الإلهة بأن حولت رأسها تجاه الأرض، ومن فمها تفلت أرزا مطبوخًا، ثم اتجهت إلى البحر، وهناك اندفعت منها كل أنواع الأسماك، وواجهت الجبال وأطلقت مختلف فصائل الصيد، وقدمت هذه المنتجات إلى إله القمر فى مأدبة عظيمة. غير أن الرسول الإلهى وقد استشاط غضبًا لما قدم إليه من قذارة فى الإلهة يستل سيفه ويقتلها وحين يعود إلى السماء يروى تلك الظروف لآلهة الشمس التى فاض استياؤها مما أتى رسولها من فعل متطرف، وفى حالة اله القمر دلت على احتجاجها برفضها منذئذ لقاءه وجهًا لوجه، ونتج عن ذلك أن عاش الشمس والقمر بعيدين يفصلهما نهار وليل. غير أن القصة لا تنتهى هنا، إذ يوفد رسول آخر إلى إلهة الطعام الميتة فيتبين أن عددًا من الأشياء قد نتج عن جسدها الذى لا حياة فيه «قارن ايزانامى فيما سبق» فمن رأسها الثور والحصان، ومن جبهتها الذرة الرفيعة ومن حاجبيها دود القز، وفى

عينيها الحشيش وفى جوفها الأرز، وفى أعضائها التناسلية القمح والفول. فأخذ الرسول هذه السلع وأراها لآلهة الشمس وإذا باماتيراسو تصنع تقاوى الغلال وتعين إلهًا لبذرها من أجل ثروة الجنس البشرى، وفضلاً عن ذلك، فإنها، بوضع دود القز فى فمها، قد لفت الخيط منها وبذلك أسست فن تربية دود القز.

ولكن لنعد إلى مغامرات سوساناوو. فأن الذكر القوى بعد أن نفى هبط الى أرض ايزومو في غرب اليابان عابرًا كوريا عند مصادر المياه الرئيسة من نهر هيى. وحين لاحظ عصوى طعام «كذا» يطفوان مع التيار، افترض أن الناس لابد يسكنون فى الأطراف العليا وبذلك يواصل المسير مصعدًا ضد التيار، وسرعان ما يأتى رجل شيخ وزوجته وابنته ويبكون جميعا بكاءً مرًا. ويكشف الشيخ إجابة على سؤال سوساناوو عن حالتهم المؤسفة، فلقد ظل أفعوان ذو ثمانية رؤوس وثمانية ذيول فى السنين الثمانى الأخيرة يفزع البلاد حيث التهم ثمانى بنات للزوجين الشيخين. وها قد حان الوقت للأفعوان تارة أخرى فيطلب مع ذلك أخرى، وأنه لوحش فظيع فعيناه حمرا وان وله ثمانى رؤوس وثمانية ذيول وينمو الطحلب على ظهره وجوفه دمويًا ملتهبًا. ويعرض سوسانوو، بشرط أن يتلقى ابنتهما لزواج بها، مساعدة الزوجين الشيخين. فاستصنعهما شرابًا مصفى «ساكى» وضعوه فى ثمانية دنان على ثمانى قواعد، يحيط بها سياج له ثمان فتحات، ويقترب الأفعوان بطبيعة الحال، حيث يضع رأسًا فى كل من الدنان الثمانية وينزحها حتى تجف، فإذا به وقد سكر يهوى فى نوم عميق، وعندئذ يستل الذكر القوى سيفه ويقطعه إربًا، ويجرى نهر هيى أحمر بالدم، على أن شيئًا وهو يضرب الذيل الأوسط يفل حد شفاره، فيشق اللحم ويجد مدفونًا فى الأنسجة اللحمية السيف الشهير المسكن للعشب «كور ساناجى» الذى نورد عنه المزيد فيما بعد.

ويجدر قبل استكمال سيرة الذكر القوى أن نقف هنيهة لنسجل هنا أسطورة كونيبيكى أو جذب الأرض. فإلى هذه الأسطورة يعزى أصل أيزومو موطن ما أعقب ذلك من نباط سوسانوو. فإن الإله ياتسوكا ـ ميزو ـ أومى ـ تسوتو، وقد

لاحظ ضيق ايزومو قد تطلع الى كوريا «شيراجى: سلا» ليرى ما اذا لم يكن هناك فضل من الأرض يستطيع اقتراضه، وقد كان هناك فى واقع الأمر، فكان بجاروف أن احتفر مساحة كالمسافة التى بين نهدى عذراء» ثم كسرها بضربات كما يضرب المرء خياشم سمكة عظيمة، وثبت اليها حبلا مثبت الفتائل، ثم جذبها إليه كالزورق البطىء قائلاً هذه الكلمات «اقبلى أيتها الأرض أقبلى أيتها الأرض» ثم ثبتها على ساحل ايزومو. وقد قام بجذب الأرض أربع مرات ملحقا الأرض الجديدة إلى أجزاء مختلفة من ساحل اليابان.

وينشئ سوساناوو قصرًا عظيمًا فى سوجا فى ايزومو، ويحيا بعد أن يتزوج من الأميرة التى أنقذ حياتها من التنين المثمن الرؤوس هناك، وينجب مع زوجته عددًا من أجيال الآلهة. وكان أشهر أعقابه «أو كونينوشى».سيد الأرض العظمى «أى ايزومو» ومن هذه النقطة تكون سيرة أوكونينوشى هذه التى تتابعها الأسطورة على نطاق واسع، وواضح أو دورة جديدة تبدأ هنا هى أساطير أيزومو التى ـ رغم أنها لا تتعارض مع مجموعة ياماتو ـ فإنها مع ذلك متميزة عنها. وربما كان أفضل أن تعتبر الروايات المتصلة بهبوط سوساناوو إلى ايزمو نوعًا من الانتقال بين دورتين.

كان لأوكونينوشى أخوة كثيرون، وكان هؤلاء الآلهة يضمرون الرغبة فى زواج الأميرة يا كامى التى تقطن فى انابا، وهى مقاطعة لا تبعد كثيرا عن ايزومو. حيث يأخذون أو كونينوشى تابعا لهم محملينه بأكداس عالية من أمتعتهم، وانهم لفى طريقهم إلى انابا إذا بهم يلتقون بأرنب مسلوخ عنه فراؤه ملقى على الأرض، فتنصحه الآلهة الخبيثة بأن يستحم فى ماء ملح ويرقد على جانب الجبل معرضا نفسه للرياح، ويتبع الأرنب إرشاداتهم غير أن ماء البحر ما أن يجف حتى يتفزر جلد الحيوان التعس وينطرح فى ألم حاد. ويصل أوكونينوش متأخرًا بعض الشىء إلى البقعة التى يرقد فيها الأرنب الشقى فيسأله عن سبب ورطته، فيتحدث الارنب بالقصة التالية: «لما كنت فى جزيرة أوكى بعيدًا عن ساحل ايزومور ـ انابا، أردت أن أعبر إلى الأرض الرئيسة، ولكنى لم أجد سبيلاً. ولذلك

جمعت معا تماسيح البحر واقترحت مباراة كى أرى أيا من فصيلتنا أكثر عددًا، واقترحت أن يرقدوا طرفا إلى طرف حيث أحصى عددهم وأنا أخطو على ظهورهم وقد فعلوا ذلك فانطلقت عابرًا عليهم إلى الأرض، وما أن بلغت التمساح الأخير الذى تحقق من خدعتى حتى نهض وسلخ عنى فرائى»، ثم يواصل الحديث كيف خدعته الإلهة الخبيثة، حيث آل الى محنته المؤسفة وينصح أوكونينوشى الأرنب رحمة به بأن يستحم فى ماء عذب ويعفر جسده بطلع الحلفاء، ويفعل الأرنب ذلك فيرد إلى صحته الأولى. على أن الأرنب قد كان فى الواقع إله أنابا الأرنب، فكان لقاء المكرمة التى تلقاها، أن وعد بأن لن تحصل الآلهة الخبيثة، بل سيحصل أوكونينوشى نفسه على الأميرة ياكامى زوجة له.

وإذا بالآلهة وقد غاظها فشلها فى كسب يد الأمير يدبرون للتخلص من سيد الأرض العظمى، وذلك بأن يقترحوا حين يصلون إلى سفح جبل تيما الخروج لصيد الخنازير حيث يمسك أوكونينوشى الوحش الذى سوف يسوقونه إلى أسفل الجبل، ويتقبل رغبتهم ، ولكن الآلهة الخبيثة يستبدلون بالخنازير حجرًا عظيمًا يحمونه ويرسلونه منقضًا يتدحرج على جانب الجبل، وإذا بأوكونينوشى عند إمساكه الصخرة يحترق احتراقًا مميتًا، ولكن السماء تتدخل بإرسال محاورة وسمكة صدفية، وهما إلهتان، فتطحن الأولى ذيلها وتتحمل الأخرى الماء، حيث تدلكانه وتعيدان الإله الذى لا حياة فيه إلى الحياة، وذلك فى هيئة شاب وسيم، غير أن امتحاناته لم تتكشف عنه بعد، فإن الآلهة تقطع شجرة يدخلون فى جذعها مسمارًا، ثم يوضع أوكونينوشى فى الثقب وينزع المسمار، حيث النتيجة أنه عصر حتى الموت، ومع ذلك فقد أحيى مرة أخرى وكانت هذه المرة على يد أبيه الذى ينصح، وقد تبين دوافع الآلهة الأخرى، بالفرار، وهكذا يسلم أوكونينوشى أقدامة للريح ويفر من سهام الآلهة التى تتعقبه، ثم يرتمى تحت فرع شجرة ويختفى.

وعندئذ يبدأ أكونينوشى رحلته إلى الأرض السفلى طلبًا لنصيحة سوساناوو الذى كان يقطن هناك. وبينما كان يقترب من القصر خرجت ابنة الذكر القوى

الأميرة الجريئة فرأته، وتبادل الاثنان اللحاظ، وبذلك تزوجا. وتعلن الأميرة عن مجيء إله شاب وسيم يسميه الذكر القوى فى الحال بتحامل أبوى ذكر سهول البوص القبيح، ثم يرسله لينام فى بيت ثعبان، غير أن زوجة أوكونينوشى تزود زوجها بوشاح ثعبان يحميه أثناء الليل، وفى المساء التالى يحمل على النوم فى بيت أم أربعة وأربعين وزنبور، فيعطى أيضًا وشاحًا واقيًا يرعاه أثناء الامتحان، ثم يطلق سوساناوو سهمًا وسط الموج ويأمر الإله المرهق بإحضاره، فلم يكد أوكونينوشى يخرج إلى الحقول حتى يشعل الذكر القوى النار فى الحشيش، وما أن يوشك فيها الإله المنكود أن يهلك باللهب، حتى يظهر له فأر يدله على غار يستطيع الاختباء فيه، وبفضل حماية ذلك المخبأ ينجو من النار وهى تضطرم، ثم يقدم إليه الفأر سهمًا كان قد احتفظ به سليمًا من النيران.

وإذا بسوساناوو لغيظه من نجاح أوكونينوشى يأخذه إلى القصر ويطالب بأن يخلص نفسه من الحشرات. ويمضغ سيد الأرض الكبرى ما أعطته زوجته من توت موكو مع قدر من التربة الحمراء ويصنع منهما لعابًا قرمزيًا جميلاً. ويظن سوساناوو أن النخامة إنما هى ممضوغ أمهات أربعة وأربعين، فتتفرج أساريره ويستغرق فى النوم راضيا. وسرعان ما يقبض أوكونينوشى شعر الذكر القوى فيحكم ربطه إلى عروق السقف، ثم يأخذ سيف الإله الكبير وقوسه وسهامه وعوده ويفر بالأميرة الجريئة على ظهره. ولكنه حين يخرج يحتك العود بشجرة فيستيقظ سوساناوو، فيقفز ناهضًا، وتخلع عروق السقف من ثقوبها فينهار القصر عند أذنيه. غير أنه على الرغم من التأخير ينطلق فى أثر سيد الأرض، حيث يتخلى على المطاردة ينادى أوكونينوشى بتسامح متأخر بأن يستعمل السيف والقوس ضد الآلهة الخبيثة. ويأخذ الأميرة الجريئة قرينة له، ويفعل سيد الأرض العظمى كل ذلك.

وهنا يتقدم أوكونينوشى لبناء العالم غير السماوى، وفى ذلك يساعده إله غريب يسمى سوكانا - بيكونا، وهو قزم يأتى راكبًا على قمم الأمواج إلى سواحل ايزومو حيث يسكر أوكونينوشى، وكان يتزين بجلد الأوز ويستقل زورقًا دقيقًا

مصنوعًا من لحاء الشجر، ولم يكن حتى أتباعه يعرفون اسمه ويضعه أوكونينوشى فى راحة يده ليفحصه، وبينما هو ينظر إليه إذا بالإله الصغير يقفز ويعضه فى وجنته، فيرتبك ويروى ذلك إلى الإله السماوى الذى يتعرف على ذلك الإله الدقيق إذ هو واحد من بنيه، وهو شرير كان قد انزلق من بين أصابعه وسقط إلى الأرض. ولكنه مع ذلك يوصى بأن تحسن معاملة الإله الصغير، واذا بكل من سوكونا ـ بيكونا وأوكونينوشى يبنون الدنيا معًا، ويصوغون بالنيابة عن الجنس البشرى «أسلوب شفاء الأمراض» «أى فنون الطب» و«لكى يتخلصوا من أرزاء الطيور والحيوانات والزواحف يؤسسون طرائق لمنعها والسيطرة عليها ويضيع سوكونا ـ بيكونا من الحساب حينما يتسلق إلى قمة عود من الذرة فيقذفه ساق النبات المرتد إلى الأرض الأبدية.

ويظل أوكونينوشى زمانًا حاكمًا لايزومو، أى حتى تعتقد إلهة الشمس العزم على إرسال حفيدها نينجى للاستيلاء على الأرض المركزية لسهول البوص «أى اليابان» ويستولى هناك على السلطة، وحين يسأل أوكونينوشى إن كان ينوى تسليم الأرض للحاكم الالهى المختار، يستشير ابنه ثم يوافق آخر الأمر. على أن فى الاعتراف بقوة سيد الارض العظمى ومركزه نوعًا من الحكم المنقسم الذى يحرز الحفيد الالهم «ياماتو» بمقتضاه السلطان على الناس، أى الشؤون السياسية، على حين يحتفظ أوكونينوشى «ايزومو» بزمام الشؤون « الدينية» السرية. وكعلامة لتكليفه يعطى أماتيراسو نينيجى ثلاثة كنوز: جوهرة مقوسة ومرآة وسيفًا قاطعًا للأعشاب مشهوراً أخذه سوساناوو من التنين المثمن الرؤوس. وتؤلف هذه الأشياء الثلاثة حتى يومنا هذا رموز السيادة الامبراطورية الثلاثة. وبنينيجى يبدأ الحكم الإلهى للأرض.

ومن بين أبناء الحفيد الإلهى أمراء سطوع النار، وظل النار وقصة تبادلهما للحظ مشهورة. كان سطوع النار، وهو الأخ الأكبر، قد أحرز حيويته من البحر، حيث يصطاد أشياء عريضة الزعانف وأشياء ضيقة الزعانف، وكان ظل النار يحيا من الأرض، حيث يصطاد أشياء خشنة الشعر وأشياء ناعمة الشعر. وفى

يوم من الأيام اقترح ظل النار تبادلا الحظ، فيذهب حظ البحر إلى الذى يتردد على البحر ويذهب حظ الأرض إلى الذى يحيا فى البحر. ووافق سطوع النار على مضض وخرج الاثنان كل يجرب حظه الجديد، غير أن حظ البحر للبحر وحظ الجبل للجبل، فلم يستطع ظل النار اصطياد سمكة واحدة بالخطاف الذى أعطاه إياه أخوه الأكبر، وأسوأ من ذلك أنه وهو يصطاد السمك قد فقد خطاف أخيه فى البحر. وعلى الرغم من أنه عرض خمسمائة خطاف عوضًا عنه، فإن الأخ الأكبر طالب مصرًا على استرداد الأصيل. وبينما كان ظل النار قائمًا يبكى عند الساحل إذا باله بحرى يقترب، ولما علم بمشكلة الشاب صنع زورقًا وأرسل الأمير طافيا فيه. وسرعان وهو طافٍ فى مسالك البحر ما وصل ظل النار إلى قصر الاله المصنوع من قشر السمك، حيث اتخذ مكانه فى شجرة قثاء هندى Cassia إلى جانب بئر قريبة منها، فلما أقبلت وصيفات الأميرة المقيمة فيه لامتياح الماء رأين ظل النار وقدمن له منه شيئًا فقبله، وبينما كان يشرب نزع جوهرة كان يلبسها فوضعها فى فمه ثم لفظها فى الإناء الذى قدمته الوصيفات إليه، والتصقت الجوهرة بقوة بجانب الوعاء، بحيث اضطرت الوصيفات الى تقديم الجوهرة والإناء معا إلى الأميرة. وإذ تظن الأميرة تلك الحادثة غاية فى الغرابة، فقد خرجت مع أبيها لتحية ظل النار الذى تعرفا عليه بأنه هو الإله الذى كان، فاستقبلاه بمظهر عظيم من الفخامة، وتزوج الاثنان، حيث سكن ظل النار فى أرض البحر ثلاثة أعوام. ثم طفت مع مرور الزمان يفكر أكثر وأكثر فى حياته الأولى حتى صعد يومًا زفرة هائلة، فسئل فى الحال عن سببها فكشف عندئذ قصة مجيئه الى قصر البحر وفقد خطاف السمك الذى أعطاه أخوه إياه. وعندئذ استجوب إله البحر كل السمك ليرى إن كان الخطاف قد علق عفوًا بحلوقها، ثم كان أن تحقق وجوده فى حلق شلبة «تاى» فى البحر، حيث أعيد إلى ظل النار. وأوصى إله البحر الأمير الشاب بإعادة الخطاف إلى أخيه وأعطاه جوهرتين متسلطتين على الماء علمه استعمالهما، قال «اعط هذا الخطاف أخيك وقل له: «الخطاف خطاف كبير، خطاف شغوف، خطاف مسكين، خطاف

أحمق، ثم إن أخيك إذا زرع حقولاً فى الأراضى المرتفعة فينبغى أن تزرع حقولاً فى الاراضى المنخفضة، وبهذا الفعل سوف يفتقر أخوك فى ثلاث سنين، فإذا هوجمت فى وقت، فاستعمل الجوهرتين لحماية نفسك» ثم حمل ظل النار عائدًا إلى الأرض على ظهر تمساح. وبعد إعادة الخطاف ظل الأخ الأكبر يزداد فقرًا على فقر حتى حمل فى نوبة يأس على حياة ظل النار، وعندئذ عمد ظل النار وفقًا لنصحية إله البحر فاستعمل الجوهرتين اللتين جذبتا المد، فارتفع الماء وكاد سطوع النار يغرق، فلما تاب سطوع النار خوفًا من الموت، استعمل ظل النار الجوهرتين اللتين حملتا المد على الانحسار فأنقذ بذلك حياة أخيه، فكان أن تعهد الأخ الأكبر متأثرًا بهذه العاطفة بالخضوع الأبدى.

وفى هذه الأثناء - عودا إلى قصر البحر - كانت أميرة البحر قد وجدت نفسها حبلى، ولما اقترب موعد ولادتها أقبلت للانضمام إلى زوجها ظل النار على الأرض ظنًا منها أن من الخطأ الحمل بابن إله فى المحيط، وعلى الساحل أنشأت بيتًا للولادة معروشًا بريش الغربان واتخذت مكانها فيه، وأنذرت ظل النار الا ينظر إليها فى أثناء الولادة، وذلك أنها فى ذلك الوقت، شأن كل الأجانب، ينبغى أن تتخذ شكلها الأول. وطبيعى أن يعجز ظل النار عن كبح فضوله، وإذا به حين أطل داخل بيت الولادة يرى أنها قد تحولت لحظة الولادة إلى تمساح هائل، فإذا بها وقد أحست بالخجل العميق لكشفها تهرب إلى البحر وتختفى.

ومع ذلك فإن الاثنين لا يستطيعان قبض ارتباطهما الوثيق كل للآخر، وعلى الرغم من أنهما لن يلتقيا مرة أخرى فإن الأميرة تهب حبها الأبدى، ويجيب ظل النار بأغنية ينوح فيها: «الى آخر العمر لن أنسى أختى الصغرى التى معها اضطجعت فى الجزيرة حيث يضىء البط البرى وطير البحر».

وما من شك فى أن أسطورة سطوع النار وظل النار سوف تذكر الكثيرين بقصة أوراشيما صاحب ميزونوى الشعبية، فلقد ذهب أوراشيما يصطاد السمك ثلاثة أيام وثلاث ليال، فلم يصطد مع ذلك شيئًا.

ثم كان آخر الأمر أن قنص سلحفاة تحولت حين وقعت فى الأسر إلى فتاة جميلة. وأمرت البنت أوراشيما أن يغمض عينيه على حين قادته إلى جزيرة عجيبة وسط البحر، حيث كانت الأرض مرصعة باللآلئ والجواهر معلقة فى الأشجار. ثم دخلا قصر والد الفتاة، حيث احتفوا به هناك حفاوة باذخة، حتى أظلم الليل، ثم ترك الاثنان وحدهما فمارسا الحب، وإذا بأوراشيما وقد شغفه حب الأميرة ينسى نسيانًا تامًا حياته الأولى، ومع ذلك فقد بدأ فى نهاية ثلاثة أعوام يتنهد من أجل وطنه، وإذا بالأميرة المشفقة على أساه توافق على رحيله، وأعطته صندوق أمشاط مرصعًا بالجواهر، ولكنها نصحته بألا يفتحه أبدًا، حتى لا تفترقا أبد الدهر. وأغمض أوراشيما عينيه، ولما فتحهما ثانية الفى نفسه فى وطنه، هناك طفق يبحث عبثًا عن أصدقائه وأسرته دون أن يجد أحدًا يعرفه. فلما سأل قيل له: إن فى القرية أسطورة قديمة عمن يدعى أوراشيما كان منذ قرابة الأعوام الثلثمائة قد ذهب إلى البحر واختفى.

فإذا به وقد امتلأ غمًا يفتح الصندوق الذى انبعث منه ضباب أبيض تلاشى من النسيم، فلما رأى أوراشيما ذلك تحقق أنه لن يعود إلى لقاء أميرة البحر، فاتجه إلى الجزيرة فى البحر وأفصح عن حبه، على حين كان صوت الفتاة يأتى على النسائم يحثه ألا ينسى أبداً. وفى إحدى الروايات يقال: إن أوراشيما التعس قد ظل يجرى هنا وهناك فى جنون وهو يضرب بقدميه فى أسى، ثم يموت آخر الأمر وقد تكسر جلده بالتجاعيد وخط شعره البراق المشيب.

وهناك من هذه الأساطير ما يقارب أسطورة أوراشيما كتلك الأسطورة التى تروى عن البطل الشعبى ياماتو - داكى أى ياماتو الشجاع. وكان هذا الجليل قد أحرز شهرة بالعمل الحاسم حين التمس منه أبوه فرض النظام على أخيه الأكبر لغيابه عن مواعيد الطعام، وفعل ياماتو - داكى ذلك بمخاطبة الاخى الجلف فى أثناء زيارته الصباحية للخلوة. هناك سحق الحياة منه ثم لف أطرافه المعضاة فى حصير وألقى بها بعيدًا. ولم يكن ياماتو - داكى بأقل كفاية فى معاملة شجاعى كومازو، وهما أخوان فخوران شاذان، إذ اتخذ ثياب امرأة وفتن الرجلين

فتنة تامة بإغراءاته الأنثوية. ففقى أحدهما ثم أغمد سيفه فى عجز الآخر وشقه كالبطيخة الناضجة. وأعقب ذلك فى ايزومو أنه لم يتردد فى اللجوء إلى وسائل مريبة كى يحرز أهدافه، إذ دخل فى صداقة مع محارب ايزومو الذى كان يدبر لهزيمته فصاغ سيفًا من خشب، وبعد أن اغتسلا معًا فى نهر مع الشجاع اقترح مبادلة الأسلحة، فما أن تم الاستبدال حتى تحدى الرجل الأعزل فى الحال إلى القتال، وكانت النتيجة أن أشقى هذا الأخير على حتفه. ثم تولى ياماتو . داكى قبل المشرق، حيث لقى فى أثناء رحلاته الأميرة ميازو التى خطبها لنفسه ثم تزوجها بعد ذلك، ثم كان أن أعطته عمته سيفًا وحقيبة. ثم واصل مسيرة إلى ساجامى. هناك عرضه الحاكم لامتحان بالنار شبيه بالذى استدرج إليه سوساناوو فيها أوكونينوشى فى ميدان الحريق، وفى اللحظة التى أوشك على أن يهلك فيها باللهيب فتح ياماتو . داكى الحقيبة، حيث وجد فيها زنادًا بدأ به لهيبًا مضادا، فأنقذ بذلك نفسه، وكانت ترافقه فى جزء من رحلاته صاحبته أوتوتاتشيبانا، وفى إحدى الوقائع المؤثرة فى أثناء عبورهما أحد البحار، حيث هددتها الأمواج كان أن عرضت الأميرة نفسها قربانا للبحر فأنقذ فعلها حياة سيدها، وقد بلغت حياة ياماتو . داكى نهايتها فى سهل تاجى «المجداف»، حيث صارت رجلاه رغم قلبه الخفيف كالمجاديف ولم يعد يستطيع بعد ذلك المسير. ومن أجل تخليد ذكرى وفاته فقد أنشئ له ضريح عظيم فى ايزى، حيث وقع هناك نحيب عظيم لفقد مثل هذا البطل العظيم. ثم تحول ياماتو . داكى إلى كروان أبيض وحلق بعيدًا فى السموات، حيث اختفى. ومن ثم سمى قبره ضريح الكروان الأبيض.

■ ■ ■

أسطورة الخلق اليابانية

تروى الكتب اليابانية: فى البدء كان الكون عبارة عن محيط من الفوضى ونما فيه نوع من القصب، أو حاكم الأرض، وكذلك إلهان آخران يمثلان عناصر الأنثى والذكر وهما نبفس معنى « إلين يانغ» عند الصينيين، ولكن عند اليابانيين أخذت نفس المعنى «الأنثى التى تستسلم» و«الذكر الذى يستلم» وقد خلق الاثنان العالم المادى، وكذلك الحكام الإلهيين، وإلهة الشمس «أماتيراسو»، و «تسوكى يومى» إله القمر و «سوزانوو» إله العواصف.

ومن المستغرب أن العنصر الأنثوى تحول فى اليابان إلى عنصر التحلل والفناء، حيث تروى الأسطورة أنها أعطت ولاده للنار، وتوفيت وذهبت إلى العالم السفلى حيث الظلام وسافر «إيزاناغى» زوجها إلى أرض الظلام «إيومو تسوكونى» للعودة بها: لأن عملية الخلق لم تكتمل بعد، وفى باب العالم السفلى طلبت منه الانتظار لكى تهيئ الأمور مع إلهة الموت وحذرته من عدم النظر إليها ولكن انتظاره طال فقام بكسر أحد أسنان مشط رأسه وأشعله كشعلة، ودخل أرض الظلام، ولكن ما رآه أفزعه فقد رأى ديدانًا وزوجته «إيزانامى» جثة متفسخة، فتحول اللباس إلى عريشة عنب فجلس الخنزير يأكل العنب، ولكن لحق به فرمى مشط رأسه فتحول إلى قصب، وعندما توقف الخنزير ركض «إيزاناغى»، وعندما عرفت زوجته بهذه الخدع أرسلت خلفه ثمانية من آلهة الرعد ثلاثاً من ثمار الخوخ، وأخيرًا جاءت «إيزانامى» فوجدت أن زوجها أغلق باب عالم الموتى بحجر لا يقدر على إزاحته ألف رجل، وهددته بأنها ستقتل ألف رجل من مملكته كل يوم، وهددها بأنه سيجعل «١٥٠٠» امرأة تلد فى اليوم.

وأهمية القصة تكمن فى قصة الكهف فالحياة فى عبارة عن ممر قصير ثم يأتى الموت.

ديانة أهل اليابان

الشنتوية

وهى الدين الأصيل فى بلاد اليابان، وتعنى كلمة الشنتوية: «الطريق إلى الآلهة» وهى تقوم على تقديس أرواح الأبطال، والأباطرة، وتقديس قوى الطبيعة.. وليس لها مؤسس ولا عقيدة، ولا تعاليم مكتوبة، ومع ذلك فقد عاشت طويلاً فى اليابان قبل دخول البوذية إليها فى القرن السادس الميلادى، حيث اندمجت بها. ثم استقلت عنها ثانية.

والشنتوية ديانة البلاط والدولة، وقد كانت فى أدوارها الأولى نوعًا من عبادة الأرواح ولكنها تقلصت من تطور الأديان، ومع ذلك بقى كثير منها عالقًا فى أذهان العامة من اليابانيين، فهى تظهر بوضوح فى التعاويذ الخشبية أو الورقية التى تعلق فوق أبواب المنازل، أو قطع القماش التى ترفرف فوق الآبار. أو الأشجار المقدسة، أو حبال القش التى تتدلى فوق أبواب الهياكل، وعلى اليابانيين استرضاء هذه الأرواح.

ومن مميزات الشنتوية: عبادة الأسلاف، فاليابانيون يؤلهون الآباء والأجداد. ويبنون لهم الهياكل ويقدمون لهم الذبائح، وكانوا يؤلهون أيضًا الحيوان والنبات. كما كانوا يعبدون قوى الطبيعة كالنار والرياح والأجرام السماوية، والأنهار والصخور والشلالات فهم يؤمونها فى مواسم معينة ويتقربون إليها بالصلوات والتراتيل والقرابين. ولهم عقائد غريبة وخرافات اسطورية عجيبة فى هذه العبادة، فهم يعتقدون مثلاً: أن لكل جبل مرتفع إلهًا أو قديسًا يحرسه، ولابد من إرضائه وتحاشى غضبه، فيحج الناس إلى قمته فى مواكب دينية يرتدون الملابس بيضاء خاصة، ليقوموا بتأدية الفروض الدينية، والصلوات الخاصة اتقاء لشره وطلبًا لرضاه، يقدمون ما تيسر لهم من القرابين والأضحيات، وهم يعظمون إلهة

الشمس حتى العبادة. ومن آلهتهم الطبيعية: إله الأرز الذى تكثر معابده في مناطق زراعة الأرز فى البلاد، وهم يطلقون لفظة «كامى» على كل إله، أو أى شىء يسمو فوق الفرد، كالسماء مثلاً، أو سلطة الحكومة أو الامبراطور.. والشنتوية من الوجهة الخلقية ليست دينًا ساميًا، وهى لا تعير اهتماماً للأخلاق والآداب، لأنها لا تقيم للفرد وزنًا، إلا أنها اهتمت بناحية النظافة الشىء الكثير، فمن قواعدها: «الدنس مصيبة، والرجس خطيئة، والطهارة الجسدية قداسة، وكل شىء يدنس الجسد أو الثياب مستقبح ومكروه».. والشنتوية تعارض إقامة الزينات وزخرفة المعابد، ولا يخلو منزل من ضريح للشنتوية وصورة بوذية، ولوحة خاصة لأرواح الأجداد الذين يجب تقديسهم وتقديم القرابين لهم وحرق البخور من أجلهم..

مثل هذا الاعتقاد، غالبًا من نجده عند الأقوام البدائية، كقبائل الأمازون أو مجاهل إفريقيا، والفرق كبير وشاسع بين الشنتوية، المذهب البدائى، وبين مذاهب البوذية والكونفوشية، التى جاءت اليابان من الصين، والتى تقوم على الفضيلة والأخلاق.

ومع ذلك فقد تمسك اليابانيون بالديانة الشنتوية، التى وقفت فى جه الديانة البوذية القادمة من الصين وكوريا فى القرن السادس الميلادى، حتى ظهر راهب بوذى فى القرن الثامن الميلادى تمكن من تأسيس نظام دينى جديد ذابت فيه الشنتوية، حيث ادمجت كل آلهة الشنتوية، على أنها مظاهر متجسدة لبوذا، وعلى أن يكون هذا شأن الميكادو فى المستقبل، وأن يدمج الأباطرة ضمن هذه الآلهة الصغرى واندمجت الشنتوية فى البوذية.. ويمكن القول : إن معظم اليابانيين يعتنقون الديانتين معًا، وفى الوقت الحاضر ينظر معظم اليابانيين إلى المعبد البوذى مكانًا وقورًا للعبادة، فهم يجرون فيه مراسم الجنازات والمآتم فى حين أنهم ينظرون إلى معبد الشنتوية نظرتهم إلى مكان أكثر بهجة. فهم يقيمون فيه حفلات الزواج، أو تحقيق الأمنيات والسعادة.

وتنتشر المعابد البوذية والشنتوية فى جميع أنحاء البلاد، ويكثر زوارها من

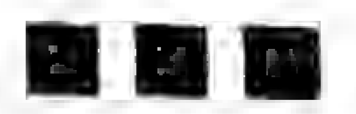
الناس ليقوموا بفرائض الأدعية والصلوات. وعند زياتهم لها يشد زوار المعبد الحبل المدلى على باب المعبد. ليلفتوا نظر آلهتهم إليهم قبل قيامهم بالصلوات. وتلاوة الأدعية فتقبلها منهم..

وبعد ثورة «١٨٦٨م» استيقظ الشعور القومى عند اليابانيين، فأظهروا نفورًا من كل ما هو أجنبى، وأخرجت البوذية من حياتهم، أزيلت تماثيل بوذا من الهياكل،وأوقف الكهنة البوذيون عن ممارسة نشاطهم وعادت الشنتوية دينًا قوميًا فى المرتبة الأولى. وقد وطدت الحكومة أركانها. وجعلت غايتها الاحتفاظ بعبادة الامبراطور، وخلود مركزه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص، والسمو به إلى درجة لا يشاركه فيها أحد.

ويعتقد اليابانيون أنهم صفوة الخلق، وأنهم أول الخلائق، وليس عندهم فى حوادث الخليقة ذكر للأمم الأخرى، وهم يتعقدون أنه كان فى بدء الخلق آلهة ثلاثة تولد منهم مع مرور الزمن أزواج من الآلهة الصغرى، كل زوج منها أصل لنوع من المخلوقات، وكان آخر تلك الأزواج، «إيساناجى» و«إيسانامى» ومنهما نشأت الأرض والشمس والقمر وكل المخلوقات الحية.

ومن الآلهة اليابانية إله يعبر عنه بالشمس، انحدرت منه العائلة الحاكمة فى اليابان وأول ملوكها «جيموتتو» هو مؤسس هذه الدولة، نبغ سنة «٦٦٠ ق. م» وهو متسلسل من «إما تراسو» إلهة الشمس، وهى أكبر المعبودات الشنتوية، والملك عندهم يسمى «تيوشى» أى ابن السماء.

ويعتقدون أن الشمس عندما ولدت «تتجو» سلمت إليه طريق الآلهة، وعاهدته على بقاء السلطة فى نسله ما بقيت الشمس والقمر، وألقت إليه ثلاثة مواد مقدسة هى: السيف، والمرآة، والحجر، وقالت له «انظر إلى هذه المرآة» نظرك إلى روحى، واحفظها معك، واعبدها كما تعبدنى».



عقيدة الشنتو

الكلمة صينية الأصل من مقطعين: Shen-Toa . شين تعنى روح أو إله. وتاو تعنى طريق، والشنتو إذن معناها: طريق الإله.

والدلالة نفسها أول المعنى نفسه فى التعبير اليابانى الأصل Kami-No-Michi «كامى - نو - ميتشى» وهو بالعربية كذلك طريق الإله أو الآلهة.

وعقيدة الشنتو، الدين القومى لليابان. لا تذهب باتجاه الآخر، ولا باتجاه التفكير العقلانى المحدد، بل تقوم هذه العقيدة فى الأغلب على الأساطير، «والعقيدة عندهم تربط معبوداتهم بتعدد آلهة على علاقة بكل مظاهر الطبيعة، حيث الكل مقدس من الكواكب إلى الأنهار إلى الأجداد والسلف إلى الأباطرة والكثير من المظاهر الطبيعية، وعلى هذا الأساس لا نجد للشنتو معتقدًا خاصًا ما خلا الذهاب فى كل ما يقدسونه ويجلونه من مظاهر باتجاه «الكامىKami»، فباسمه ومن خلاله تتم كل الأشياء»(١).

تأسيسًا على ما تقدم يمكن القول إن الشنتو تعنى طريق «كامى» ، لكن الإشكالية هى فى مفهوم الـ «كامى» نفسه، حيث اللبس والغموض. و«على الرغم من أن كلمة «كامى» كثيرًا ما تترجم بإله أو آلهة. فإن من الأفضل، فيما يبدو، أن تظل بغير ترجمة لأنها تقال على الوحوش، والطيور، والنباتات، والبحار والجبال، وظواهر الطبيعة.. أو تنطبق على أسلاف العشيرة أو المحاربين.

وبعد أن أقر أحد فقهاء الشنتو فى القرن الثامن عشر وهو موتورى نورينجا Motoori Norhngga بعجزه عن فهم معنى هذه الكلمة راح يُعرِّفها، بصورة عامة، بألفاظ مقدسة، فيقول: جميع الأشياء أيا كانت التى تستحق التبجيل، وتبعث

(1) Malherbe, Michel, Les religions de I humaite I, Paris,Criterion, Iannee 1993 , Page 333 334

على الرهبة لأنها فوق المألوف، وكذلك القوى الفائقة التى تملكها تسمى «كامى»..

ومع ذلك فكلمة «كامى» موجودة فى اللغة اليابانية وهى تعنى: فوق أو أعلى، وسوف يكون من الحكمة أن نربط بين المقطع Ka الذى هو تعبير عن التعجب أو الحيرة التى يثيرها الشىء المخيف، أو ما لايمكن الإحاطة به»(١)

إن معتقدات الشنتو يتضمنها كتابان يعود زمن صياغتهما بالشكل المتداول حاليًا الى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى، والكتابان هما Nihongi- Ko-jiki كوجيكى – نيهونجى.

وكوجيكى(٢): أى سجلات الآثار القديمة، وقد كتب عام ٧١٢ للميلاد وكتب بالأصل بأحراف صينية تصور بالألفاظ الصوتية للسكان.

أما نهيونجى: أى سجلات الأحداث التاريخية لليابان، فقد كتب عام ٧٢٠ للميلاد. وإذا كان الأول يتضمن أساطير اليابانيين حول خلق العالم وانتشار المخلوقات وارتباطها والدور الأساس فيها للشمس، فإن الثانى يعرض تاريخ اليابان منذ قدم حتى عام ٦٩٧، وفيه سعى لإثبات عراقة اليابان، ومكانة الأسرة الامبراطورية، وهذان الكتابان يعدان من أهم مصادر عقيدة وفكر ديانة الشنتو(٣).

إن الشمس تعد المرتكز الأبرز والأهم فى عقيدة الشنتو، وهى عندهم تتميز من خلال صنمها «بالحكمة والفضل والقلب الطيب الذى ينشر الأمن والنظام،

(١) بارندر، جفرى، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام، مراجعة د. عبدالغفار مكاوى، الكويت ، عالم المعرفة، العدد ١٧٣، ذو القعدة ١٤١٣هـ ـ مايو/ أيار ١٩٩٣م، ص٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) وكتاب الـ «كوجيكى» نقله إلى العربية «محمد عطية»، ونشرته دار الكنوز الأدبية فى بيروت، وهذا الأمر سهل لنا الوقوف على الكثير من معتقدات الشنتو وستستفيد مادة الكتاب من هذه الترجمة.

(٣) يراجع: بارندر، جفري، م.س، ص٣٢٣ وما بعدها ـ الموسوعة العربية العالمية، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة، م١٤،ط٢، سنة١٤١٩هـ ١٩٩٩م، ص٢٧١

وهو الذى ينظم أحوال المعيشة.

وهذه الشمس تسمى: «أماتيراسو ـ أومى ـ كامى - Amaterasu - Omi -

إنها تملك أخًا ذكرًا الذى يسمى:

«سوسا ـ نو ـ وو Swsa - No - Wo»، وفى يوم من الأيام قام « سوسا. نو ـ وو» بعمل فوضى وتشويش داخل مملكة أخيه الأكبر «أماتيراسو ـ أومى ـ كومى» إلى درجة أن صنمه المقدس فزع فهرب واختفى فى غار أو كهف بالسماء ولهذا تظلم الدنيا ويكسوها الليل»(١).

إن عقيدة الشنتو مزيج من مقدسات أو معبودات شتى تتدرج مما هو سماوى إلى ما هو أرضى إلى ما هو بشرى، والـ «كامى» صاحب الفعل فيها كلها، ولابد مع ذلك من الإحسان لتسير شؤون الحياة والطبيعة بالشكل السليم.

يلخص هذا المفهوم العقدى سازو إيديميتسو فيقول: «لدينا نحن اليابانيين تعبير «أون أوشيرو On - O - Shiro»، وأون تطابق بصورة عامة الحسن بالامتنان والالتزام ، ولكنها توحى وتنطوى على أكثر من ذلك.

أون On. عُلِّم اليابانيون فى الأزمنة الغابرة أن يؤمنوا بأنهم مدينون بحياتهم وسعادتهم ورفاهيتهم لـ «شى - أون Shi-On»: أى نعم المحسنين الأربعة. وأن يقدروا واجباتهم حق التقدير.

والمحسنون الأربعة هم: السماء والأرض، والوالدان، والحاكم، والشوجو «Shujo» «جميع الكائنات الحساسة التى تشمل الحيوانات، والطيور، والنبات.. الخ، والإنسان أيضًا».

وبناء على ذلك، يدرك اليابانيون تقليديًا فضل الطبيعة عليهم وواجبهم نحوها، ونحو جميع الظاهرات الطبيعية، والأشياء الطبيعية، والمجتمع وسائر إخوانهم البشر.

(١) رحمات بن داتو بحر الدين، د. حاج أورانج كاي، التفكير الديني في العالم قبل الإسلام، ترجمة وتعليق د. رؤوف شلبي، الدوحة «قطر»، دار الثقافة، بدون تاريخ ص ١٥٨.

ولم يسع أسلافنا إلا أن يعترفوا بجميل «التينو Tinno»، وأن يكونوا ممتنين له، للحماية والعناية اللتين منحهم إياها، ولم يسعهم إلا أن يشعروا بالامتنان للبيئة السليمة التى وفرتها فضائل العائلة الإمبراطورية. كانوا يعلمون أنهم مدينون بحياتهم ورفاهيتهم لنعمة «التينو Tinno»، ونعمة المجتمع، ونعمة الأجداد، وليس نعمة المخلوقات المجانسة وحسب بل، وجميع الكائنات الحساسة.

ذلك هو الحس بال «أون On» وهو ملك لنا نحن على نحو مميز»[1].

العقيدة عندهم فيها: «كامى»، وهو رواح أو قوة تسيطر على الأشياء والبشر، ولا حدود لعدد ال «الكامى» فى ديانة الشنتو، وفيها أون On رمز الإحسان والمحسنين، وفيها «تينو Tenno» وهى ترمز إلى العلاقة مع الأصنام القائمة للمعبودات أو الآلهة المتعددة وعلى فعل وإحسان الإمبراطور.

إن «أماتيراسو»، أو صنم الشمس، هو أكبر هياكل العبادة عند الشنتو، ولكنهم يقيمون إلى جانبه آلاف الأصنام لآلاف الآلهة أو المعبودات كالبحر والجبال.. الخ.

ولكن «الروح الأهم هى الروح المتعلقة بالأمن الغذائى والزراعى، فصنم «إنارى Inari» رمز لإله الأرز الذى جسدوه على شكل الذئب «Serigala»، وكما تقدست هذه الأصنام الكثيرة فإن الأبطال والشجعان قد عبدوهم وقدسوهم كذلك، إنهم ينادونهم باسم «كامى Kami»[2].

نخلص إلى القول: إن «الشنتو» لم يذهبوا فى معتقدهم إلى الإقرار بإله واحد هو الخالق الواحد للكون، وليس لعقيدة التوحيد مكان عند «الشنتو»[3]، بل هم مؤمنون بتعددية الآلهة والمعبودات التى يقيمون لها المعابد «الهياكل» والأصنام أو التماثيل، وتتلازم عقيدتهم مع موقف أخلاقى حازم لجهة التقديس

(١) إيديميتسو، سازو، كن يابانياً أصيلاً، لا بلد نشر، ط١، سنة ١٩٧٣ ص١٣٤.

(٢) رحمات بن داتو بحر الدين، د. حجاج أورانج كاي، م. س، ص١٦٠.

(٣) يراجع: Clarke, peter ,le grand livre des religions du monde paris, solar , lannee 1996, page 197.

والطقوس والطهارة الطقسية تكون بتمكن الإنسان من إقامة علاقة مع الـ «كامى»، وليس للآخرة مكان عند «الشنتو» بل هو دين أرضى التوجهات لا يهتم أتباعه بما بعد الموت، وعندهم مزارات وهياكل يقصدونها بالآلاف، والشعائر الشنتوية يؤديها ما لايقل عن ٩٥ بالمئة من سكان اليابان، وأن اعتناق قسم كبير منهم للبوذية بمدارسها وتفرعاتها لم يمنعهم من أن يحافظوا على طقوسهم الشنتوية، ويعتمدوا المزاوجة بين الشنتوية والبوذية.

لكن لابد من التأكيد أن الـ «كامى Kami» يشكل المحور والركيزة فى عقيدة الشنتو، والذى يشكل صورة فوق طبيعية يصعب تصورها كما أسفلنا القول، كما أن الـ «كامى» عندهم له قدرات لا محدودة وغير اعتيادية.

الخلق والانبثاق الوجودى وفق كتاب الـ «كوجيكى»[١].

إن الشنتو ينطلقون فى عقيدتهم من أساس هو عبادة وتقديس الشمس من خلال الإله «أماتيراس»، وصنم «أماتيراس» يعد عندهم أهم الأصنام والهياكل وأولاها بالعناية والعبادة. لكنهم يذهبون من ذلك إلى الاعتقاد بتعدد الآلهة ناسبين لكل واحد مهمة وخصوصية، وقد تضمن كتاب الـ «كوجيكى» عرضًا كاملاً لعقيدة الخلق عندهم، والتى تعتمد قاعدة الاتصال بين السماء والأرض عبر جسر يصل بينهما.

والأسطورة عندهم تقول: إن أول الموجودات كان ولد آلهة فى السماء هم: الإله المولى مركز السماء المهيب، ثم بعدها كان وجود إله الإنتاج الأعلى المهيب، وأخيرًا كان إله الولادات الإلهية. هذا الثالوث من الآلهة، وهو الأول فى سلسلة الآلهة، له عندهم صور جسدية حسيث صرحوا بأن هؤلاء الآلهة كانوا عازبين وقد حجبوا أجسادهم عن الأنظار، ولم يبرروا كلامهم وعمن كان الحجب ماداموا هم

---

(١) نعتمد فى عرض الموضوع على نسخة منقولة حديثًا إلى العربية، وقد كان فيها فائدة نظرًا لصعوبة متابعة النص لو بقى باللغة اليابانية:

- كوجيكى «وقائع الأشياء القديمة»، ترجمة وتقديم محمد عضيمة، بيروت، دار الكنوز الأدبية، ط١، سنة ١٩٩٩، ص ١٠١ وما بعدها.

أول ما وجد، ثم لم يعللوا سبب قولهم بآلهة ثلاثة. ومن ثم تتولى عندهم أعداد أخرى، ولكن كما يبدو من أسماء هؤلاء الآلهة الثلاثة الأول فإنهم قد نسبوا إليهم المهابة والإنتاج والولادات، وهى الأمور الأساسية فى الخلق والسلطان.

بعدها كان إلهان من الأرض هذه المرة هما: الإله الأمير الرضى، والإله المقيم أبدًا فى السماء، بذلك يكتمل عندهم عقد الآلهة الخمسة السماويين الذين يتميزون عن الآلهة الأخرى التى يقولون بها.

بعدها كان إلهان آخران عازبين ومحجوبين عن الأنظار كالخمسة السابقين هما: الإله المقيم أبدًا فى الأرض، والإله حقل الغيوم الوافرة، بعد ذلك يأتى دور الآلهة المتزاوجين، وحسب أسطورة الـ «كوجيكى» يولد إله الطين وزوجته إلهة السيف، وبعدهما الإله الوتد الصلد وزوجته الإلهة الوتد الهائج، ومن ثم يولد الإله الذكر الهيكل الكبير، وزوجته الإلهة الأنثى الهيكل الكبير، ويأتى دور ولادة الإله الهيئة الناضجة وزوجته الإلهة المعشوق، ويكون أخيرًا من منهما كان الأباطرة، وهما إلهان تبادلا الغواية مما يجعل فعلهما قريبًا مما كان فى الجنة من غواية ووسوسة: وهذان الإلهان هما: إيزاناكى نوكامى وزوجته إيزانامى نوكامى، وإلى هذين الأخيرين أسندت مسألة التكاثر والخلق والتوالد، ومن عملهما كانت الجزر اليابانية حسب الأسطورة.

إيزاناكى ـ نو ـ ميكوتو وزوجته إيزانامى ـ نو ـ ميكوتو جاءهما الأمر من الآلهة السماويين بأن يبدآ مسيرة حياتهما التى كانت منها الجزر اليابانية وهى أول ما وجد من بلاد الأرض، وعندما هبطا باتجاه الأرض، وبينما كانا على جسر السماء العائم الذى يصل السماء بالأرض، أعطيا فأسًا إلهية فغطساها فى ماء البحر المالح وعندما سحباها حدثت بقبقة، وبعدها نزلت قطرات ماء البحر فتحولت إلى جزر اليابان.

وبدأت العلاقة التوالدية بينهما من خلال التكامل بينهما، والعلاقة بدأت هذه المرة بالجسد وترافقت مع إبداء الإعجاب من كل منهما بالآخر وأنه فاتن، وقد جاء فى النص: «وبينما كانا يدوران تكلمت إيزانامى ـ نو ـ ميكوتوا أولاً:

«آه يا للرجل الفاتن» فتابع إيزاناكى ـ نو ـ ميكوتو: «آه يا للمرأة الفاتنة» وكان بعد ذلك إنجاب الجزر، ومن ثم ولادة الآلهة، ومنها إله الريح المدعو:

الإله الأمير ذو الهبوب الطويلة، فإله الخشب المدعو: الإله روح الجذع، فإله الجبال المدعو: الإله روح الجبل الكبير، فإله السهول المدعو: الإلهة أميرة الأعشاب أو الإلهة روح السهل. وهكذا تواصلت سلسلة الولادات من هذا الالتقاء فكان لكل أمر ومخلوق إله، فالإلهة منبثة عندهم فى كل مظاهر الطبيعة، فالنار لها إله، والمناجم لها إله وهكذا.. الخ.

كل ما فى اليابان مولود إلهى: الجزر، الجبال. البحار، مظاهر الطبيعة «السهول، الجبال النباتات، الأشجار»، وكذلك الحكام الأباطرة الذين انحدروا من سلالة أماترياس. ويعدهم الشعب اليابانى عمومًا الذين يعدونه مميزًا ومتميزًا على سائر الشعوب والأمم.

وتوالت عمليات الخلق والانبثاق إلى أن جاء دور ولادة العائلة الإمبراطورية وهى من أنواع الآلهة، والآلهة ـ كما ذكرنا ـ فى اليابان بالآلاف، والولادة الإمبراطورية جاءت من إله الشمس: أما تيراس.

«أماتيراس ـ نو ـ كامى منذ القدم القديم ينظر إليه على أنه رئيس أصنام نحلة الشنتو Shinto ومن بقاياه قطع مادية يعتقد فى قداستها: لأنه يعتقد أنها ترجع إلى أصل الصنم الرئيس المقدس، وهذه القطع المقدسة عبارة عن مرآة وخنجر وبقايا سبحة.

وتبعًا لهذه القصة فإن أماتيراس ـ نو ـ كامى أرسل ولده الذى يدعى: «نى ـ نيجى Ni - Nigi» ليحكم بلاد اليابان، ثم تزوج هذا الابن من ابنة جبل فوجى Fuji، وحفيد هذين الزوجين المسمى جمو ـ تنو Jimmu - Tenno نصب نفسه قصيرًا وملكًا ذا سلطان وحكم، فهو القصير اليابانى الأول.

وبناء على هذا فمنزلة الصنم المقدس أماتيراس مستمرة أبدية طالما حفيده قصيرًا على اليابان. أما عن الارستقراطيين الآخرين فإنهم يعدون من نسل

وسلالة هذه الأصنام المقدسة Dewa Succi لكنها أقل من منزلة الأصنام المقدسة العليا الحاكمة. فإذا كان أماتيراس ـ نو ـ كامى يعتقد أنه رئيس الأصنام المقدسة فإن ذريته Tenno رؤوساء العالم البشري: والمقصود هو الشعب اليابانى»(١).

وحكاية أماتيراس مع الإمبراطور ذى الأصل السماوى مع استخدام السيف والمرآة والسبحة أو العقد كلها وردت فى الـ «كوجيكى» بطريقة أسطورية عملوا من خلالها على تفسير توالى الليل والنهار وإعطاء الموقع الخاص لـ «أماتيراس».

ورد فى الأسطورة: «والحالة هذه ، خافت الإلهة الكبيرة المهيبة أماتيراس فانزوت داخل مغارة سماوية. عند ذلك أسدل الليل ظلامه فارتفعت أصوات آلاف الآلهة، وحلت كوارث لا تحصى «عندئذ اجتمع ثمانية ملايين إله فى مجرى النهر السكينة السماوى، وتواصلت جهود الآلهة مع صياح طويل للديكة فى مسعى لجعل الشمس تشرق، أى كى تخرج أماتيراس من المغارة السماوى، وصنع الآلهة سيفاً ومن ثم مرآة، وعدداً من فصوص الـ «تاما» معقوفة منضدة داخل خيوط طويلة على شكل عقد أو سبحة ومن خلال هذا الإجراء برر الشنتو استخدامهم لهذه الأدوات الثلاثة:

المرآة ـ السيف ـ والسبحة.

بعد خروج أماتيراس من المغارة السماوية، وبدء نظام تعاقب الليل والنهار، وكان الإجراء عندها أن أمرت أماتيراس ولدها كى ينزل إلى الأرض ليكون وليًا للعهد وحاكمًا وليتسلم السلطة من الإمبراطور أوكنى ـ نشى، وهذا الأمر كان جلالة المنتصر حقًا الروح العنيف الانتصار سنابل أرز السماء الوافر فى طريقه إلى الأرض ليحكمها جاءه مولود اسمه جلالة مهدئ السماء والأرض الأمير فوق المذبح السماوى المقدس السنابل الناضجة، وكان أن طلب ولى عهد أماتيراس مولوده للمهمة، وتم اتخاذ القرار بأن وصل جلالة السنابل الناضجة حفيد أماتيراس إلى الأرض ليحكمها، وقد تسلم لهذه الغاية المرآة المقدسة والسيف

---

(١) رحمات بن داتو بحر الدين، د.حاج أورانج كاي، م.س، ص١٥٩.

والسبحة «العقد» وهكذا باتت السلالة الإمبراطورية الحاكمة فى اليابان سلالة إلهية منبثقة من أماتيراس إله الشمس. وهذا ما لا يزال قائمًا وإن كان ثمة تراجع عن شىء من هذا المفهوم قد تم بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، وإلحاق الهزيمة باليابان على يد دول الحلفاء وأميركا خاصة.

عندما نزل حفيد *أماتيراس الأمير جلال السنابل الناضجة إلى اليابان* ليحكمها اتخذ مكانًا لبناء قصره على جبل تاكاتشيهو جنوب جزيرة كيوشيو ... وهناك ولد حفيده الرابع «جيم» جلالة الأمير إيواريه من ياموتو المقدس، وكان أول امبراطور حكم اليابان ومولود فيها، وكان ذلك حوالى عام ٦٠٠ ق.م. وتعاقب الأباطرة اليابانيون من نسله بعد ذلك وصولاً إلى الإمبراطور الحالى أكهيتو الذى استلم السلطة بعد وفاة أبيه الإمبراطور هيروهيتو عام ١٩٨٩م، وبذلك يكون قد توالى على حكم اليابان من هذه السلالة ١٢٥ إمبراطوراً، وبهذا تكون العائلة الإمبراطورية اليابانية أقدم أسرة حاكمة لا تزال فى السلطة فى العالم كله.

الهياكل عند الشنتو:

ديانة الشنتو مبسطة ولا تطالب أتباعها بطقوس خاصة ومعقدة، كما أنها على استعداد للتعايش مع أى مذهب وافد، لذلك باتت الشنتو بالنسبة لليابانيين فى موقع التاريخ والتراث العادات، وطقوسها متوارثة يمارسها معظمهم على أنها حالة من التعبير عن الانتماء للوطن والحضارة.

عند هذا يصح القول: «إن مذهب الشنتو ما هو إلا عادات اجتماعية يابانية تقليدية ومتوارثة عبر الأجيال.. إن الشنتو هى أسلوب حياة يعيشها اليابانيون»[1].

إن الشنتو التى هى طريق الآلهة، حسب مصطلحهم، تقوم تنظيماتها على أساس الاعتقاد بالـ «كامى» الذى تحول مع الوقت إلى شىء معبود عندهم، وكل طائفة أو عشيرة تعتمد نظام عبادة وتقديس تؤدى من خلاله الإجلال والاحترام

(١) شبانة، عبدالفتاح محمد ، اليابان: العادات والتقاليد وإدمان التفوق - القاهرة، مكتبة مدبولى، سنة ١٩٩٦، ص٩، ١٠.

لـ «كامى» خاص بها أو بحاجتها انطلاقًا من حياتها اليومية. وكل واحد يشعر بضرورة عدم *التعارض مع هذا الكائن المفترض والقوة غير المحددة*. والإنسان بحاجة الى التوافق مع الـ «كامى» والرجوع إلى حيث كل واحد عنده مخالفات وانتهاكات تكسر وتعطل هذا التوافق والانسجام مع الـ «كامى».

الـ «كامى» يوفر للإنسان ما لا يمكن حصره من أجل حياته وأرزاقه. وكل وجه له كامى من زراعة الأرز إلى سائر الأمور. هذا الاعتقاد دفع أتباع الشنتو إلى قبول أشكال متنوعة من السحر والتنجيم والشعوذات والأساطير بشكل يبعد عن الواقع والعقل السليم(١).

تركز ديانة الشنتو على فعل الـ «كامى» فى كل ما فى الوجود، ومن جهة أخرى على ما يطلبون إحلاله. والمقدسون عندهم:

الشمس

ولها صنم أماتيراس، والأسلاف، والعائلة الإمبراطورية. وتقتصر أغلب طقوسهم على زيارات موسمية على شكل الحج الى مواقع ترمز إلى عبادة الشمس، أو إجلال الأسلاف، أو تقديس الأباطرة، ولا يتجاوز أتباع الشنتو إلى أبعد من ذلك ولا اهتمام عندهم بعالم آخر وحياة أخروية. ولذلك لا تراهم يعملون لمثل هذه الحياة بعد الموت، وإنما مفاهيمهم الدينية لا تعدو كونها مرتبطة بهذه المقدسات الثلاثة التى ذكرناها. وهذا ما دفع ول ديورانت كى يقول ما يلى: «لم تكن ديانة شنتو بحاجة إلى تفصيل مذهبى أو طقوس معقدة أو تشريع خلقى، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها، كلا، ولا تذهب إلى ما يبعث العزاء فى نفوس الناس من خلود الروح ونعيم الفردوس، فكان كل ما تطالب به معتنقيها أن يحجوا آنا بعد آن لأسلافهم، وأن يقدموا لهم ضراعة الخاشعين،

---

(١) يراجع:

Lenoir, frederi et masquelier, yse, encyclopedie des religons, paris, bayard editions, lannee 1997, page 1127.

(٢) ديورانت، ول، قصة الحضارة، ج٥، م١، ترجمة د زكي نجيب محمود، بيروت، دارالجيل، ص١٢

ويفعلوا كذلك لإمبراطورهم الماضى أمتهم»[٢].

وديانة الشنتو لا تستخدم الصور والرسوم فى معابدها. لكنها تعتمد الرموز وهى كثيرة وأبرزها . ماسبق ذكره ..

المرآة

وهى عندهم تشير إلى الارتباط مع إله الشمس «أماتيراس» حيث المرآة هى الجسم العاكس لنور الشمس، وكذلك يستخدمون السيف. والسبحة أو العقد المكون من مجموعة من الحبات أصلها من الجوهر.

ويبدو أن الشنتو. كما البوذية، بدأت على شكل فلسفة وتوجيهات عامة، ولم يكن فيها قديمًا طقوس وشعائر على مستوى رفيع ومعقد. وقد حدث هذا فى الأغلب مع الزمن وكانت نتيجة لتطوير هذا الديانة من خلال ما أراده أتباعها.

تأسيسًا على ما تقدم يمكن القول: «كانت طقوس الشنتو فى البداية بسيطة إلى أقصى حد، إذ لم تكن تتطلب مبانى خاصة. بل تقام الصلوات، وتؤدى الطقوس فى هياكل طبيعية، تحت شجرة ساكاكى Sakaki المقدسة مثلاً، وهى موجودة الآن داخل كل هيكل فى أية ضاحية، ويتلفظ بالكلمة الإلهية عن طريق الشامان وهو فى حال استحواذ الـ «كامى» عليه، يعبر عنها بلفظ «كامى - جاكارى Kami - Gakari» و «كانجاكارى Kanagakari» التى كثيرًا ما تتجلى فى رقصة الوجد»[١].

ورقصات الوجد هذه تقودهم كما يظنون إلى التوحد مع الـ «كامى»، وهو مطلب ينشدونه. وطقوس الشنتو هذه تؤدى بشكل جماعى لا فردى، وقد اتسع النطاق من الأسرة إلى العشيرة بحيث بات عندهم هيكل لكل عشيرة.

يقول جفرى بارندر عن عبادات الشنتو فى الهياكل: «كانت العبادة فى بدايتها مسألة عائلية خاصة بشؤون الأسرة لا العشيرة، ولما كانت العشيرة امتداداً للأسرة، فهناك عدد كبير من الهياكل مخصصة لـ «يوجى جامى Uji

(١) بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، م س، ٢٣٩، ٢٤٠.

Gami»، أى : كامى العشيرة، وهى تختص بالمصالح المشتركة للعشيرة، والقول بأن الجماعة تستمد وحدتها من علاقتها باليوجى جامى بوصفهم «يوجيكو -Uji ko»، أى أطفال العشيرة. لابد أن يوحى بأن يوجى جامى يقوم مقام الأب «Laco paremtis» بالنسبة للجماعة «أعنى الـ «أويا Oya» أو الأب»، كما يوحى بأن طلب الحاجات المادية له مغزاه، لأن الأب على استعداد أن يمنح أطفاله هبات سخية. وهيكل يوجى جامى يمسى هيكل العشيرة، أو هو يسمى أحيانًا هيكل عشرة كامى»[1].

إن اختصاص كل عشيرة بهيكل معين كان سببه - كما يبدو - ذلك التقديس للأسلاف الموجود فى ديانة الشنتو، ويشترك الكونفوشيون الصينيون مع الشنتو فى هذا الاعتقاد. لهذا كان من الطبيعى أن «تلعب عبادة الأسلاف العائلية - العشائرية دورًا فائق الأهمية فى الشنتوية، وهناك اعتقاد بأن كل ميت يتحول إلى كامى «وهى التسمية العامة التى تشمل كافة الأرواح والآلهة»، ويؤدى رب العائلة أو رئيس السلالة الصلوات اليومية كما يقدم لها القرابين»[2].

أهم الهياكل اليابانية التى يحج إليها الشنتويون هيكل مدينة آيس Ise على المحيط الهادى. ويعد أهم هياكل الشنتو، وقد تم تشييده فى القرن الثالث الميلادى، ويتألف من هيكل داخلى مخصص لعبادة إلهة الشمس «أماتيراس» وللجد الأول للأسرة الإمبراطورية، ومن هيكل خارجى تم بناؤه فى القرن الخامس الميلادى، وهذا أدنى مكانة من الأول، ويخصصونه لعبادة الآلهة «تويوك ميكامى Toyouke Mikami» وهى إلهة الزراعة.

إن من دلائل ارتباط الهياكل بالأسر والعشائر، ما يظهر عندهم من ربط بين الـ «يوجى جامى» وبين عبادة الأسلاف. «إن الـ «يوجى جامى» يمكن النظر إليه على أنه السلف الرئيس المحلى أو القائد المحلى، ويمكن أن يحدث العكس، إذ

---

(1) بارندر، جفرى، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، م.س، ص٣٤٠.

(2) توكاريف، سيرغى، الأديان فى تاريخ شعوب العالم، ترجمة د. أحمد فاضل، دمشق، الأهالى للطباعة والنشر، ط١، سنة ١٩٩٨، ص٢٨٦.

يمكن السلف الفعلى أن يتخذ مكانه الـ « يوجى جامى»، ويبدو أن الحالة الأولى كانت هى حالة أسرة الإمبراطورية التى كانت فى يدها زمام القيادة فى عشيرة «ياموتو Yamuto». فالإمبراطور الكبير لا بد أن يكون كاهن نفسه فى عقيدة أسرته التى تحولت فى تاريخ مبكر إلى الهيكل الكبير «آيس Ise»، وأصبح ينظر الى حارس الأسرة كامى بوصفه سلف الإمبراطور»[١]. ولعل سبب هذا الاستثناء فى التوحد بين السلف عند الأسرة الأمبراطورية والـ « كامى » يعود إلى أعتقاد الشنتو أن العائلة الإمبراطورية أصلها سماوى ـ إلهى.

ومن الهياكل المتميزة عند الشنتو هيكل «تيشا Taisha» فى «إزومو Izumo»، وهو يحمل اسم العشيرة «إزومو». وإزومو التى كانت سوقًا تجاريًا رئيسيًا للمنتجات الزراعية نال شهرة بوصفه من المراكز الدينية المهمة عند الشنتو، وفى ضاحية لجهة الشمال الغربى من تيشا تقع أقدم هياكل الشنتو. حيث كان ولا يزال يقصدها الحجاج من الشنتو على مدى أيام السنة.

وهناك هياكل عديدة أخرى فى إزومو، ومن معتقدات الشنتو أن الآلهة يجتمعون فى أشهر أكتوبر/ تشرين الأول من كل عام فى الهياكل الصغيرة، لهذا كانوا يسمونه شهرًا بلا آلهة.

والهياكل الشنتوية يكون اتجاهها نحو الجنوب وأحيانًا نحو الشرق، ولا تكون مطلقًا باتجاه الغرب أو الشمال فإنهما اتجاهان غير محظوظين عندهم، وكانت الهياكل عندهم تقوم على مدخلها حارسان هما كلبان كوريان باستثناء هياكل الإنارى Inari التى يخصصونها لـ «كامى» حقول الأرز، فهياكل الإنارى يحرسها تمثال ثعلب وسبب ذلك اعتقادهم أن الثعلب هو رسول الـ «كامى».

وهياكل الإنارى مهمة، لأن الإنارى هو الإلهة الذى يحمى زراعة الأرز فى أساطير اليابان، وهو إله العطاء والرخاء؛ لأن الأرز يشكل مادة رئيسة فى طعامهم.

---

(١) بارند. جفرى، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، م.س. ص٣٤١.

يفيد أن نختتم هذا العرض بالقول: إن الهياكل المنتشرة فى أمكنة كثيرة، والتى تشكل أساس العبادة والتقديس عند الشنتو، لا تزال محل اهتمام المسؤولين، وقد ربطوا الشنتوية بالروح الوطنية، فباتت الوطنية اليابانية والشنتوية وجهين لعملة واحدة، ولهذه الغاية «أقاموا نظامًا قامت فيه الدولة بدعم معابد الشنتو الكبيرة التاريخية، وتطوير المعابد الوطنية الجديدة الأخرى، مثل معبد «ميجى» الجميل الضخم القائم على طوكيو. والذى خصص لأول إمبراطور يابانى معاصر، ومعبد ياسوكونى الموجود فى طوكيو أيضًا وقد كرس لأرواح العسكرين الذين ماتوا دفاعًا عن الوطن. ولكى تحافظ الحكومة اليابانية على زعم أن اليابانيين يتمتعون بحريتهم الدينية المطلقة حددت الحكومة رسميًا أن الشنتو الوطنية هى عقيدة الدولة ليس بوصفها ديانة وإنما بوصفها مظهرًا للوطنية»[1].

إن الهياكل شكلت ولا تزال أهم ركيزة فى ديانة الشنتو وفى التقاليد الوطنية اليابانية، فاليابانيون من كل الأعمال والمستويات حتى الإمبراطور والحكام إلى الأطفال يقصدون هذه الهياكل وفقًا لطقوسهم الشنتوية.

■ ■ ■

---

(١) رياشاور، أدوين، اليابانيون، ترجمة ليل الجبالى، مراجعة شوقى جلال، الكويت، عالم المعرفة، الرقم ١٣٦، شعبان ١٤٠٩هـ، نيسان/ أبريل ١٩٨٩م، ص٣١٢.

بعض الطقوس والمفاهيم الدينية للشنتو

تقوم عقيدة الشنتو على أساس تقديم آلهة الشمس ويرمز إليها بـ «أماتيراس»، وتقديس الإمبراطور لأنه سليل آلهة الشمس، ولذلك يخضع. والعائلة الإمبراطورية فى اليابان هى أقدم عائلة حاكمة فى العالم، وقد تجدد مقامها ومكانتها مع الإمبراطور المصلح المجدد شنتويًا ميجى Meigi «١٨٦٧م - ١٩١٢م» ، ويدل ذلك ما حصل عند موته حيث «حزن عليه جميع الناس فى مدينة نيبون Nippon وتردد الجميع عليه للزيارة، ثم اعتقدوا أن روحه لها أصل بالقديس «أماتيراسو ـ أومى ـ كامى» فعظموه ورفعوه؛ لأنه من أصل المقدس. لقد أرادوا أن يعظموه أكثر من كونه إنسانًا عاديًا. القياصرة الذين جاؤوا من بعده قبلوا هذه المنزلة العليا التى خلعت عليه، ومع طوال الزمن ظهرت فكرة: أن تتوهيكا Tenno Heika لابد وأن يعبد من كل طبقات الشعب كما يعبدون إله الشمس»[1].

والمقدس الثالث عند الشنتو هم الأسلاف الذى تقام فى البيوت رفوف عليها صورهم، وإليها يتجه الشنتويون فى صلواتهم.

إلا أن الهياكل تشكل الأساس فى عبادة الشنتو، ومعبد «آيس Ise» على المحيط الهادى يشكل المعبد الأكبر ورمز وحدة اليابان وتراثها. وزيارة الهياكل «المعابد» عندهم ترافقها طقوس خاصة يصفها جفرى بارندا قائلاً: «إذا كانت زيارة الهيكل خاصة سار المتعبد على قدميه بمجرد أن يتخطى الثورى الأول «البوابة الأولى»، ولابد أن يغسل يديه وفمه من ماء نبع طبيعى فى مجمع الهيكل، أو من حوض الماء المحفور فى الصخرة مستخدمًا أوانى يزوده بها الهيكل، ثم يصف المتعبد، أو تصف إن كانت أنثى، وهو يحنى الرأس إجلالاً أثناء تقديم

(١) رحمات بن داتو بحر الدين، د. حاج أورانج كاي، م.س. ص١٦١.

توسلاته. غير أن التوسل يمكن أن يكتب على ورق، ويعلق على إحدى أشجار السكاكى Sakaki المقدسة»[1].

والشنتوية التى لا تعقيدات فى طقوسها بالأصل بل حالة تراثية شعبية وطنية الطابع فى اليابان، تتوارثها الأجيال، ولكن من الزمن تبلورت عندها طقوس محددة عمادها التطهر والقربان المقدم والصلاة ومن ثم الوليمة الجماعية.

تتضمن العبادة الرسمية عند الشنتو أربعة عناصر هى:

١- فعل التطهر «هاراى Harai» بالإضافة إلى الاغتسال، عندما يلوح الكاهن بفرع من شجرة السكاكى» أو بورقة منها» على رأس المتعبد.

٢. ثم القربان «شينسن Shinsen» الذى يكون من الحبوب أو التراب، وإن كانت العادة جرت الآن على أن يكون من المال أو قد يكون رمزيًا فى صورة غصن من شجرة السكاكى.

٣. طقوس الصلاة Norito.

٤. الوليمة الرمزية Neorai دلالة على تناول الطعام من كامى.

وكثيرًا ما يشمل العنصر الأخير رشف قطرات قليلة من خبر الأرز «ميكى Miki» المقدس الذى كان يقدم فى البداية فى عيد من أعياد الحصاد الذى يقدمه الكاهن أو إحدى الكاهنات من الميكو «Miko».

ويمكن لجماعات المتعبدين أن تطلب أيضًا تأدية الرقصة رقصة تعبر عن الأساطير القديمة»[2].

هذا الشكل من الطقوس التى تؤدى فى الهياكل «المعابد» ليست الوحيدة، بل كثيرًا من نرى الأسرة اليابانية تخصص مكانًا للعبادة فى المنزل، ويدعونه كامى .

---

(١) بارندر، جفري، م.س، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) بارندر، جفري، م.س، ص٢٤٣.

دانا Kami-Dana أو «رف ـ كامى»، أو الإلهة على الرف، وهذا ما يصبح بنظرهم هيكل المنزل، وهذا الرف قد يضعون عليه بعض التمائم التى يجلبونها من هيكل «آيس Ise»، الهيكل القومى ورمز الوحدة اليابانية، ووحدة الأسرة ضمن المجتمع تكون من خلال التوحد من الأسلاف والإمبراطور الذى يقوم بدور لكل اليابانيين.

وبالنسبة لصلواتهم، سواء كانت فى هيكل المنزل أو الهيكل العام، فإنهم يمارسون فيها ابتهالات وأدعية تركز فى الغالب على المطالب الدنيوية. وبشكل خاص تلك التى تتعلق بالزراعة. حيث يبتهلون للكامى كى تكون الحاصيل وفيرة ومن ذلك الأرز بشكل خاص. ومن نماذج نصوصهم المستخدمة هذ النص:

«أولاً وقبل كل شيء، هناك فى حقلك المقدس أيها الإله المهيمن،

ليت حبة الأرز الأخيرة التى سيحصدونها،

ليت الحبة الأخيرة من الأرز التى ستحصد،

بحبات العرق المتساقط من سواعدهم،

وتشد، مع الوصل العالق بالفخذين،

ليت هذه الحبة تزدهر بفضلك،

وتتفتح سنابل الأرز التى تتوق إليها الأيدى الكثيرة،

فتكون أولى الثمرات فى الشراب وأعواد النبات»[1].

لكن ما يجدر أن نشير إليه هو أن النصوص ليست موجدة عندهم، بل يقوم الكهنة بصياغة نصوص للتضرعات والابتهالات تتناسب مع الظروف والمناسبات، وقد استمر ذلك حتى بعد عصر الإمبراطور ميجى الذى فرض الشنتوية كديانة قومية يابانية. وفى اليابان أكثر من ٨٠,٠٠٠ هيكل للطقوس الشنتوية، وقد تأسست بعد العام ١٩٤٦، «جمعية هياكل الشنتوية» والتى تولت الإشراف على

(١) بارندر، جفري، م.س، ص٣٤٣. ٣٤٤.

الهياكل وصياغة نصوص الصلوات، لكن مع ذلك بقيت للكهنة الحرية فى تأليف نصوص للصلوات والتضرعات وفق رغباتهم.

العابد الشنتوى يؤدى طقوس صلاته صباح مساء فى هيكل المنزل خاصته، فبعد مراسم الوضوء بالماء ينحنى أمام الهيكل مصفقًا بيديه مرتين، ثم ينحنى بصمت، وبعدها تكون الابتهالات.

الشنتوية لا تبالى بحياة أخروية، بل يصح القول: إن الشنتوية ديانة محض دنيوية لا تؤمن بحياة أخرى غير الحياة الدنيا، لذلك تتركز اهتماماتهم على تحقيق السعادة الدنيوية، والموت عندهم ينتهى بجسم المتوفى إلى منطقة ملوثة، أما الروح فبالموت تكون قد تخلص من قيود البدن المادية لتتحد من جديد بالقوى الطبيعية. وهذا ما يقرب الشنتوية من مفهوم الهندوس والبوذيين الذين يقولون بأن النفس بعد دورة التطهير تغادر الأبدان لتتحد بالروح الكلية للكون.

ولكن هذا المفهوم لم يمنع الشنتو، واستمرارًا فى تقدير وتقديس الأسلاف والأهل من ممارسة طقس سنوى يسمونه «Obon» يوم أرواح الأهل. ما وقائع هذا الطقس السنوى؟ يقول عنها السفير عبدالفتاح شبانة من خلال مشاهداته المباشرة ما يلى:

«يحدث فى شهر يوليو من كل عام فى اليابان حالة تكاد تقترب من الهجرة، حيث يسافر الناس إلى قراهم وموطنهم الأصلى ليحضروا هذا الاحتفال ويسمى يوم أرواح الأهل. يعتقد اليابانيون أن أرواح أقاربهم الموتى تعود فى هذه الفترة إلى منازلهم الأرضية، حيث يستقبلها الأهل بالترحاب والاحتفالات.

تضع الأسرة شعلة صغيرة من النيران فى مدخل البيت من الخارج، وتقدم الهبات إلى نموذج المعبد المقام داخل المنزل، والهبات عادة ما تكون بعضًا من ثمرات فاكهة الموسم مع البخور.

يؤمن اليابانيون أن أرواح الأهل تسترشد بالشعلة، وتدخل المنزل وتحيط بالمعبد الصغير المنزلى وبهم، لتباركهم وتعيش معهم هذه الفترة.

وبعد يومين يعاد إيقاد الشعلة خارج المنزل لتعرف الأرواح طريق العودة إلى مقرها الدائم»(١).

إن هذا الطقس من طقوس الشنتو «يوم أرواح الأهل» يؤكد مدى ارتباط الياباني بالأسلاف وكيف أنهم واحد من مرتكزات العبادة عنده.

وما دمنا نتحدث عن موضوع الآخرة عند الشنتو. وارتباطهم السنوى فى طقس خاص مع أرواح الأهل فإنه من المفيد أن نذكر أن الشنتو قد اعتمدوا تضرعات أو ابتهالات لمراسم الحزن، وتعود هذه إلى الإمبراطور كينكو وعائلته، فعندما مات أحدهم، الذى يسمونه فى كتابهم الـ «كوجيكى» جلالة العنيف . ياموتو . ياموتوتاكير، حيث فى الـ «كوجيكى» ما يلى:

«والحالة هذه، نزلت نساؤه وأطفاله الذين كانوا فى ياماتو، نزلوا جميعًا إلى إقليم إيسيه وبنوا له ضريحًا هناك. بكوا منطرحين على الأرض، مختلجين ، متخبطين فى حقول الأرز المجاورة وغنوا:

سروع الإنيام

التى تلف جذوع الأرز وتعريش بها،

جذوع أرز الحقول المجاورة.

عندئذ تحول إلى طائر أبيض كبير وطار فى السماء، ثم أخذ يطير بأتجاه الشاطئ. أما نساؤه وأطفاله فقد تابعوه نائحين نادبين، ولم يشعروا بالام أقدامهم التى تشققت من جذوع الخيرزان المسكرة النافرة من الأرض، آنذاك أنشدوا مغنين:

فى غابة الخيرزان الغنى

تتعب خواصرنا، ودون أن نذهب إلى السماء

سنذهب إلى الأقدام

---

(١) شبانة، عبدالفتاح محمد، م.س، ص١٢.

وكذلك عندما دخلوا البحر بمشقة وعناء، أنشدوا مغنين:

سنذهب فى الحبر، وتتعب خواصرنا

سنتوه فى البحر، مثل أعشاب

تنبت فى نهر كبير.

وكذلك عندما توقف الطائر وحط على الشاطئ الصحراوى أنشدوا:

يا طير الشاطئ

سوف لن نطير على امتداد الشاطئ الرملى

ولكن على امتداد الشاطئ الصحراوى.

هذه الأشعار الأربعة، أنشدت جميعًا أثناء المراسم الجنائزية، لذلك لا تزال تنشد وتغنى حتى اليوم أثناء مراسم الأباطرة الجنائزية[1].

هذه النصوص التى لا تزال مستخدمة فى المراسم الجنائزة للأباطرة يمكن أن يستمد منها القارئ عبر ويسجل على أساسها ملاحظات هى:

١- الميت الذى يتحلل بدنه تتحول روحه إلى طائر، وبذلك اعتقاد بالارتفاع.

٢- ربط الابتهالات بالأرز والخيرزان والحقول، وهذا ما يؤكد دنيوية اهتماماتهم الدينية.

٣- النظرة للرجل على أنه ضابط الأسرة، بدليل أنهم خاطبوه بأنهم سيصابون بالتيه والضياع والتشرد بعده.

٤- العناية بموطىء القدم، وبما يعتمد عليه الإنسان حيث الشاطئ الصخرى هو المفضل عندهم.

٥- البحر هو موضع الاهتمام الثانى عند الشنتو بعد الحقول مصدر صيد الأسماك، والصيد البحرى من أساسات المعاش كما التراث اليابانى.

---

(١) كوجيكى، وقائع الأشياء القديمة، م.س، ص٢٣٩ ، ٢٤٠.

وهناك مناسبات أخرى على شكل أعياد سنوية تكون فيها للسشنتو زيارات للهياكل وصلوات وتضرعات. ففى ١٧ أكتوبر/ تشرين الأول يكون يوم الاحتفال للكامى. حيث يترافق العيد مع أوائل محاصيل، وفى ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثانى يحجون إلى معبد «آيس Isa» حيث يتقربون للكامى من أجل الأسلاف وعبادة آلهة الشمس أماتيراس Amaterasu طلبًا لمواسم حصاد أفضل.

وعندهم كذلك فى روزنامتهم السنوية مجموعة من الأعياد الأخرى أبرزها:

١- عيد النار، وفيه يزورون هيكل أو معبد Kumano Nuchi.

٢- عيد كامى الماء وفى يزورون هيكل(١) Suijin Matsuri.

إلى غير ذلك من الأعياد ومواسم العبادات، لكننا نلاحظ مجددًا أنها كلها تدور ضمن أبعاد تتعلق بالحياة الدنيوية من الحقول والحصاد والأرز إلى الماء والنار، وهذا ما يؤكد الطابع الدنيوى للديانة الشنتوية التى لا تحفل كثيرًا بحياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا.

■ ■ ■

(١) يراجع:

Clarke, peter B., Ibid, page 201.

ابن السماء

ابن السماء.. هو الاسم الذى يطلقه اليابانيون على الميكادو.. الجالس على عرش اليابان.. ويعتقد سكان بلاد الشمس المشرقة أن نسب الميكادو يمتد بضعة آلاف من السنين إلى زمن لم يكن فيه شىء قط.. سوى آلهة تولد ذكرًا وأنثى.. ثم تموت.. حتى جاء يوم تعلم فيه إلهان شابان سر اتصال الذكر بالأنثى فى الضفادع.. فبدأت قصة الحق.. وجاء ابن السماء.

على رأس قوس قزح.. ذلك الجسر الرائع الذى ينحدر من السماء إلى حيث مياه المحيط الواسع اللانهائى.. وقف الإله الشاب ايزاناجى وفوق رأسه إكليل من النور، يطل فى حيرة إلى رفيقته الإلهة ايزانامى، بجمالها الرائع وشعرها المسترسل على كتفيها كأسلاك الذهب.

وكانت الحيرة تملأ رأس الإلهين الشابين، فقد كانا يدركان خطورة المهمة التى عهد بها اليهما مجتمع الإلهة. حين أصدروا إليهما أوامرهم بالهبوط من السماء ليخلقا أرضًا يقيمان على سطحها الحياة.

ووقف الإلهان الشابان يحدقان فى المياه الصاخبة التى تهدر عند نهاية الجسر .. أيمكن أن يكون هناك شىء صلب وسط هذا المحيط المتلاطم الأمواج يتخذان منه مقرا للعالم الذى كلفا بأن يخلقا فوقه الحياة؟.

وبدا لايزناجى أن يتحسس برمحه الطويل المرصع بالجوهرة صفحة الماء عله يجد الأرض، غير أن شيئًا صلبًا لم يحتك بالرمح قط.. ويئس الإله فرفع رمحه. ولم يكد يفعل حتى تساقط من الرمح قطرات من الماء راحت تتجمع وتتكثف وتتصلب وتمتد فوق صفحة المحيط، لتصبح أرضًا صلبة واسعة.. كانت هى نفسها جزيرة أنوجورو.

وعلى سطح هذه الأرض هبط الإلهان.. وبدأت قصة الخلق.. لم تكن أقدام الإلهين تمس الأرض الجديدة، حتى أحس كل منهما رعشة ضخمة وهو يطل إلى عين الآخر. وشعرا كأن شيئًا غريبًا حارًا يضطرب فى صدريهما. وبدا لهما كأن كلاً منهما يرى الآخر لأول مرة.

لقد كان هناك شىء جديد غريب يحدث للمرة الأولى على هذه الأرض.. شىء اسمه الحب.

وكما لم يحدث لهما فى السماء من قبل، بدأ ايزاناجى يرى فى ايزانامى أشياء أخرى جديدة رائعة. أحسها جيدًا وهو يتأمل شعرها الطويل، وعينيها السوداوين، وشفتيها الساخنتين، وذراعيها المليئتين، وقوامها الفارع المشوق. ولم تكن ايزانامى هى الأخرى بأقل منه إعجابًا به.. فقد وجدت أمامها شابًا رائعًا، فى صدره قوة، فى ذراعية عنفوان، وفى نظراته دعوات كمثل السحر.

وراحت الربة الحسناء تتأمل فى إعجاب وهو يقيم نصيبًا ضخمًا يبدآن منه دورتين يكتشفان خلالهما هذه الأرض الجديدة.. ثم يعودان ليلتقيا عنده مرة أخرى.

وبدأ كل منها دورته فأخذ ايزاناجى أحد الاتجاهين وسارت ايزانامى فى الاتجاه المضاد.

وبينما كان كل منهما يأخذ طريقه على طول شاطئ الجزيرة، راحا يشهدان ما تصنعه الضفادع فى الماء فوق الرمال، وأخذ بهما العجب وهما يكشفان سر اتصال الذكر بالأنثى.. وبدأت تملأ رأسيهما فكرة جديدة لم يعرفاها من قبل.

وهكذا لم تكد ايزانامى تصل إلى النصب وتلتقى بايزاناجى، حتى بادرته وفى عينيها فرح كبير:

- ما أقواك يا ايزاناجى.. وما أشوقنى إلى أن أتزوجك، كما تتزوج هذه الضفادع.

واضطرب ايزاناجى.. فقد كان يريد أن يبدأ هو بالكلام. وبدأ على وجهه

غضب كبير وهو يهتف فيها:

- كيف .. وأنت امرأة .. تتكلمين أولاً؟ إننى أنا الرجل.. وبهذا الحق كان يجب أن أبدأ أنا الكلام.. إن هذا لفأل سيئ.

وبكت ايزانامى، وطأطأت برأسها إلى الأرض. وبدأ الهدوء يعود الى ايزاناجى، وهو يرى دموعها الإلهية لأول مرة.. وقال لها:

- لنستأنف الدوران من جديد. واحذرى أن تبدئى الكلام متى التقينا.

وعاد الإلهان يستأنفان الدوران حول الأرض. وفى هذه المرة، عندما التقيا عند النصب الكبير بادرها ايزاناجى بالحديث وهو يقول:

- ايزانامى .. ما أبهجى إذ التقى بعروس حسناء مثلك.. فهل تقبل الحسناء أن تكون زوجًا وزوجة.

وأومات ايزانامى برأسها.. وهكذا تزوج الإلهان.

ولم يكد يمضى من الوقت سوى قليل، حتى أنجبت ايزانامى أربعة آلاف ومائتين وأربعة وعشرين ابنًا هم مجموع جزر اليابان.. بكل ما فيها من جبال وصخور وأنهار.. وبكل ما يعمرها من أناس وحيوان ونبات.

وجلس الزوجان ذات يوم يتحدثان. وقالت ايزانامى لزوجها ايزاناجى:

- لقد أنجبنا هذا العدد الكبير من الأبناء لنخلق الأرض ونملأها بالحياة.. فلم لا نخلق ابنًا جديدًا يكون سيدًا لكل الأرض؟!.

ولم يكن هناك ما يمنع التنفيذ.

وولدت ايزانامى أنثى هو أماتيراسو.. ربة الشمس.. التى بلغت من الروعة والجمال حدًا جعل والديها يقرران ارسالهما على الجسر الالهى إلى السماء.. لتستقر هناك.. ولترسل اشعتها الذهبية البراقة لتنير الأإض..!

وعاد الالهان ينجبان من جديد..

وكان الابن الثانى هو تسوكى يومى.. إله القمر الذى كان تألقه الفضى أقل روعة من تألق شقيقته. إلا أنه بدا حقيقًا بأن يكون رفيقًا لها. فأرسله أبواه على قوس قزح ليستقر هو الآخر فى السماء..

غير أن الأخوين ما أسرع ما تشاجرا واختلفا. وصرخت أماتيراسو فى أخيها تسوكى يومى ذات يوم:

- إنك دعى محتال.. إننى أكرهك.. ولا أريا أن أرى وجهك بعد الآن.

وذهب تسوكى يومىْ إلى أبيه يشكو من أختـه. فلم يسع الأب إلا أن يبعد كلا منهما عن الآخر.. ومنح أماتيراسو مملكة النهار، كما منح أخوها تسوكى يومى مملكة الليل.

واستمر الأب والأم ينجبان.

وكان الوليد الجيد هو سوزانو، الذى لم يكد يهبط على الأرض، حتى أثار صخبًا وضجيجًا وزوابع جعلت منه رب العواصف.

واضطر أبوه أن يسلمه مملكة البحار بأمواجها التى تبلغ ثمانيائة ألف موجة.

ولم تكن ايزانامى قد اكتفت بالأبناء بعد..

كان الويد الجديد الذى أنجبته هذه المرة هو كاجوتسوشى، رب النار، الذى لم يكن يولد حتى أصاب أمه بحمى قاسية شديدة.. أحرقتها.

وكان لابد لايزانامى بعد ذلك أن تنحدر إلى العالم السفلى. بعيدًا عن الأرض التى خلقتها.

❖❖❖

اختفت ربة الأرض، وبقى زوجها وحيدًا شقيًا لا يحس لحياته معنى على الإطلاق. وكان ايزاناجى يعلم أن الأموات عندما ينتقلون إلى العالم السفلى لا يدركهم الفناء، بل يقضون هناك حياة أخرى جديدة.

وكان يعلم أنه سيأتى يوم يذهب هو الآخر فيه الى العالم السفلى، حيث يلتقى بزوجته..

غير أن ايزاناجى، لطول ما حزن وتألم لفراق زوجته، لم يطق انتظار ذلك اليوم، وقرر أن يذهب بنفسها إلى أرض الجحيم ليراها، وليحاول انتزاعها من هناك والعودة بها إلى الأرض.

وانطلق ايزاناجى إلى المنفذ الذى يفصل بين الأرض والعالم السفلى، وانحدر منه إلى مملكة الجحيم، حيث الظلمة تطغى على كل شىء، وراح يجوب الطرقات المظلمة محاولاً اختراق حجب الظلمة ببصره بحثًا عن زوجته الحبيبة.. ولكن دون جدوى.

وإذا ملأ اليأس قلب ايزناجى من العثور عليها، قرر العودة إلى سطح الأرض ليحبس نفسه حتى يقضى عليه بالذهاب إلى عالم الظلمات.

وبينما هو يدير قدميه ليعود أدراجه ، فوجئ بصوت رقيق يهمس فى أذنه ويقول له:

- هذا أنت يا زوجى الحبيب.. الا ما أسعدنى بلقياك.. وما أعظم الشرف الذى أضفيته علىّ بمجيئك بحثًا عنى فى عالم الظلمات.

وتلفت ايزاناجى إلى حيث مصدر الصوت، وحاول أن يرى زوجته ولكن الظلمة الحالكة لم تكن تبدى له شيئًا قط.

وقال يخاطب صوت ايزانامى:

- زوجتى الحبيبة.. تعالى إلىّ.. اقتربى منى أنا الذى اخترقت من أجلك كل هذه الظلمات.. عودى معى إلى عالم النور.. إلى الأرض التى لا تزال تنتظر منها الكثير.

وسمع ايزاناجى صوت ايزانامى يقول:

- أبدًا يا زوجى الحبيب، لقد مضى الوقت الذى كان يمكن أن أعود فيه اليك.. فقد جئت متأخرًا جدًا.. إذا أكلت منذ لحظات طعام الجحيم الذى لا

يمكن لمن يتناوله إلا أن يستلقى ليستريح فى عالم الظلمات. فاذهب أيها العزيز.. اذهب ولا تحاول الاقتراب منى أو النظر الى أو رؤية وجهى.. فالقانون هنا صارم مخيف.. لا يسمح فيه للأموات أن يراهم الأحياء قط.

وصرخ ايزاناجى: أيمكن بعد كل تلك المتاعب التى لقيها خلال رحلته الشاقة عبر العالم السفلى، أن يعود بغير ان يراها..؟! أبدًا.. إنه لن يستطيع العودة بغير رؤية زوجته الحبيبة.

وبرغم الوعد الذى قطعه على نفسه بألا يحاول رؤيتها، فقد وجد نفسه آخر الأمر، مدفوعًا بفضوله وعاطفته معًا، إلى أن ينقض الوعد..

وفى بطء مد ايزاناجى يده إلى مشطه المغروز فى شعره فانتزعه من مكانه. وكسر أحد أسنانه.. ثم أشعل فيه النار.

وكان المشهد الذى اطلعت عليه عيناه مروعا مخيفا.

ففى نفس اللحظة التى استنار فيها الجحيم، سقطت ايزانامى فى عنف، وتحول وجهها الجميل فى سرعة ليصير بشعًا مخيفًا عفنًا. وانطفأ البرق الرائع الذى كان ينبثق من عينيها فإذا بهما ثقبان غائران مخيفان، يسرى فيهما الدود وينطلق منهما لينتشر على كل جزء من الجسد الذى ملأه العفن..

وانطلق صوت ايزانامى، وهى تتلوى، مرعدًا رهيبًا:

- اخسأ أيها الشقى. الا فلتنصب عليك كل لعنات السماء جزءًا ما نقضت عهدك فألقيتنى إلى العذب ولوثتنى بالعار.

وعادت جثة ايزانامى تتلوى فى جنون. فقد انقضت عليها آلهة الرعد الثمانية منبثقة من رأسها وثدييها وبطنها وكفيها وقدميها وهى ترعد بأصوات قوية بشعة صاخبة، يهتز لها الجحيم.

واندفع ايزاناجى يجرى فى رعب مذعور.. على حين أن صرخات ايزانامى

---

(١) رحمات بن داتو بحر الدين، د. حاج أورانج كاي. م س، ص١٦١.

الغضبة المعذبة تهتف داعية زبانية الجحيم المخيفات ليتبعن الرجل الذى خدعها وألقى بها إلى التهلكة.

اندفع ايزاناجى يرجى فى رعب مذعور.. على حين أن صرخات ايزانامى الغاضبة المعذبة تهتف داعية زبانية الجحيم المخفيات ليتبعن الرجل الذى خدعها وألقى بها إلى التهلكة.

يمثلن القبح والدمامة والشراسة، وأسرعن خلفه، واستمر هو يجير أمامهن هاربًا فى منحنيات الجحيم.. حين حتى اذا وجدهن قد كدن يلحقن به أسرع فخلع الاكليل الذى يحيط برأسه وألقاه نحوهن . وفى لحظة.. تحول الاكليل إلى عناقيد من العنب، لم تكد الزبانية البشعات ترينها حتى توقفن.. ثم انحنيت فوقها يأكلن فى شراهة وجوع.

وغادت ايزانامى تصرخ فى مسوخ أخريات أن يتبعن الهارب.. واندفعت المسوخ فى قوة حتى كدن يبلغنه، فمد يده يخلع مشطه وألقاه نحوهن. وفى الحال انقلبت أسنان المشط إلى عيدان طويلة من القصب سال لها لعاب المسوخ فتوقفن ورحن يلتهمنه فى لذة وبأصوات كهزيم الرعد.

واستمر ايزانامى تصرخ، وفى هذه المرة انطلق خلف الإله الهارب ألف وخمسمائة من جنود الجحيم، فأخرج ايزاناجى سهامه وراح يلقى بها إلى الخلف على حين أن يندفع إلى أمام حتى وجد نفسه آخر الأمر يقترب من المنفذ الذى يقوده إلى خارج عالم الظلمات.

وفى ذلك الوقت كانت جثة ايزانامى هى التى تجرى بنفسها مندفعة خلفه. وكادت يداها المعقوفتان تمسكان به فى الوقت الذى كان هو ينطلق من الثقب الذى يفصل بين العالمين؟ ويمد يده إلى صخرة كبيرة هائلة يدفعها ليسد بها الثقب الملعون.

---

(١) بارندر، جفري، م.س، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) بارندر، جفري، م.س، ص٢٤٣.

وسمع ايزانامى تصرخ من الناحية الأخرى:

ـ انتظرنى يا زوجى العزيز لا تذهب لا تقل الوداع.. عد إلىَّ.. فإنك إذا هجرتنى فسوف أهلك فى كل يوم ألف رجل على الأرض.

وأجاب أيزاناجى وهو يثبت الصخرة على مدخل الجحيم:

ـ اصنعى ما تريدين فلن أعود.. وسوف أعمل على أن تستقبل الأرض ما لا يقل عن ألف وخمسمائة طفل جديد كل يوم بزيادة خمسمائة عن العدد الذى سوف تهلكينه.

وهكذا هرب ايزاناجى من الجحيم.. وقد وقدر لسكان الأرض يموت منهم كل يوم ألف شخص.. وأن يحل محلهم ألف وخمسمائة من المواليد.

وبينما كان كل ذلك يجرى فى أعماق الجحيم، كان سوزانو ـ رب العواصف ـ قد انتهز فرصة غياب والديه وراح يلعب دورًا آخر على الأرض.

والحق أن «سوزانو» كان ذا خلق عنيف ميال إلى الشر. وكان برغم لحيته الطويلة البيضاء التى تبعث على الاحترام ولا يدع وقتًا يمر إلا ويرسل فيه عويله الطويل ونحيبه الذى يثير التشاؤم فى كل النفوس، ولا يعبأ خلال هذا بتحطيم كل ما يعترض سبيله بسيفه الطويل البتار.

وعندما عاد ايزاناجى ووجد ولده «سوزانو» سادرا فى غيه قرر أن ينفيه إلى أرض الجحيم.

ولم يكن سوزانو يستطيع الاعتراض غير أنه أجاب أباه:

ـ أنا طوع أمرك يا ابتاه.. وسأهبط فورا إلى العالم السفلى.

ولكنى أرجو قبل أن أذهب إلى عالم الظلمات أن يسمح لى بالصعود إلى السماء لأرى أختى العزيزة أماتيراسو قبل أن اختفى من هذا العالم إلى الأبد.

ووجد رب هذا العالم أن رغبة ولده ليس فيها ما يضر. فأذن له بالصعود إلى السماء.

وتحـرك «سوزانو» فى طريقـه إلى السـمـاء.. وبينمـا كـان فى صـعـوده عـوت السماء والأرض والبحار والجبال بعواء رهيب مخيف.

وبلغت الأصوات الرهيبـة أذن أمـاتيـراسـو.. ربة الشـمس.. ولما أطلت من عليائها فإذا أخوها الشرير يقترب من مملكتها ومن حوله رعود وبروق.

وارتعدت ربة الشمس وهى تحدث نفسها:

ـ لماذا يزحف أخى الشـرير إلى مملكتى؟ لخـيـر قـدم أخى يا تـرى أم لشـر؟ ولكن إن خـيـرًا يمكن أن يفكر فـيـه هذا الجـحـود. إنه ولا شك يهـدف إلى أن ينحينى عن عـرشى.. بـرغم أن أبوينا حـددا لكل منهـا حدوده.. ليكن اذن مـا يريد.. وسأعرف كيف أقاومه وأنزل به عقابًا صارمًا لا ينساه مدى الحياة.

وأخذت أماتراسو أهبتهـا لمعرفة عنيفة رهيبة. فـجذبت شعـرها الذهبى الطويل وجمـعته فى عقـد كثيـرة متألقة، وثبتت كل جواهرها ولآلئها فى العقد الذهبية، ثم وضعت فوق ظهرها كنانتها وفيها ألف سهم، أمسكت بإحدى يديها درعًا قويًا صلبًا على حين أن اليد الأخرى تمسك بقوس عظيم رهيب.. وانطلقت وهى فى ذلك الاستـعـداد الضـخم إلى حـيـث وقـفت على ضـفـة نهـر السـمـاء، وأزاحت طبقة من الثرى لتجعل لنفسها فيه خندقًا. وغاصت فى الخندق حتى الركبتين..

على أن كل مـا فعلتـه كان عبثًـا. فعندمـا وصل أخوها ووقف على الجانب الآخـر من النهـر لم يكن يبـدو على وجـهـه شىء من نوايا الشـر التى توقـعتـهـا. وتحدث إليها سوزانو فى هدوء وراح يقول:

ـ ما هذا الذى أراه أيتها الأخت؟ ولأى سبب تستقبليننى هذا الاستقبال العدائى على حين إنى قادم إليك وكلى شوق لرؤيتك والاستماع إلى صوتك الحبيب؟

وأجابت أماتراسو:

ـ ولكن ما الذى جعلك تحضر إلى مملكتى بغير إذن منى؟

أجابها سوزانو:

- لقد قرر أبى نفيى إلى عالم الظلمات. ولم أطق الذهاب بدون أن أرى شقيقتى الكبرى الحبيبة. ولقد اجتزت على قدمى من أجل أراها كل تلك السحب والغيوم وصعدت كل هذا الارتفاع الشاهق بغير سلم استعين به.. فكيف لا تملأنى الدهشة عندما أجدك تستقبليننى هذا الاستقبال العدائى؟

وتقبلت أماتراسو حديث أخيها بشىء من الشك، فما كانت قسوته أو خداعه ليخفيها عنها. وقررت أن تكرم وفادته على أن تكون على حذر، حتى تتأكد من حسن نواياه.

والواقع أن الغطاء البراق الذى كان «سوزانو» يضعه على وجهه سرعان ما انكشف .. وكانت أماتراسو قد زرعت بضعة حقول للأرز فى السماء، بعضها ضيق قصير وبعضها واسع طويل.. وما كان أسعدها بهذه الحقول التى زرعتها بأيديها. وعندما جاء وقت بذر البذور فى الربيع إذا بسوزانو يفاجئها يومًا بتخريب كل القنوات التى صنعتها! وإذا ثغرات الرى قد سدت، وحواجز الحقول قد هدمت ودمرت تدميرًا.

وثارت ربة الشمس. غير أنها كظمت غيظها وظلت تنتظر صابرة.

غير أن الأخ الشرير الثقيل لم يكفه ما صنع. وإذا به يفاجئها ذات يوم على حين أنها جالسة فى غرفة النسيج السماوية ترقب صانعة أردية الآلهة. فثقب سقف الغرفة وألقى عليها وعلى الغازلات جثة حصان مسلوخ يقطر من جراحه دم فاسم غزير.

وذعرت ربة الشمس، واضطرب حتى كادت تجرح نفسها بأبرة الغزل. وملأها غضب جبار، وتحول وجها إلى لون أحمر فاقع كالدم. وأطبقت قبضتها من جديد تلوى كل خيوط شعرها الطويل، وأقسمت فى صوت كالرعد، إلا أن تترك عرشها احتجاجًا على الآلهة الذين يسمحون لمثل هذا الشقى الفظ بالبقاء فى مملكتها.

وأسرعت ربة الشمس تتوارى خلف صخور السماء. واندفعت إلى كهف ضيق فدخلته،وأحكمت إغلاق بابه خلفها، وقبعت بداخله تبكى وتنتحب.

وغمر الظلام العالم، ولم يعد هناك ليل أو نهار، ولا نور أو ضياء.

وارتفعت صرخات سكان الأرض تستنجد بآلهة السماء.

واجتمع الآلهة الذين يبلغ عددهم ثمانية ملايين إله على شاطئ النهر السماء. وراحوا يبحثون كيف يزيلون أسباب الهول الأعظم الذى حل على الأرض.

وكان لابد للجميع أن يفكروا فى وسيلة يمكن بها إقناع ربة الشمس بالعودة إلى عرشها العظيم. واستمرت المناقشات طويلة هادرة لم تستقر وتهدأ إلا حين خرج عليهم رب الحيلة بفكرة وجدها صالحة جديرة بالنجاح.

قال رب الحيلة وهو يعرض فكرته أن ربة الشمس أنثى.. وكل النساء يمكن التأثير عليهن إذا شحذت غيرتهن وأثير فضولهن وأغرين بالزينة واللآلئ والجواهر البراقة.. وكل ذلك يمكن أن نقدمه لربة الشمس إذا أتيتمونى بمرآة لامعة أضعها فى مواجهة باب الكهف وزودتمونى بعقود علوية من الجواهر واللآلئ..!

وجمع بعض الآلهة نجومًا من السماء ضمت إلى بعضها البعض لتؤلف مرآة لمعة رائعة. وانطلق آلهة آخرون يجمعون طيورًا صداحة من كل جوانب العالم الخالية.. على حين راح آخرون يبتدعون آلات موسيقية جديدة ترسل أنغاما لاتصدر إلا من السماء.

وعندما تم إعداد كل شىء انطلق الآلهة أجمعون إلى الكهف الذى تختفى بداخلة ربة الشمس، وتجمعوا أمامه فى حفل صاخب عربيد.

على حين كان رب الحيلة يغطى فروع شجرة السكاكى التى تواجه الكهف بعقود من أثمن المجوهرات وعناقيد من أروع اللآلئ. وفى وسط الشجرة فيما

يواجه باب الكهف أقام رب الحيلة المرآة السماوية اللامعة.

ومن كل جانب انطلقت ألحان شجية صدحت بها طيور الخلود.. وعلى أنغامها راحت ربة الرقص أوزوم فى ردائها القدسى ترقص رقصًا هازلاً عربيدًا انفجر له الآلهة جميعًا ودوت ضحكاتهم صاخبة تهز أركان الكون.

ومن وراء باب الكهف كانت ربة الشمس تنصت إلى الصخب والضجيج فى استغراب وعجب كبيرين. وعندما ازداد فضولها وثارت بها الرغبة فى كشف سر ذلك السرور الذى يملأ المكان فتحت الباب قليلاً فى هدوء.. وفى هذه اللحظة أشرق النور مرة أخرى على العالم الذى كانت الظلمة تغمره، وامتدت خيوط الذهب فى الشعاعات المتألقة تفيض بالضياء الذى يبعث الحياة.

وشهدت ربة الشمس المجتمع الإلهى الذى كان يصخب فى سرور وانطلاق.. وراحت تتساءل عن سره.. فأجابتها ربة الرقص أوزوم:

- تسألينا عن سر صخبنا وفرحنا؟.. إذن فاعلمى أننا قد وجدنا ربة أخرى تفوقك جمالا وروعة.

وفتحت ربة الشمس عينيها فى استغراب وقلق.

وبدأت تدور بعينيها فى الجمع الحاشد علها تستطيع أن ترى منافستها.. واضطرب من أجل أن ترى المجموعة كلها أن تفتح الباب كله وتظل أمامها.. وعندئذ عكست المرآة اللامعة الصورة الرئعة لربة الشمس.. تتألق حسنا وروعة وبهاء.

ومد أحد الأرباب يده ليمسك بيدها.. على حين كان رب آخر ينصب وراءها حبلاً من قش ليمنعها من العودة إلى الكهف.

وعندما أدركت ربة الشمس الخدعة. لم تغضب ولم تصمم على العودة .. بل أبدت موافقتها على الصعود إلى عرشها بشرط أن يعاقب الآلهة رب العواصف..

وفى لحظة .. كان الملايين الثمانية فى آلهة السماء يهجمون على «سوزانو» ويلقون به على الأرض.. ويحلقون لحيته.. وينتزعون أظفار يديه وقدميه.. ثم

يحملونه جنينًا ليلقوا به من السماء إلى الأرض.

ومنذ ذلك اليوم لم تغضب ربة الشمس عن عرشها قط..

❖❖❖

وعادت الحياة إلى الأرض. وانقطعت عن الآلهة صرخات الاستجداد التى كانت تنبعث من أهلها.

ومع ذلك فقد عاد الآلهة يجتمعون من جديد.. ولم يكن سكان الأرض هذه المرة هم السبب.. ولكن الضيق الذى أخذ بالآلهة كان مبعثه ذلك الطنين المزعج المنبعث من كل ما على الأرض من جبال وصخور وسهول وأشجار.. فقد كانت كل هذه الأشياء لا تزال تتكلم تمامًا كأبناء البشر.. وكان الطنين الذى يحدثه كلامها، وخاصة فى سكون الليل يؤرق آلهة السماء.. واجتمع شملهم للبحث عن وسيلة يقضون بها على هذ الضجيج.. وينشدون الهدوء والسلام على الأرض..

وعندما ارتفعت أصوات الآلهة فى خلال مناقشاتهم.. تقدمت ربة الشمس تعرض أن ترسل حفيدها «نينيجى» ليحكم هذا العالم المضطرب ويعيد إليه المجد والسلام.. على أن يرسل الآلهة قبل ذلك رسولاً يمهد له الطريق. وأعجب الآلهة بفكرة إرسال واحد من أبناء السماء ليكون سيدًا على الأرض. واتفقت كلمة الجميع على أن يهبط إلى الأرض الرسول أمانوهو، ليمهد الطريق لأبناء السماء.. حفيد ربة الشمس.

ومضت سنوات ثلاثة ولم يعد أمانوهو. وأرسل الآلهة من بعده ولده يبحث عنه ويعيده. ولكن الابن أعجبته الحياة على الأرض فلم يصعد إلى السماء قط. وتتابع الرسل إلى الأرض.. وتتابعت خياناتهم للسماء.. فلم يكن بد بعد ذلك من أن يهبط حفيد ربة الشمس.. وابن السماء.. «نينيجى» بنفسه.. ليضع حدًا لكل تلك الخيانات..

وقربت أماتراسو حفيدها منها، ومنحته بركاتها ونصائحها، وزودته بهدايا قـ مة ثمينة من بينها أحجار كريمة اقتطعت من سلم السماء، وكرات شفافة من

قبتها، وسيف خالد وجد فى قلب التين. ولم يكتف ربة الشمس بهذه الهدايا، بل منحته أيضا المرآة السماوية التى أهدها لها الآلهة من قبل يوم غضبتها الخالدة.

وودع «نينيجى» جدته، وأخذ طريقه إلى الأرض، يحيط به موكب من الآلهة، بينهم ربة الرقص أوزوم. تلك التى أثارت رقصاتها العربيد ضحكات الثمانية ملايين إله.

وراح موكب الآلهة يخترق السحبب حتى بلغوا مفرق الطرق الخالد، حيث الطريق الرئيس إلى ثمانية فروع. وهناك توقف الجميع فجأة، وبدأوا يتراجعون إلى الخلف فى ذعر.

وعند المفرق الخالد كان يقف وحش هائل تبرق عيناه بلهب صاخب له فحيح..

وبدأت أقدام الآلهة وبينهم «نينيجى» تضطرب وتتراجع، عدا أوزوم التى وقفت فى جرأة وتقدمت من الوحش تسأله من يكون؟ وماذا تريد؟ ويكف تجرؤ على اعتراض الموكب الإلهى؟ وأجاب الوحش:

- أنا رب حقول الأرض.. وقد قدمت لأكون فى استقبال ابن السماء «نينيجى» سيد الأرض كلها.. ولأكون مرشده الأمين. عودى إلى سيدك، أى أوزوم، وارفعى إليه رسالتى.

وأبلغت أوزوم رسالة رب الحقول إلى ابن السماء. وعاد الموكب يستأنف طريقة عبر السحب حتى بلغ جسر السماء الذى تم عبوره وبلع الموكب بعده أرض تكاشيهى.

وبدأت رب الحقول يرشد ابن السماء فى رحلة طويلة مرهقة حول الأرض التى كان عليه أن يحكمها ويهديها إلى السلام.. وفى إحدى المناطق القدسية استقر رأيه على إقامة قصره.

وجد ابن السماء أنه قد أصبح من واجبه أن يقدم شكره لمرشده الأمين..

فمنحه زوجة رائعة.. إلهية.. هى أوزوم ربة الرقص نفسها.. وعندما شهد فرحة العروسين.. أحس هو الآخر برغبة قوية فى أن يفرح كما فرحا.. وراح يطل حوله باحثًا لنفسه عن عروس، حيث شاهد حسناء رائعة الجمال تنتصب قائمة إلى جوار حدائق الزهور.

وتقدم ابن السماء إلى الحسناء يسألها من تكون .. وأجابت الحسناء:

ـ أنا كونوهانا.. ابنة ملك الجبل المقدس.. ومهمتى أن أصنع الزهور التى تغطى الأشجار على هذه الأرض.

وما كان أسرع ما وقع «نينيجى» فى هوى كونوهانا.. فانطلق إلى أبيها.. «أوهوياما» وطلب منه يد ابنته..

وكان لملك الجبل المقدس ابنة اسمها ايهاناجا، طويلة كعمود الصخرة. تكبر كونوهانا، ولكنها كانت بالغة الدمامة والقبح، ومع ذلك فقد أراد أوهوياما أن يكون لأبناء «نينيجى» أعمار طويلة خالدة كعمر الصخور. ومن أجل هذه الرغبة أبى إلا أن يقدم ابنتيه معًا زوجين لابن السماء..

ولم يجد «نينيجى» بدأ من الزوج بالأختين. غير أن كل حبه كان يتجه إلى الزوجة الحسناء.. بينما بدا منه إهمال كبير لشقيقتها المشوهة.

وملأ الغضب قلب ايهاناجا.. ووجدت نفسها تصرخ ذات يوم فى «نينيجى»:

ـ لو أنك اخترتنى وأحببتنى .. لجعلت عمر أبنائك خالدًا مثل عمر الصخور.. أما وقد فضلت على أختى الصغرى.. فإنكما وأبناءكما ستذوون سريعًا كما تذوى الزهور.

وقد كان..

وعاش «نينيجى» ابن السماء سعيدًا مع زوجته الحبيبة كونوهانا. غير أن هذه السعادة لم تدم طويلاً، فقد أعمت الغيرة قلب «نينيجى» ذات يوم.. وملأت رأسه بالجنون.. ولم يكن هناك من سبب لهذه الغيرة المجنونة التى شقيت بها

كونوهانا.. فما كان هناك من يغار منه زوجها.. فانطلق إلى كوخ أغلقته على نفسها.. ثم أشعلت فيه النار..

ومن بين ألسنة اللهب خرج ثلاثة أطفال، من بينهم كان «هورى» .. الذى نسلت منه سلسلة متصلة مقدسة الحلقات من «الميكادو» .. هم الذين جلسوا على عرش اليابان منذ ذلك التاريخ حتى اليوم.

■■■

غضب ربة الشمس

ورثت ربة الشمس «أماترازو» عن أبيها «إيزاناجى» عالم السماء، وورث أخوها رب القمر «تسوكى نوكامى» عنه مملكة الليل، وكان من نصيب أخيها الثانى رب العواصف «سوزانو» رقعة [1] البحار بما فيها من أمواج تبلغ ثمانى مئة ألف موجة.

وكانت ربة الشمس فتاة رشيقة القوام، طويلة الشعر، براقة العينين، تنبعث من جسمها أشعة النور.

مَثَلَ [2] بين يديها ذات يوم رسول من رسل الأرباب، وقال لها:

«أيتها الربة النبية.. لقد هرعت[3] إليك أخبرك أن أخاك رب العواصف يحث [4] الخطى إلى مملكتك، وهو يزعق[5] ويصيح زعقات مدوية وصيحات مفزعة، وفى يده سيف طويل، فما من شىء يعترضه فى سبيله إلا حطمه وأزاحه. فالسؤال الذى يدور على جميع الألسنة.. لماذا يتجه رب العواصف إلى السماء، تاركًا رقعة البحار؟».

فقطبت ربة الشمس حاجبيها الجميلين، وتذكرت أن أخاها الهائج المضطرب، كثيرًا ما أقلق بالها، وهو اليوم أبعث على القلق، فما معنى هذا الزحف إلى مملكة السماء؟ فقالت فى نفسها:

- «إن السبب الذى من أجله يقبل أخى إلى السماء، لا يمكن أن يكون سببًا محمودًا، فلعله طامع فى ملكى، فجاء ينتزعه منى، ولكننى سأقاومه وأرده على أعقابه خاسئًا[6] خاسرًا».

(١) الرقعة: القطعة.
(٢) مثل بين يدي فلان: وقف بين يديه.
(٣) هرعت: أسرعت مضطربًا.
(٤) يحث: يستعجل.
(٥) يزعق: يصيح.
(٦) خاسئًا: كليلا مطرودًا.

ومشت ربة الشمس إلى النهر السماء الوادع الرقراق[1]، فوقفت فى ضفة من ضفافه، وحملت فوق ظهرها كنانتين [2] فيهما أكثر من ألف سهم، وشدت قوسًا عظيمة، وركزتها أمامها، ثم أزاحت طبقة من الثرى، كما نزيح نحن الثلج وغاصت فيها إلى الركبتين.

وبرزت على أكمل أهبة واستعداد، لملاقاه خصمها العنيد الطامع فى ملكها، وقتاله قتالاً لا هوادة[3] فيه.

وبرز لها أخوها بقامته المديدة [4]، وشعره الكثيف وصرخاته المخيفة المدوية، ووقف فى الضفة الأخرى من النهر فصاحت فيه أخته: «أماترازو»:

- «لماذا تركت مملكتك يا «سوزانو»؟ لماذا أقبلت إلى السماء دون أن تدعى إليها؟»

فقال رب العواصف:

- «تسألينى لماذا؟ فاعلمى أنى جئت أزورك يا شقيقتى العزيزة المنيرة»

وانطلق بعد هذ الكلام يقهقه ضاحكًا مسرورًا.

وبقيت أخته يداخلها الشك فى سبب مجيئه، على ما أبداه من مرح وسرور.

ثم يستأنف أخوها الكلام بلهجة رصينة، جادة، ويقول:

- «رغبت فى رؤيتك يا شقيقتى العزيزة العظيمة.. ذلك هو السبب الأوحد فى زيارتى.. فلماذا تتأهبين للحرب؟ ولمن تعدين هذا السلاح؟ فهيا نتبادل السلاح أو نحطمه.. أليس السلام أجمل وأسمى[5] من الحرب؟ فلنتعاهد على رعاية السلام بيننا، ولنتبادل الحب كما يجب أن يتبادله الأخوان الشقيقان.»

وقدم رب العواصف سيفه إلى أخته فحطمته، وقدمت هى سلاحها إلى

(١) الرقراق: المترقرق، المتلألئ. (٢) الكنانة: جعبة من جلد أو خشب تجعل فيها السهام.

(٣) الهوادة: الرفق واللين وما يرجى به الصلاح بين القوم

(٤) المديدة: الطويلة. (٥) أسمي: أعلى وانبل.

أخيها فنفخ فيه فتلاشى فى طبقات الجو.

واستقبلت ربة الشمس أخاها، وأكرمت وفادته [1] ورحبت به ترحيب الضيوف الكرام، ولكنه كان ضيفًا وقحًا[2] ثقيل الظل. فقد خرب كل شىء رآه فى طريقه، وهدم الحواجز، وسد ثغرات الرى، وأطاح حتى بقصر شقيقته ربة الشمس.

فثارت ثائرة ربة الشمس، ولكنها كظمت غيظها[3]، وغيبته فى مطاوى صدرها.

ثم حدث ما أثار سخطها وغضبها.

كانت ربة الشمس فى يوم من الأيام، جالسة فى غرفة الخياطة السماوية، ترقب صنع الثياب التى تخاط للآلهة، وكانت وصائفها يغزلن [4] وينسجن [5] ويعملن وهن يغنين ونشدن الأناشيد.

وعلى حين غرة، دوى فى الجو صوت مرعب، قطع أناشيد الغازلات الناسجات، وهبط عليهن من سقف الغرفة مهر [6] مسلوخ الجلد ينز [7] بالدماء.

فشاع الاضطراب والفوضى فى الفتيات العاملات، ووخزتهن [8] الإبر، ورأس كل مكوك [9] فجرح بعضهن، ومات منهن من مات.

حدث كل هذا؛ لأن رب العواصف شاء أن يلهو ويمزح ذلك المزاح الفاجر الفاضح.

فطار الحلم [10] من قلب شقيقته، وهاجمتها دعابة [11] أخيها الثقيلة الشائنة [12] فأطبقت قبضتيها مهددة، واحمر وجهها غضبًا وسخطًا، وقدحت

(1) أكرم وفادته: استقبله مرحبًا به.
(2) الوقح: من قل حياؤه واجترأ على القبائح
(3) كظمت غيظها: أخفته
(4) يغزلن: يمددن الصوف ويفتلنه خيطانًا.
(5) ينسجن: نسج الثوب، حاكه.
(6) المهر: ولد الفرس.
(7) ينز: يتحلب.
(8) وخزه: شكه.
(9) المكوك: آلة فى الحياكة.
(10) الحلم: الصبر والأناة.
(11) الدعابة: المداعبة.
(12) الشائنة: المعيبة.

عيناها بالشرر وتمدد منخراها[1] وأعلنت بصوت أجش، أنها ستتوارى فلا تطلع على أحد، ما دام الآلهة يسمحون ببقاء ذلك الشخص الغليظ فيما بينهم.

وعلى أثر إعلانها ذلك القرار، توارت وراء صخور السماء، وذهبت إلى مسكنها، فقبعت [2] فيه، وأحكمت إغلاق رتاجه[3].

وغابت الشمس عن العالم، فلا نور فى السماء ولا ضياء على الأرض، وشمل الكون ليل حالك دائم.

فأجمع رأى الآلهة على عقد اجتماع فى سهل المجرة[4].

فبدأ الآلهة يفدون إلى مكان الاجتماع، وهم يتلمسون طريقهم، فجاء رب واحد، فاثنان، فثلاثة، ثم أربعة، ثم خمسة، ثم أصبحوا عشرة، فمئة، فألفًا، فمئة ألف، ثم صاروا مليونًا، فثمانية ملايين.

اجتمع فى المجرة تلك الملايين الثمانية من الآلهة، فأخذوا يتحدثون، وأخذت أصواتهم تتعالى كطنين [5] الذباب فى فصل الصيف.

تساءلوا عن الوسيلة التى يقنعون بها ربة الشمس بالعودة إلى الظهور، فقر قرارهم على استشارة «تا كامى موزولى» رب الحيلة، فاستشاروه فقال:

ـ «قد تعود ربة الشمس إلى الظهور، إذا عادت تسمع صياح الديكة [6] فى كل صباح.»

وتحقيقًا لهذا الرأى، عمد الآلهة إلى قطع من الخشب، فصنعوا منها منابر عالية، ووضعوا فوقها ديكة قوية الحناجر لماعة الريش.

وصاحت الديكة فى الصباح، وانتظر الآلهة طلوع الشمس، ولكن على غير

(١) المنخر: الأنف أو فتحتاه.　(٢) قبعت المرأة: استترت.

(٣) الرتاج: الباب الكبير أو الباب المغلق.

(٤) المجرة: منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر فيراها كبقعة بيضاء.

(٥) الطنين: صوت الذباب.

(٦) الديكة: جمع ديك.

طائل، وتكرر صياح الديكة صباحًا بعد صباح، فما ذر[1] من ربة الشمس قرن ولا حاجب.

فلجأ الأرباب إلى رب الحيلة يستنجدونه، فأنجدهم بوسيلة أخرى، وانتهى من تفكيره إلى أن ربة الشمس أنثى، فقد يستطاع التأثير فيها، إذا أثير فضولها[2]، وشحذت غيرتها، وأغريت بالزينة والتبرج[3].

فأهاب[4] الآلهة بالإله الحداد ذى العين الوحيدة، وأوصوه بصنع مرآة، فصنعها جميلة لماعة، فركزوها بإزاء باب المغارة التى أوت إليها ربة الشمس، ووضعوا فوقها عقدًا من الجواهر، وقرابين [5] أخرى كثيرة.

ونصبوا [6] على مقربة من المغارة منصة [7] عالية، وطلبوا إلى الإلهة «أوزوم» أن ترقص فوقها.

أتُرى تسرب من المغارة المنيرة الوضاءة بعض الشعاع؟ أم أن عيون الأرباب قد تعودت الظلام رويدًا رويدًا [8]؟

وكيفما كان الأمر ، فقد شاهدوا جميعهم الراقصة الحسناء، وسروا كل السرور من رؤية وجهها النضير المستدير، وعينيها الفاتنتين، وخديها الأسيلين[9].

وتطلعوا جميعًا إلى المنصة، معجبين برقص «أوزوم» الحسناء.

(١) ذر: طلع.

(٢) الفضول: تعرض المرء لغير شأنه.

(٣) تبهرجت المرأة: تزينت.

(٤) أهاب: نادى.

(٥) قرابين: جمع قربان وهو التقدمة.

(٦) نصبوا: رفعوا.

(٧) منصة: قاعدة مرتفعة.

(٨) رويداً رويداً: على مهل، قليلاً قليلاً.

(٩) الأسيل: اللين الأملس الطويل.

وبدأت هذه برقصة هازلة، وأعقبتها برقصة أخرى هازلة، فطرب الآلهة وترنحوا بشرًا[1] وسرورًا وانطلقت ضحكاتهم تدوى فى الجواء [1] وتهز أركان المجرة.

فسمعت ربة الشمس ذلك الدوى العظيم، فدهشت له كل الدهش، وثارت فى نفسها عوامل الفضول.

وقررت أن تفتح باب مغارتها، ففتحته قليلاً جدًا وقالت:

ـ «كنت أظن أن رحيلى عنكم سيحزنكم جميعًا، ولكننى أراكم تضحكون وتمرحون، فما السبب؟ ما سبب ضحككم جميعًا يا ثمانية ملايين إله؟»

ولم يطل تفكير «أوزوم» فى إعداد الجواب عن هذا السؤال ، بل قالت لها على الفور:

ـ «أتسألينناعن سبب مرحنا وسرورنا؟ إذن فاعلمى أن بيننا ربة جميلة تفوقك حسنًا ونضارة[3] وجمالاً!»

فأذكى [4] هذا الكلام فضول السجينة الحسناء ، وأثار فيها عوامل القلق، وبدأت الغيرة تلسع قلبها، وتعض شفتيها.

ربة جديدة؟! وأجمل منها.. ترى ما صورتها وكيف هى؟ فكرت ربة الشمس فى هذا، فودت لو تشاهد هذه المنافسة، فأقبلت على باب مغارتها،وزادت فتحته قليلاً.

فماذا رأت؟

رأت فى المرآة الموضوعة إزاءها، صورة ربة متألقة الحسن والجمال.. وما درت أنها صورتها المنعكسة على المرآة.. وتكاثر عليها الفضول والغيرة والدلال، فأطارات من صدرها الحرص والغضب، فاقتربت ربة الشمس من صورتها

(١) ترنحوا بشرًا: اهتزوا وتمايلوا سرورًا.

(٢) الجواء: جمع جو.

(٣) النضارة: الحسن والنعومة.

(٤) اذكى: أشعل.

الفاتنة الساحرة، فأمسك بيدها أحد الأرباب، وقام رب آخر ونصب وراءها حبلاً من القش يمنعها من الرجوع. فعاد النور إلى العالم.

ورضيت ربة الشمس أن تبقى بين الآلهة، إذا هم عاقبوا أخاها رب العواصف، فهب الملايين الثمانية من الآلهة فحلقوا له لحيته. وانتزعوا أظافر يديه ورجليه، وطردوه من السماء، وأرسلوه إلى الأرض..

■ ■ ■

ربة وتنين

ما أجمل النزهة فى «إينوشيما» بالقرب من «يوكهاما»: إنها جزيرة تنقلب إلى شبه جزيرة، عند جزر[1] البحر، فيظهر فى أحد جوانبها شريط ضيق من الرمل، يحكى [2] صورة كلب كبير نائم، وقد أدار خطمه [3] إلى ناحية الأرض.

إنها جزيرة خضراء فى قلب بحر أزرق، تكثر فيها الغابات الجميلة المزدحمة بالمنعرجات والمنعطفات [4].

وفى أجمل البقاع منها أماكن يشرب فيها الشاى، فترى رواد[5] تلك الأماكن جالسين القرفصاء [6] على الحصائر، وهم يتأملون ما يحيط بهم من جمال.

وقامت فى القرية نفسها مطاعم مشهورة بجودة طعامها، تقدم للزائرين أشهى الألوان المصنوعة من مختلف أنواع الأسماك، ونهضت فيها كذلك حوانيت مملوءة بالتحف والهدايا المشغولة بالصدف، تتيح للسياح شراء ما يهوون ويرغبون.

وما من مار بجزيرة «إينوشيما» إلا توقف هنيهة، وذهب يزور مغامرة الإلهة «بنتن» ويقدم لها فروض الإجلال.

والإلهة «بنتن» هى إحدى آلهة السعادة السبع، وهى الأنثى الوحيدة بين هؤلاء الآلهة.

---

(١) الجزر: ضد المد وهو رجوع البحر إلى الخلف.

(٢) يحكى: يشبه.

(٣) خطم الدابة: مقدمة أنفها وفمها.

(٤) المنعرجات والمنعطفات: الدروب الملتوية.

(٥) رواد: جمع رائد وهو من يذهب ويجيء فى طلب الشيء وفى الأصل تفقد المراعى الصالحة.

(٦) القرفصاء: أن يجلس الرجل على إليته ويلصق فخذيه ببطنه ويحتبى بيديه، أو يجلس على ركبتيه ويلصق بطنه بفخذيه.

فلماذا يحرص زوار جزيرة «إينوشيما» على أن يعربوا لها عن شكرهم وعرفانهم للجميل؟

❖❖❖

منذ نحو خمسة عشر قرناً، لم تكن الجزيرة قد برزت من الماء، وكانت المغارة التى فيها، مأوى لتنين هائل مخيف.

وكان ذلك التنين ضخم الجثة، ولكن لين الأعطاف[1] يجيد السباحة إجادته للزحف على الأرض، وكان ذا فم بل قل ذا غور [2] مملوء بالأسنان المرهفة الحادة، وكان يحلو له أن يتناول به لحم الأطفال الطرى الناعم.

تعود هذا التنين أن يطوف البحر فى محاذاة [3] الشاطئ، حتى إذا رأى الأطفال يستحمون فيه أو يلعبون، سبح إليهم ، أو جرى فهجم عليهم واختطفهم، ثم قضمهم[4] وابتلعهم.

فكم أثار فى الأسر من حزن وحداد وكم أسال الدموع من عيون الآباء والأمهات! وكم ملأ قلوب الأهلين بالخوف على أبنائهم الذين لما يحكم عليهم سوء الطالع [5] بأن يكونوا ضحية ذلك الوحش الفظيع.

❖❖❖

وشاءت الإلهة «بنتن» أن تقضى على تلك الآلام والأحزان، وأن تغمر جميع الناس بالسعادة ما دامت هى ربة السعادة.

أجل شاءت أن تغمر جميع الناس بالسعادة، سواء أكانوا من الصالحين أم من الطالحين [6] بل شاءت كذلك أن يشمل فيض السعادة ذلك الوحش آكل

(١) الأعطاف: الجوانب.

(٢) غور: كهف.

(٣) فى محاذاة: بإزاء.

(٤) قضم الشىء: كسره بأطراف أسنانه. وأكله.

(٥) سوء الطالع: سوء الحظ.

(٦) الطالحين: الأشرار.

لحوم البشر

وكانت تقول فى نفسها

- «لئن كان هذا التنين غليظ الكبد. وحش الطباع. إنه لا شك غير سعيد، فالشقاء هو الذى يجعل النفوس غليظة جافية[1]».

وحدث أن احتشدت فى يوم من الأيام طائفة من سُحب، وتراكمت[2] فوق المغارة التى يسكنها التنين. وكانت ربة السعادة جالسة فوق سحابة من تلك السحائب، وقد أمالت إلى البحر رأسها المستدير، المحلى بعينين واسعتين وفم صغير جميل.

وأمر ربة السعادة الجزيرة الغارقة فى المياه، أن ترتفع فوق سطح البحر فارتفعت، وظهرت المغارة للعيان [3] وامتدت من حولها الأرض، واكتست بالغابات. وكانت تلك الجزيرة هى جزيرة «إينوشيما».

ووقف التنين الوحش عند مدخل مغارته، يمتع نظره بهذا المنظر الفريد،فرأى ربة السعادة تنزل من السماء، إلى هذه الأرض التى برزت منذ قليل إلى الوجود.

ومضت ربة السعادة فى سيرها ونزولها مشرقة الوجه، مبتسمة الثغر [4] حتى وصلت إليه فقالت:

- «أتعيش وحدك فى مغارتك؟ ألا يدركك فيها السأم والضجر؟ ما من أحد يستطيع الحياة دون عطف وود ومحبة.

أفتريد أن تتزوجنى؟ إننا سنعيش معاً سعيدين مغتبطين. وسنرزق بالأولاد.. وستحب أولادك.. وسوف تمتنع بعد ذلك عن حطف أولاد غيرك وأكلهم».

(١) جافية: قاسية.

(٢) تراكمت: اجتمعت بكثرة وازدحام

(٣) للعيان: للنظر

(٤) الثغر: الفم.

فرضى التنين بما عرضته عليه ربة السعادة. وجرت الأمور على النحو الذى توقعته «بنتن» واستتب الأمن والهدوء فى شواطئ جزيرة «إينو شيما».

ومنذ ذلك الحين، وأهل الورع[1] والتقوى من اليابانيين. لا ينقطعون عن شكر ربة السعادة وتمجيدها.

■ ■ ■

(١) الورع: التقوى.

سوزانو رب العواصف

يا لهذا الرجل الشيخ، ويا لهذه المرأة العجوز ما أشقاهما.. إن الكآبة لتقرأ على أسارير[1] وجهيهما، إنهما عجوزان طاعنان فى السن ترتجف شفاههما، وتنكسب الدموع على خدودهما المتجعدة.

جلس هذان العجوزان أمام منزلهما المتواضع، القائم على ضفة النهر، وجلست بينهما فتاة جميلة ممتقعة[2] الوجه، مضطربة البدن قد استرسل شعرها الكثيف على كتفيها، فى غيرنظام ولا ترتيب، وكانت عيناها قد اتسعت حدقتاهما[3] وارتفع حاجباها فوقهما كمن يتوقع أن يشهد منظرًا غريبًا مخيفًا.

ترى ماذا كان ينتظر هؤلاء الناس؟ ومم كانت تخاف الصبية الحسناء وأبواها؟

وسمع بعد قليل وقع أقدام، ولم يكن القادم هو من كانت تلك الجماعة تخشى رؤيته، فقد لاح على وجههم السرور برؤية غير من كانوا يتوقعون.

ولم يكن الشخص الذى برز أمامهم إلا «سوزانو» رب العواصف، فتقدم إليهم تبدو على قسماته القوة والشباب، ويتدلى من حزامه حسام طويل، فأخذ يلوح بذراعيه، ويدندن[4] ببعض الأغانى.

وكان هذا الرب قد طرد من السماء، استجابة لرغبة شقيقته ربة الشمس، فنزل إلى الأرض، وسار يطوف فى مقاطعة «إيزومو» فرأى على صفحة المياه

---

(١) أسارير: جمع أسرار وأسرار جمع سر وهو الخط في الكف أو الجبهة.

(٢) امتقع: تغير لونه من حزن أو فزع ريبة.

(٣) الحدقة: سواد العين الأعظم.

(٤) دندن: نغم ولم يفهم منه كلام.

عصًا قصيرة. من تلك العصى التى يستخدمها اليابانيون فى تناول الطعام، فاستنتج من ذلك أنه لو مشى والنهر، لصادف حتمًا أناسًا من البشر. وهكذا حدته[1] الظروف إلى لقاء تلك الفتاة الحسناء. ووالديها العجوزين.

ولقد كان رب العواصف هذا. قد ارتكب كثيرًا من الحماقات. فطرد من السماء. ولكنه منذ أن هبط الأرض. واختلط بالناس. استأنس ورق شعوره. وعذبت[2] خلاله.

فلما رأى هؤلاء الأشخاص الثلاثة. وطالعته فى وجوههم سيماء[3] الحزن والكآبة أخذته نحوهم عاطفة نبيلة من المواساة.

فاقترب منهم وحيًا وقال بلهجة مفعمة بالحنان.

ـ «إيها الشيخ الوقور.. من أنت؟».

فرد الشيخ التحية بأحسن منها وقال:

ـ «اسمى «أسينا زوكى» يا سيدى الجليل.. وأنا ابن رب الجبل الكبير. واسم زوجتى «تينا زوكى» أما ابنتى فهى الأميرة «كونيزادا».

فانحنى رب العواصف «سوزانو» ثم قال بلهجة رقيقة تأسر السامع. وتجعله يثق به:

- «ولماذا تبكون؟»

فقال الشيخ:

ـ «نبكى وننتحب: لأن التنين ذا الرؤوس الثمانية. قد أزف[4] وقت مجيئه. فهو سيحضر عما قريب لينزع منا ابنتنا الثامنة».

وكنا الرقم ٨ ذا شأن خاص من ذلك العهد ببلاد اليابان.

---

(١) حدته: قادته ودفعته.

(٢) عذبت: صارت عذبة أي حلوة.

(٣) سيماء: علامة.

(٤) أزف: اقترب.

وعاد الشيخ وزوجته العجوز إلى البكاء والانتحاب، فى حين كانت الأميرة «كونيزادا» تحدق فى «سوزانو» وتغمره[1] ببصرها البراق.

فقال «سوزانو»:

ـ «هدئوا بالكم. وكفكفوا[2] دموعكم. وقولوا لى: ماذا تخشون وممن تخافون؟».

فقال الأب الشيخ:

ـ «كان لى ثمانى بنات، ذهبت سبع منهن فريسة التنين ذى الرؤوس الثمانية. فإنه يأتى إلينا مرة فى كل عام. ويخطف واحدة من بناتى ويلتهمها. وها هى ذى ابنتى الثامنة. ينتظرها هى أيضًا ذلك المصير الفظيع. فإذا فقدناها فقدنا أنس الحياة وبهجتها، وفقدنا معها الأمل. فى أن نرى لنا يومًا أحفادًا يخلدون ذكرانا بعد مماتنا، ويحتفون بجنازتنا وتشييعنا إلى المقر الأخير».

وعاد الشيخ إلى البكاء وذرف الدموع. فسأله «سوزانو»:

ـ «وما شكل هذا التنين؟».

فقال الشيخ:

ـ «إنه تنين هائل، يمتد جسمه فوق ثمانية أودية وثمانية تلال، وله ثمانية أذناب. أما عيناه فحمراوان مثل لون الكرز الناضج، وأما بطنه فدام[3] يقذف اللهب».

وزادت المرأة العجوز على ذلك وقالت:

ـ «وجسمه مغطى بالعشب والأشجار الضخمة».

فقاطع «سوزانو» المرأة العجوز، والتفت إلى «كونيزادا» وقال:

ـ «إذا كانت هذه الأميرة ابنتكما، فهل تقبلان أن أتزوجها؟».

---

(١) تغمره ببصرها: تبالغ في النظر إليه.

(٢) كفكف الدمع: مسحه مرة بعد مرة.

(٣) دمي الجرح: خرج منه الدم.

سمعت الفتاة هذا الكلام، فلمعت عيناها السوداوان، ثم غلبها الحياء فأغمضت جفنيها، ولكن حفق قلبها فرحًا، وسرها أن يكون لها مثل ذلك المدافع، فينقذها من شر التنين.

على أن العادات والتقاليد كانت تقضى بالاستفسار عن الخطيب، قبل أن تزف إليه العروس.

فقال الشيخ لطالب يد ابنته:

- «عذرًا إذا كنت على شيء من الفضول.. واسمح لى أن أقول لك: إنى لا أعرف من أنت، ولا أعرف حتى اسمك الكريم».

فقال «سوزانو»:

- «أنا «سوزانو» شقيق ربة الشمس، قد نزلت إلى الأرض منذ قليل».

ولم يذكر «سوزانو» هذا، سبب نزوله إلى الأرض.

فانحنى الشيخان العجوزان إجلالاً، وتشاوروا فيما بينهما ثم قال الرجل الشيخ بصوت مضطرب:

- «لنا الشرف أن نمنحك أيها السيد الجليل يد ابنتنا».

فلمس[1] «سوزانو» كتف الأميرة العذراء، فحولها على الفور بقوة السحر، إلى مشط كثير الأسنان، فغرزه[2] فى شعره الكثيف ثم طيب خاطر الأبوين الشيخين وقال لهما:

- «والآن سأعنى بالتنين».

فكر «سوزانو» طويلاً، ثم وضع كفه على مقبض[3] سيفه الطويل القاطع، وعاد يقول لنفسه: مهما كان هذا السيف طويلاً ماضى الحد، فلا إخاله[1]

---

(١) لمس: مس

(٢) غرزه: أدخله وأثبته.

(٣) المقبض: ما يقبض عليه من السيف وغيره مجمع الكف.

ينفعنى، فى قتال تنين يمتد جسمه فوق ثمانية أودية وثمانية تلال، فلابد إذن من أن أعمد[٢] إلى الحيلة، وكأنه اقتنع بهذا الرأى فقال للشيخين:

ـ «عليكما باتباع نصائحى، وتنفيذ ما أوصيكما به، شيدا جدارًا متينًا، يحمى منزلكما من الجهة التى يقبل منها التنين، واستحدثا فيه ثمانية منافذ، وضعا عند كل منفذ من هذه المنافذ الثمانية منصة فوقها إناء، واملأ الإناء بشراب الساك[٣]، على أن يكون أقوى من الشراب العادى بثمانية أضعاف ثم انتظرا.

فأطاع العجوزان رب العواصف، وقاما بما أمرهما به، وانتظرا وانتظر معهما «سوزانو» وهو يعبث بسيفه، وكان من حين إلى حين، يصلح وضع المشط فى رأسه.

ما أغرب تصرف القدر.. بل ما أغرب أن يتأهب أحد للقتال فى سبيل حبيبة يحس بها فى شكل مشط مغروز فى شعره.

وعلى حين غرة، لاح عن بعد بصيص[٤] ستة عشر نوراً أحمر، هن عيون الرؤوس الثمانية، وسمع تقصف الأشجار، وتطاير الأغصان، ثم برز شيئًا فشيئًا جسم هائل، أشبه بجبل متحرك.

وكان التنين يتقدم بسرعة لا تتوقع[٥] من مثل تلك الكتلة المتحركة، متفقدًا[٦] الفتاة العذراء، مشتهيًا لحمها الطرى.

وكان إلى اشتهائه اللحم الطرى، أجشع[٧] ما يكون إلى الكحول، فقد فعلت رائحة شراب الساك فعلها فى منخريه الواسعين.

(١) لا إخال: لا أظنه.

(٢) عمد إلى: ركن إلى.

(٣) الساك: شراب يصنع من الرز والكحول.

(٤) البصيص: البريق واللمعان.

(٥) تتوقع: تنتظر.

(٦) تفقده وافتقده: طلبه عند غيبته.

(٧) الأجشع: النهم.

فمد التنين رؤوسه الثمانية من الأبواب الثمانية، وغطس كل رأس فى إناء، وأخذ يعب[1] ويعب ويعب من شراب الساك أثر الشراب فى التنين فسكر، واشتد سكره فنام، وانطرح جسمه عند الجدار المشيد أمام منزل «أسينا زوكى».

وجرد «سوزانو» عندئذ سيفه الطولى، وغرسه فى الجانب الأيسر من خصر التنين[2] فانبثق منه دم غزير، سال مسيل الينابيع المتدفقة، فتحرك التنين وخار[3]، ولكنه لم يستيقظ.

واتجه «سوزانو» إلى الجانب الأيمن من خصر التنين، فغرس فيه سيفه، فانبثق منه كذلك نبع من الدماء، سالت إلى النهر فغيرت لون مائه.

وبدا لرب العواصف «سوزانو» أن التنين قد فارق الحياة، غير أنه شاء أن يثق بذلك كل الوثوق، فأغمد سيفه فى منتصف تلك الجثة الهائلة، فانكسر السيف.. وكان التنين من حسن الحظ قد مات.

ودهش «سوزانو» من انحطام سيفه، وشاء أن يعرف بماذا اصطدم حتى تحطم، فشق جسم التنين كما لو كان يشق شمامة[4] ناضجة، فرأى فى داخل الجسم سيفًا طويلاً رقيق الشفرتين[5]، فخطر بباله، أن يهدى ذلك السيف الطويل الرقيق الشفرتين، إلى ربة الشمس.

وانتزع «سوزانو» من شعره الكثيف، ذلك المشط الثمين الكثير الأسنان، وبقدرة سحره، أحاله إلى الأميرة الجميلة «كونيزادا».

فشكرت الأميرة منقذها شكرًا جزيلاً، واحتفظت له فى قلبها هذا الجميل، وأحبت ذلك الفتى الإله حبًا شديدًا.

---

(١) عب الماء: شربه أو كرعه بلا تنفس.

(٢) الخصر: وسط الإنسان فوق الورك.

(٣) خار: صوت كالثور.

(٤) الشمامة: نوع من البطيخ الأصفر.

(٥) الشفرة: الحد.

ورحل العروسان، وسكنا قصر «سوجا» الذى تحف به ثمانية سحب كثيفة، تمنع عن خدر[1] العروسين، نظرات أهل الفضول والتطفل.

وعاش العروسان فيه سنوات متعددة، ورزقا بكثير من الأولاد، وكانا على أعظم جانب من الهناءة والسعادة والإقبال.

■ ■ ■

(١) الخدر: سكن المرأة

الحب البنوى

منذ أن كان «كومتز وسيشى» طفلاً صغيرًا وهو يحفظ فى صدره لوالديه محبة فائقة، واحترامًا وافرًا، وشكرًا لا حد له.

وكان يحرص كل الحرص على أن لا يغضبهما، ولا يسبب لهما ما يتبرمان به ويضجران، فكان يطيع أوامرهما بلا تردد، ويجتهد أن يلبى جميع رغباتهما، وكان يساعدهما فى مختلف الأمور، ويقوم عن طيب خاطر بما يعهدان[١] فيه إليه، ويعين أمه فى شؤون المطبخ، أو فى شؤون الحياة اليومية، يفعل كل هذا مدفوعًا إليه بعاطفة المحبة والوداد.

فكم من مرة رؤى عائدًا من السوق، وهو يحمل السمك، أو البقول[١] والخضر لصنع طعام الأسرة، وكم من مرة نهض فيها إلى النفخ فى فحم الموقد، ليشتعل ويدفئ الغرفة، وكم من مرة دخل الحمام، ونشف جسم والده بعد الاستحمام، وكم من مرة صحب أخيه الصغير بعد إذ ربطه إلى ظهر أخته الصبية جريًا على عادات البلاد، وسار معهما إلى النزهة.

وكلما اشتد ساعده وكبر، كان يدرك كل الإدراك، ما بذله أبواه فى سبيله، وما قاما به من التضحية، فى تنشئته وتربيته وقضاء حوائجه، ألم ترضعه أمه حتى سن الثالثة؟ أو لم يشتر له أبوه على ضآلة دخله[١]، جميع اللعب التى اشتهاها، فمن طائرات من الورق، إلى أقنعة، إلى ذلك الكلب الضخم من عجينة الورق، وقد كان كنزه العزيز إلى وقت طويل؟ فكيف يفى بالدين الذى على عاتقه لمثل هذين الأبوين؟ إن «كومتزو» كان يشعر دائمًا بعجزه عن التوفية[١] بجميل أبويه.

---

(١) عهد فى الشىء إلى فلان: كلفه إياه ووكله به.

(٢) البقول: جمع بقل وهو ما ينبت فى بذرة لا فى أصل ثابت.

(٣) الدخل: ما دخل عليك من مالك ويقابله الخرج.

ها هو ذا الآن فتى يافع[٢]، يقضى كل وقته فى مطالعة المؤلفات الصينية عن الأخلاق وسمو الخلال، على غرار[٣] ما تفعله بعض البيئات اليابانية المغرمة بآثار علماء الصين، ولقد أوضح هؤلاء العلماء واجب الأبناء نحو والديهم، ومحصوا[٤] ذلك الواجب كل التمحيص، فما تركوا فيه شأنًا من الشؤون إلا بحثوه وأعلنوه فقد قالوا: يجب على الأبناء أن لا يبصقوا، ولا يتثاءبوا ولا يسعلوا ولا يعطسوا فى حضرة والديهم، ويجب أن ينظروا إليهم دون تحديق، وأن يحكوا جلدهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وأن يأكلوا من فضلات طعامهم.

ولشد ما عنى «كومتزو» كل العناية بأولئك النفر[٥] الذين كانوا مضرب الأمثال فى الحب البنوى، وموضع الإكبار والتمجيد فى الشرق الأقصى.

فواحد منهم كان شابًا رقيق الجلد ناعم الجسم، ولكنه كان مع ذلك ينام فى الليل بغير كلة[٦] لكى يستجلب نحوه جميع البعوض، ويضمن لوالديه نومًا هادئًا هنيئًا.

وآخر كانت له حماة نهمة[٧] أكول، تحب أكل السمك، وتحزن كلما أقبل الشتاء، وجمدت البحيرات، وانقطع صيد السمك، فكان ذلك الشاب يذهب إلى البحيرة، وينطرح عُريان على سطح الجليد، حتى تذيب حرارة جسمه ذلك الجليد تحته، فيأتى بعض السمك ليستنشق هواء الفضاء، فكان يصيده ويقدمه إلى حماته.

وكان «كومتزو» تعجبه على الأخص الأسطورة التى تروى قصة ابنة حاكم من

---

(١) التوفية: الوفاء.

(٢) اليافع: الغلام إذا ترعرع وناهز البلوغ.

(٣) على غرار: على مثال.

(٤) محصوا: كشفوا.

(٥) النفر: الناس أو الجماعة منهم.

(٦) الكلة: «الناموسية».

(٧) نهمة: جشعة.

حكام الصين، وفحوى[١] هذه الأسطورة أن إمبراطور الصين، كان قد أمر ذلك الحاكم باستصناع جرس ضخم يصل صدى صوته إلى أبعد الأطراف[٢]، فدعا ذلك الحاكم أشهر السباكين فى عصره، وعهد إليهم فى صنع الجرس المطلوب، وأمرهم أن يخلطوا فيه النحاس بالذهب، لكى يكون قوى الصوت، بعيد الصدى، وأن يخلطوه كذلك بالفضة لكى يكون ناعم الصوت عذب الجرس[٣].

ولكن النتيجة كانت محزنة مخيبة للأمال، فأنهى الإمبراطور إلى الحاكم بأنه إذا أخفق فى صنع ذلك الجرس للمرة الثالثة، فسوف يضرب عنقه.

وهنا نهضت ابنة الحاكم بعملها البديع الرائع، فباعت سرًا بعض جواهرها لتستطيع أن تستشير أحد المنجمين، فغاص هذا فى كتبه الروحانية وأوراقه، واستشار البروج والأفلاك، وعاد من ذلك البحث العويص فقال للفتاة: لن يمتزج الذهب والفضة والنحاس فى ذلك الجرس، مادامت تلك المعادن لا يسبك معها لحم فتاة شابة، ولا يسقيها دم عذراء من العذارى.

ولما أعيد صنع الجرس للمرة الثالثة، طلبت ابنة الحاكم أن تشهد سبك المعادن عن كثب[٤] وعلى حين غرة[٥] رمت بنفسها فى المصهر[٦] وهى تصيح قائلة:

ـ «أفعل هذا حبًا لك يا أبى».

وتم صنع الجرس، فجاء كامل الصفات، جميل الشكل، بديع اللون، وجاء صوته أقوى وأعذب، من كل جرس سواه، ولكن يخالطه فى بعض الأحيان شكاة[١] وانتحابه وزفرة.

(١) الفحوى من الكلام: مذهبه ومعناه.

(٢) الأطراف: الجوانب والجهات

(٣) الجرس: الصوت أو خفيه.

(٤) عن كثب: عن قرب.

(٥) على حين غرة: فجأة.

(٦) المصهر: مكان صهر المعادن.

(٧) شكاة: شكوى.

كان «كومتزو» يحب مثل هذه القصص، ويتمنى لو أصبح بطل أسطورة من مثل تلك الأساطير، فما أسعده لو ضرب به أيضًا فى الحب البنوى.

غير أن الحياة كانت تجرى أيامها وأعوامها، والفرصة المرتقبة لا تحين..[1]

بلغ «كومتزو» الخامسة والسبعين من عمره، ولم تتهيأ له الفرصة للقيام بعمل عظيم من أعمال البطولة، يضعه فى مصاف[2] أولئك الأبناء الأبطال الذين يحبهم ويمجدهم.

وكان على كل حال فرحًا بأن يرى كلا من أبيه وأمه، حيًا يرزق وقد تجاوز المئة من الأعوام.

ولم يكن هذان الشيخان الطاعنان فى السن، راضيين عن شيخوختهما، على ما كان ابنهما يحيطهما به من الرعاية والمحبة، فقد كان متبرمين بالشيخوخة، حاقدين عليها، لأنها عنوان الضعف والعجز والعلل.

وكانا إذا تذكرا شبابهما، وقاساه إلى الشيخوخة، شعرا بالمذلة والهوان.

كيف لا وقد قصرت[3] قامتهما، ونقص وزنهما، واضمحلت قواهما، وحسر[4] بصرهما وضعف سمعهما.

ولقد ثقلت عليهما وطأة الشيخوخة[5] حتى أصبحا لا يجسران[6] أن ينظرا نفسيهما فى المرآة، ليتجنبا رؤية وجههما المتجعد، وجلدهما الجاف، ولونهما الضارب إلى لون العاج القديم.

وكانا أعجز من أن يستطيعا اتخاذ قرار فى مسألة من المسائل، أو ضم

(١) لا تحين: لا تأتى.

(٢) المصاف: جمع مصف وهو موضع الصف.

(٣) قصرت: نقصت.

(٤) حسر: ضعف وكل.

(٥) وطأة الشيخوخة: ثقلها.

(٦) يجسران: يقدمان.

فكرة إلى أخرى، أو التعبير عن رأى خمير[١] بكلام سليم.

فهالهما أن يعرفا أنهما على شفا[٢] الجنون.

حاول «كومتزو» إبان حياته الطويلة، أن يلطف دائمًا آلام أبويه، ويشفيهما مما تعرضا له من الأدواء[٣] والعلل.

ولكن كيف يستطيع الآن أن ينقذهما من ألم الشيخوخة، ويشفيهما من هذه العلة التى تنغص عليهما الحياة؟

ففكر طويلاً وأعمل الروية[٤] حتى وجد الحل، أو ظن أنه عثر على الحل.

ورآه الجيران يومًا فى سوق لعب الأطفال، يشترى طبلاً، وطائرة من الورق، وأرنبًا من عجينة الورق.

واشترى كذلك رداء «كيمونو» وردى اللون، والـ«كيمونو» رداء عريض الكمين، يلبسه اليابانيون واليابانيات؛ ويعدونه الرداء الوطنى، وهو فى الغالب قاتم اللون، أما الألوان الزاهية فلصغار الصبية والفتيات.

وعمد «كومتزو» بعد ذلك إلى سارية طويلة، فشكّها إزاء منزل أبويه، وربط فى رأسها سمكة كبيرة من الأسماك المصنوعة من الورق البراق، وكانت فارغة الجوف تهزها الريح كلما هبت، وتملأ جوفها فتبدو بدينة[٥] سمينة.

وفى بلاد اليابان عيد يسمى عيد الصبية، يحتفل به الأهلون، ويضعون على مثل تلك السارية، عددًا من السمك يوازى عدد ما عندهم من صبية ذكور، لم يتجاوزوا السابعة من العمر.

ويريدون بذلك الرمز، أن يعربوا[١] عن أملهم فى أن يروا أبناءهم يتغلبون

(١) خمير: ناضج.

(٢) الشفا: حرف كل شىء.

(٣) الأدواء: الأمراض.

(٤) أعمل الروية: أطفال التفكير

(٥) بدينة: سمينة

على المصاعب فى الحياة، كما يتغلب السمك على تيار الرياح، فيجتاز مجارى الأنهار.

ولقد دهش أبوا «كومتزو» المعمران(٢)، اللذان تجاوزا المئة من السنوات، لما رأيا تلك السارية الطويلة أمام منزلهما، وفى رأسها سمكة كبيرة من الورق.

وازدادت دهشتهما عندما شاهدا ابنهما على الرغم من سنه الخمس والسبعين، يلبس «كيمونو» وردى اللون، شبيهًا بما يلبسه صغار الأطفال، ويحرك شفتيه فى مثل تمتمة(٣) الوليد، ويلعب بأرنب من الورق المقوى كان فى يده ويطبل يضربه من حين إلى حين، فيطرب لصوته المدوى.

وشاء «كومتزو» بذلك الصنيع، أن ينقل أبويه إلى عالم الأوهام اللذيذة، ليشعرا بأنهما بعيدان كل البعد عن الشيخوخة مادام لهما ابن صغير السن.

ويمثل ذلك التفكير الساذج، والخيال الموشح بالحنان، أصبح «كومتزو» فى عداد الأبناء الذين تعدهم اليابان مضرب المثل للحب البنوى.

■ ■ ■

---

(١) يعربوا: يعبروا.

(٢) المعمر: الطاعن فى السن الطويل العمر.

(٣) التمتمة: التعجيل في ''كلام دون إفهام.

المصادر والمراجع

١. لطفى وحيد: أشهر الديانات القديمة، مكتبة معروف، ١٩٩٣.

٢. أسعد السحمرانى: من قاموس الأديان ـ الشنتوية ـ الكونفوشية، دار النفائس، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٩.

٣. ولترفيرسرفس: أصول الحضارة الشرقية، ترجمة: رمزى بس، راجعه: دكتور أنور عبدالعليم، سلسلة الألف كتاب، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٠.

٤. صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ترجمة: دكتور أحمد عبدالحميد يوسف، مراجعة: دكتور عبدالمنعم أبوبكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

٥. بلفنش: عصر الأساطير، ترجمة: رشدى السيسى، راجعه: دكتور صقر خفاخة، سلسلة الألف كتاب، النهضة العربية، ١٩٦٦.

٦. قصص وأساطير من الصين، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.

٧. قصص وأساطير من اليابان، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.

٨. سليمان مظهر: أساطير من الشرق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٩. إبراهيم جلال: الأساطير الصينية وروائع الحواديت والحكايات الشعبية، دار مشارق، ٢٠٠٩.

١٠. قصص شعبية للصين، جامعة شيكاغو.

١١. القصص الصينية، نيويورك، ١٩٩٧.

١٢. قصص الحوارى الصينية والتخيلات، نيويورك، ١٩٧٩.

١٢- علم الأساطير، نيويورك، ١٩٨٠.

١٤- آلهة وشياطين الشرق الأقصى، نيويورك.

١٥- ساوز إيديميتسو: كن يابانيًا أصيلاً، ١٩٧٣.

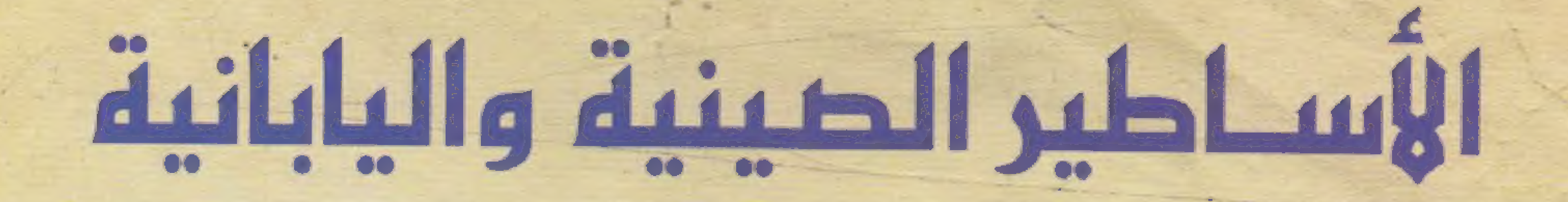
١٦- جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب.

١٧- ول ديورانت: قصة الحضارة.

١٨- جون كولر: الفكر الشرقى القديم.

- مواقع عربية وأجنبية على شبكة الإنترنت الدولية.

فهرس المحتويات



الكونفوشيوسية - البحث عن إكسير الحياة - إلهة القمر - "يو" يعيد بناء الأرض - "كوا" والشمس - "فوشى" يعلم الناس - الراهب "شيوان تسانغ" - عقيدة الشنتو - ابن السماء - "سوزانو" رب العواصف

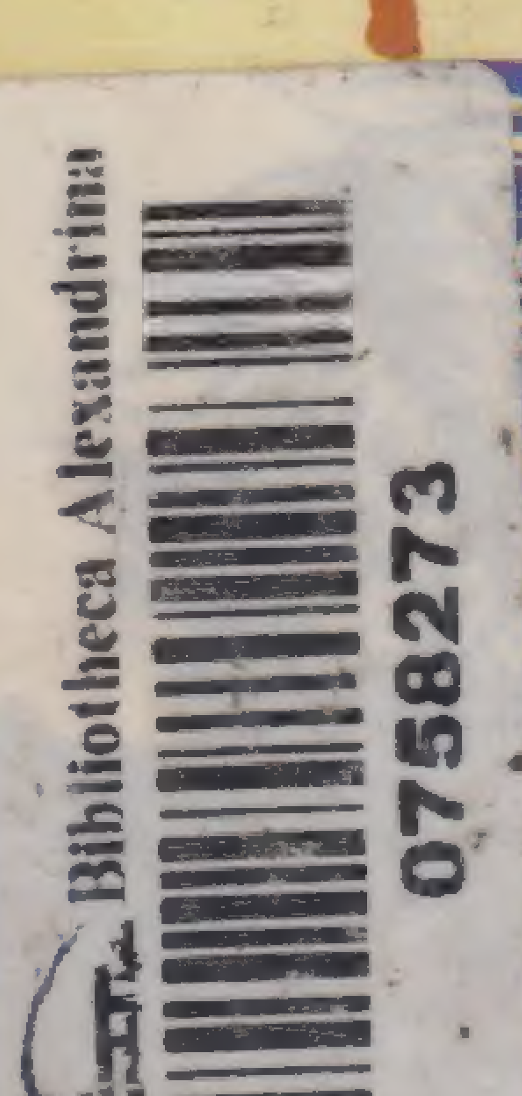
يقول ول ديو دانت فى قصة الحضارة : لم يشهد التاريخ شعباً من الشعوب أشد من الشعب الصينى استمساكاً بالخرافات، أو أكثر منه تشكيكاً، أو أعظم منه تقى، أو أكثر انصياعاً لحكم العقل، أو أقوى منه دنيوية.

ولم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية فى التحرر من سيطرة الكهنة، ولم يسعد قوم، بآلهتهم، أو يشقوا بها، بمثل ما سعد الصينيون أو أشقوا.

ولقد اتسعت الأساطير اليابانية بأنها ألهت ظواهر الطبيعة ولكنها لم تصبغ بالصبغة الإنسانية إلى حد كبير.

وأتركك عزيزى القارئ لتطالع بعض الأساطير الصينيه واليابانية لعلك تجد فيها المتعة العقلية.

W.Salama 010 15 17 873



كنوز
للنشـر والتـوزيع